



تجليد  
صالح النقر  
بيروت - المزرعة

1972

~~21 APR 1971~~

20

DE 07

29 JUN 1972

07

201 Dec. 1891

بنت الشاطئ

89278

A316YA

# الحياة الإنسانية

عند أبي العلاء

لمُخْلِفْنَا؟ وَكَيْفَ نَحْيَا - وَالْأَيْنَ الْمَصِيرُ؟

بحث نوقش في كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول في ١٨ من يونية ١٩٤١  
ونال درجة الماجستير في الآداب ، مع مرتبة الشرف الأولى

59659



مكتبة المعارف ونشره  
مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر



الاهراء

إلى الذين يؤمنون بأن أبا العلاء  
لا يزال في حاجة إلى درس!

## المراجع .

أشرتُ في أذيال الصفحات إلى المراجع ،  
وعرّفتُ بها ، فلم أر حاجة لما اعتاده المؤلفون  
من التزويد بوضع ثبّت مفرد لتلك المراجع .



# دليل

الرقم	الموضوع	الصفحة
	مقدمة .....	١
	<b>الكتاب الأول</b>	
١	المقالة الأولى - منهجه في التفكير .....	٩
	أصول المعرفة .....	٩
	إيمانه بالعقل .....	١٠
	رأيه في الحس والحسب: قياسهما بالعقل .....	١٢
	اعترافه بقصور العقل واتهامه إياه .....	١٤
	تعليل اضطرابه في مسألة المعرفة .....	١٦
٢	المقالة الثانية - أبو العلاء بين الشعر والفلسفة .....	٢٥
	الخلاف في أبي العلاء - أقوال من أنكروا فلسفته .....	٢٥
	أقوال من أنكروا شاعريته .....	٢٨
	مكان أبي العلاء بين الشعر والفلسفة .....	٣٥
	الفرق بينه وبين الشعراء .....	٣٨
٣	المقالة الثالثة - أبو العلاء أمام الحياة الإنسانية .....	٤٥
	تشاؤمه وردة إلى دواعيه - متاعبه في حياته الخاصة .....	٤٥
	نضاله مع الدنيا ، وهزيمته في هذا النضال .....	٤٩
	حياته بعد العزلة .....	٥٤
	سوء الحياة العامة في زمانه ومكانه .....	٥٨
	<b>الكتاب الثاني - مراحل الحياة الإنسانية</b>	
٤	المرحلة الأولى - العلة الغائية للوجود .....	٦٥
	الخصومة فيها في البيئة اليونانية .....	٦٦
	الخصومة في البيئة الإسلامية .....	٦٩
	أبو العلاء والعلة الغائية .....	٧٣
٥	المرحلة الثانية من مراحل الإنسان (مرحلة الحياة) .....	٨٧
	متاعب الإنسان (مشكلة الخير والشر) .....	٨٨
	الخير والشر - تعذر ضبط مقاييسهما .....	٨٨

الصفحة	الموضوع	الرقم
٩٧	علنا الذي نعيش فيه ، أخير هو أم شر؟	
١٠٣	من خلق الشر؟	
١٠٩	علة خلق الشر	
١٢١	أخطاء الإنسان (مشكلة الجبر والاختيار)	٦
١٢١	حرية الإرادة	
١٢٢	الخلاف فيها في البيئة اليونانية	
١٢٤	عنف الخصومة في البيئة الإسلامية	
١٢٥	انقسام المسلمين فرقا ثلاثا	
١٣٠	أبو العلاء ومشكلة الجبر والاختيار	
١٣٠	قوله بالجبر	
١٣٤	قوله بالاختيار	
١٣٧	تردده بين بين	
١٤١	تردده في مسألة الثواب والعقاب	
١٤٧	إيمانه بعدل الله	
١٤٩	المرحلة الثالثة من مراحل الانسان ( الموت )	٧
١٥٠	سوء ظنه بالدنيا ورغبته في التخلص من محنة الحياة	
١٥٦	فزع الرهيب من الموت وتشبته بالحياة	
١٦٦	أسباب فزعه : لم يبرأ من حب الدنيا	
١٧٤	جهله وخوفه مما وراء الموت	
١٧٦	الموت هو المأساة الإنسانية الكبرى	
١٨٧	المرحلة الأخيرة من مراحل الإنسان	٨
١٨٨	مصير الإنسان	
١٨٨	بلى الأجساد وانهك الرمم	
١٩٠	نسيان الأحياء للأموات	
١٩٢	عدم اطمئنان أبي العلاء إلى ما يقال عما وراء ذلك	
١٩٣	توقف العقل عن إبداء الرأي	
١٩٤	قدرة الله على البعث والحشر	
١٩٦	حيرة أبي العلاء وتردده بين توقف العقل وإعجاز القدرة	
١٩٩	عند الموتى الخبر اليقين	
٢٠٠	ولكنهم لأيمودون ، ولا يجيبون سؤالاً	
٢٠٥	الخاتمة	٩

## مقدمة الفهرس :

١

يظهر هذا البحث في موسم أبي العلاء ، والعالم الأدبي يستعد للاحتفال بذكرى مرور ألف عام على مولده ، وأدباء الشرق العربي يتهيئون للرحلة إلى معرة النعمان ، موطن شاعرنا الصديق .

٢

كُتِبَ هذا البحث في عامي ١٩٤٠ ، ١٩٤١ — وقُدِّمَ إلى كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول لنيل درجة الماجستير في الآداب ، وقد مضت على ذلك ثلاثة أعوام . وإنما لجديرة بأن تزيد معارفنا عن أبي العلاء ، وتمحص آراءنا فيه ، وبخاصة إذا اتصلتِ الدرس وتتابع البحث .

وأبو العلاء الذي حُبِّبَ إليّ ، بما وجد من نفسه ، وأحسن الترجمة عنها في فنه ، قد أغراني بأن أتخذ منه موضوعات دراساتي الجامعية العليا ، فكان من حسن التوفيق أنني أمضيت هذه الأعوام الثلاثة في تحقيق نص (رسالة الغفران) ، واتخذت من درسها موضوعاً لدرجة الدكتوراه في الآداب ، فكان لي من ذلك فرصة مواتية ، لمداومة دراسة أبي العلاء ، وزيادة المعرفة به .

وبهذه المناسبة ، أنصح زملائي الجامعيين ، أن يختاروا لدراساتهم العليا موضوعاً تتصل فيه مرحلتاها ، اتصالاً يحقق التخصص والعمق ، اللذين هما أجلى سمات الدرس الجامعي .

وإذا كان العكوف على درس أبي العلاء طوال هذه المدة ، قد أجدى على مراجعة هذا البحث ، فإن من خير ما أجدى عليه كذلك ، الرجوع إلى التقرير القيم الذى كتبه عنه حضرة شيخى الجليل « الأستاذ أمين الخولى » ، والنظر فى مناقشاته لى أثناء الامتحان . وأشهد أن هذا التقرير ، قد غير من رأى فى غير مسألة تغييراً جوهرياً ، فما أتردد فى الاعتراف بأنه كان تكملة للتوجيه المنهجى الذى تدين به حياتى الفكرية لشيخى الجليل .

وبهذه المناسبة أيضاً ، أرجو أن يكون من التقاليد الجامعية المقررة ، أن يقدم حضرات الأساتذة الممتحنين ، تقارير مكتوبة عن الرسائل التى يناقشونها ، تُحفظ معها ، ويتيسر لتلاميذهم الانتفاع بها فى تكملة أبحاثهم ، ولا سيما حين يفكرون فى نشرها .

وبعد فإنى من مصر الخالدة ، وفى ريفها الباسم الذى عاشر الحضارات المختلفة على مر الزمان ، أبعث تحية التقدير إلى أبى العلاء ، الذى ارتفع بفنه إلى آفاق لم تشارفها جبهة النقاد والأدباء قبله ، فعدا أديب العربية الجدير بأن تحتفل به فى أقاليمها المختلفة

بنت الشاطىء

شوشى  
يولية ١٩٤٤

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### مقدمة

موضوع البحث :

حين فرغت لدراسة أبي العلاء ، سألتني أحد أساتذتي الفضلاء ، عن موضوع البحث الذي أعده لرسالتي ، فأجبت في شيء من التحمس والاعتزاز « أبو العلاء المعري » .

قال : ولكن أبا العلاء قد خدم ، وظفر بشيء غير قليل من العناية ، وحسبه ما كتبه عنه أستاذك الدكتور طه حسين بك .

قلت : لعل الأمر كما تقول ولكنه جدير بهذا .

فقال ملحاً : ولكن في تاريخنا الأدبي أشخاصاً غير أبي العلاء لم يخدموا كما خدم ، وهم أيضاً جديرون بالعناية والبحث .

مضيت أفكر : أمن الحق أن أبا العلاء قد خدم ؟ وهل يقضى الواجب العلمى أن نكتفى بما كتب عنه ، لنكتب شيئاً عن سواه ممن لا يزالون مغيبين في ثنايا العصور وأطواء التاريخ ؟ .

\*\*\*

أبو العلاء قد خدم حقاً ، ولكنها الخدمة العامة الجامعة التي تأخذ حياته جملة واحدة ، فتم بها وتحديثك عنها .

وكانت هذه الدراسة الجامعة أمراً طبيعياً مفهوماً في فجر حياتنا الجامعية ، حين بدأت كلية الآداب تعلن الحرب على طريقة دراسة الأدب العربي جملة واحدة يقوم بها فرد واحد ، على نظام العصور التي تسير العصور السياسية وتتمشى معها . ولقد نجحت الكلية في توجيه الدراسة الأدبية توجيهاً يجعل للأدب شخصية ذات اتصال بالسياسة ، ولكنها أيضاً ذات اتصال بالمجتمع والبيئة . ثم هي فوق هذا — وقبل هذا — ذات حظ من الاستقلال ، يميز شخصيتها ولا يبلغها بإدماجها في العصور السياسية<sup>(١)</sup> .

ونجحت كلية الآداب في توجيه الطلاب نحو التخصص في الدراسة الأدبية . فرأينا دراسات مستقلة تتوفر على موضوع بعينه أو شخص بذاته ، وكان هذا التخصص يشبه أن يكون طفرة في العهد الذي كان تاريخ الأدب العربي يدرس فيه جملة أو عصرًا فعصرًا .

على أن هذه الدراسات — التي كانت بالأمس نوعاً من التخصص — أصبحت اليوم ذات صفة عامة تخرج بها عن التخصص — فالكلمة تتجه اليوم إلى نوع من التخصص أدق وأضيق — إذ أصبح هذا التعبير — من الدراسة العامة لشاعر أو أديب . هي اليوم تحاول أن تضيق دائرته ، فتوجه العناية إلى ناحية واحدة من نواحي الشاعر — أو مسألة واحدة من موضوع واسع .

ذلك لأننا اليوم كما يقول حضرة الأستاذ أمين الخولي . « في عصر شعاره التخصص ، بل التخصص الدقيق العميق ، لا في الأصول فحسب بل في الفروع والمسائل . والبيئة الجامعية هي بيئة البحث المتخصص المتأدي ، الذي يعكف السنين الطوال على الموضوع الواحد ، بل المسألة الواحدة ، وبهذا الجهد النافذ إلى أعماق المسائل . . . يقوم بناء

(١) أعددتُ هذا البحث ونوقش في الجامعة ، قبل أن أعنتق الفكرة الجديدة عن « الإقليمية في الأدب » وهي التي دعا إليها أستاذنا أمين الخولي ، وبسطها كتابه « في الأدب المصري » وبهذه الفكرة ، يتم تصحيح المنهج الجامعي في درس الأدب وتاريخه .

الهيكل العلمى الوطيد المؤيد - الذى بمثله تقدر النهضات وتؤرخ العلوم وتبين خطأ انتقالها . . . . .

« فإذا ما أردنا أن نقوم بحق البحث ، أو نخلص لمنهج الدرس ، أو نؤدى الرسالة الجامعية - فيما يقولون - فلنصن حرمة هذا التخصص مهما تعق دونه عوائق أو تذدنا عنه موانع<sup>(١)</sup> . »

وإذن فلا نزال فى حاجة إلى دراسات جديدة ، ولا بأس علينا من البحث فى حياة أبى العلاء - أعنى فى ناحية واحدة من نواحي هذه الحياة الفذة .

\*\*\*

وفى الحق - إن هناك فى تراثنا الأدبى رجالاً لم يخدموا ، ومواضيع لم تدرس ، ولكن من الخير لنا أن نمضى فى استكمال بحث موضوع واحد ، ونبدل جهدين لمسألة واحدة ، بدلا من أن نوزع جهودنا ونترك بحثاً غير مستكمل لنخدم بحثاً جديداً .

\*\*\*

على أن هذا التثبيت بأبى العلاء لم يكن مصدره الحرص على التخصص واستيفاء الدراسة نحسب ، وإنما كان مصدره أيضاً - شيئاً كثيراً من الميل لأبى العلاء والتعلق به ، مذ كنت طالبة فى السنة الثالثة بكلية الآداب .

اتصلت بأبى العلاء بعد أن ترامت بيننا الأبعاد ، وفصلتنا عشرة قرون جدت فيها أحداث على العربية ، وتغير الذوق الفنى لأهلها - أتى أبو العلاء على قمة عصر التكلف ، وأتيت فى عصر الحرية والانطلاق - أتى أبو العلاء على أتر المدرسة التى بدأها مسلم - أو أبو تمام - واتسمى إليها المنتبى ، واستوى على قمتها أبو العلاء ، وأتيت أنا فى المدرسة الحديثة التى تنبوع عن تكلف المولدين لأنواع البديع ، وتبغض

(١) من مقدمة بحث حضرة الأستاذ أمين الحولى فى « البلاغة وعلم النفس » وقد نشر فى مجلة كلية الآداب - المجلد الرابع الجزء الثانى .

أشد البغض أحكام الضرورة في الشعر — بله النثر — وتضييق كل الضيق بالسكيات التي تكره على البقاء في أما كتبها لتسوية صنعة الشعر أو النثر .

كان هذا كله خليقاً بأن يصرفني عن أبي العلاء ويشيع في نفسى الجفوة والملل . ولقد أحسست شيئاً من هذا قبل حضور الدرس الأول عن أبي العلاء . كان أستاذنا الدكتور طه حسين بك قد طلب إلينا أن نعد للدرس مقدمة « رسالة الغفران » ، وأذكر أنني أمضيت ساعات طويلاً أعالج فهم المقدمة ، ونفسى تثور بكل ألوان السخط والمقت لأبي العلاء .

ثم حضرت درس الأستاذ وإني لأهم بأن أنفض لديه ما وجدت من أغاز أبي العلاء ، وما أحسست من سخط على إغرابه وتكلفه . ولكن الأستاذ تحدث فنسيت — في تتبع حديثه — ما كان يطوف بنفسى . ومضيت أتبعه وهو يقدم إلينا « رسالة الغفران » ويلم للمامة يسيرة بحياة أبي العلاء .

وانتهى الدرس — فإذا بي أمضى إلى « رسالة الغفران » أقرأها من جديد ، وأحاول أن أهتدى إلى الآفاق الجديدة لأبي العلاء — بعد الحديث الأول لأستاذنا الدكتور طه حسين بك .

ومضت الأيام — وتتابعت الدروس . أمضيت عامين أقرأ فيهما على الأستاذ رسالة الغفران واللزوميات والفصول والغايات — فلا والله ما شعرت بجفوة ولا ملل ، ولا ضقت بهذا الإغراب الذي يكلف به أبو العلاء ، وذلك التكلف الذي قد يسرف فيه .

لقد كان أستاذنا معجباً بأبي العلاء أشد الإعجاب وقد وفق في أن يقدمه إلينا — حتى إذا مضينا في الدرس ، عاد أبو العلاء يفرض نفسه علينا ويقترّب من قلوبنا ، فما مضت السنتان إلا وهو عزيز عندي أثير لذي .



ونظرت فيما بين أيدينا من دراسات عن أبي العلاء ، فإذا هي تناول حياته جملة من غير اهتمام بناحية خاصة تؤثرها بالدرس .

ثم نظرت فيما لدينا من آثاره فإذا فيها آراء شتى مبعثرة ، تحتاج إلى أن تجمع وتخدم لتكشف لنا عن شخصية أبي العلاء .

لقد عرفنا أبا العلاء : متى عاش وكيف امتحن ، وعرفنا شيئاً من أقوال المؤرخين عنه : من أصدر منهم عن هوى ومن كتب عن أمانة وإخلاص . ولكننا لم نعرف بعد ، كيف كان يفكر ، وكيف كان يواجه مشكلات الحياة ، وكيف كان اضطرابه في مسائل الكون .

هنا صح مني العزم على إثارة أبي العلاء بدراستي ، واتجهت إلى آثاره أجمع شتات أقواله في المسألة الواحدة ، وأرغب اضطرابه وحيرته في تيه الحياة .

\*\*\*

بدأت هذه الدراسة منذ سنوات . فكنت حريصة على أن أقوى اتصالي بأبي العلاء وأقرأ ما وصل إلينا عنه . فلما نلت درجة الليسانس فرغت لأبي العلاء فأمصيت وقتاً غير قصير في صحبته ، قرأت سقط الزند ، وملقى السبيل ، ومجموعة رسائله ، والرسائل التي دارت بينه وبين داعي الدعاة ، وأعدت قراءة الفصول والغايات واللزوميات ورسالة الغفران . فرأيت أبا العلاء مهموماً معنى بحياة الإنسان بوجه خاص ، يتجه إليها بنفسه وعقله ، ويبدل لها الحظ الأوفر من عواطفه وتأملاته .

لم ضلوه الانسان ؟

وكيف يواجه الحياة . . . . ؟ وماذا يلقي فيها ؟

وإلى أين المصير . . . . ؟

تلك مسائل عقلية - تعتبر إلى مجال الفلسفة أقرب ، ولكن أبا العلاء يعرضها علينا عرضاً إنسانياً مؤثراً .

وإنك تستطيع أن تجد هذه الأبحاث في كتب الفلسفة : منظمة ، دسمة ، عميقة .  
ترضى عقلك ومنطقك ، ولكنك تجدها في تأملات أبي العلاء ، صدى لإنسانيتك  
وغذاء لنفسك وقلبك .

لقد تصدى الفلاسفة والمتكلمون لبحث هذه المشكلات ، ولكنهم كانوا يعالجونها  
بعقولهم . أما أبو العلاء فيعالجها بكل قوى إنسانيته . فليس عقله وحده الذى يفكر  
ويتحدث ، وإنما يحدثك منه العقل والنفس والقلب جميعاً ، يحدثك منه الإنسان  
الذى يفكر ويمس ، ويشتهي ويتألم ، ويفضب ويرضى ، ويشور ويستسلم .  
الإنسان بكل ما فيه من قوة وجبروت .

وكل ما فيه من ضعف وقصور .

\*\*\*

هذا هو البحث الذى اخترته وتوفرت على دراسته ، منتفعة بالدراسات التى خدم  
بها أبو العلاء ، تحت إشراف أستاذنا الكبير الدكتور طه حسين بك ، الذى أعترف له  
بالفضل الأول فى توجيه هذا البحث ، وتوسيع آفاقه .

ولست أنسى فضل أستاذى الجليلين : الشيخ مصطفى عبد الرزاق باشا ،  
والأستاذ أمين الخولى ، فقد لقيت من توجيههما وإرشادهما ما أعاننى وسدد خطاى .

فإليهم جميعاً ، أوجه أجمل الشكر وأصدق التقدير .

## الكتاب الأول

المقالة الأولى : منهج أبي العلاء في التفكير

» الثانية : مكانه بين الشعر والفلسفة

» الثالثة : أبو العلاء أمام هذه الحياة

1

2

3

4

5

6

7

8

9

10

## منهج أبي العلاء في التفكير

- (١) إيمانه بالعقل واعتباره أصلاً للمعرفة .
- (٢) قياس الحس والخبر بالعقل .
- (٣) كفره بالعقل واتهامه إياه .
- (٤) تعليل اضطرابه وتناقضه .
- (٥) اعترافه بإعجاز القدرة .

نحن اليوم نعرض تأملات أبي العلاء في حياة الإنسان . لم خلق ؟ وكيف يعيش ؟  
 وإلى أين المصير ؟ وهو بحث شائك متعب ، لا بد له من مدخل كما يقول المناطقة ،  
 فهو يقتضى منا أن نجلو الشخصية العقلية لأبي العلاء قدر استطاعتنا ، فنبحث في  
 نظريته في المعرفة والأصول المعتمدة لديه ، وطريقته في تناول الأشياء وعرضها .

### أصول المعرفة :

ليس من العسير أن تحصى الأصول المعتمدة للمعرفة لدى أبي العلاء ، فهي قليلة جداً  
 يهون إحصاؤها ، ولكن من العسير أن تجد أصلاً منها قد سلم له فاطمأن إليه ، وبرى  
 فيه من التناقض والاضطراب .

قال أبو العلاء في الفصول والغايات :

« يدرك العلم بثلاثة أشياء . بالقياس الثابت ، والعيان المدرك ، والخبر المتواتر - ٤٦٨ »  
 فلننظر الآن في هذه الأصول ، ولنحاول معرفة رأى أبي العلاء فيها ، ومدى  
 اطمئنانه إليها .

إيمانه بالعقل :

( أما العقل فقد قال أبو العلاء إنه اعتمده أصلاً أول للمعرفة وصرح بإيمانه به ، وألح في الدعوة إلى الاتهام به والاهتداء بهديه .

واللزوميات بوجه خاص هي المجال الذي أعلنت فيه هذه الدعوة في إلحاح وتكرار ، فالعقل هو المرشد الهادي ، وهو المخلص من الحيرة والضلال ، وهو سبيل الحق وطريق المعرفة .

فكروا في الأمور يُكشَفْ لكم بعض الذي تجهلون بالتفكير لـ ١٨/١٨٤

فكري أنت ربما هدى الإنسان للمشكلات بالتفكير ١٨/١٨٤

إذا تفكرت فكراً لا يمازجه فساد عقل صحيح ، هان ما صعباً ١٠٤/١

ولم يتناول ذرة الحق غائص من الناس إلا بالروية والفكر ٢٧٣/١

ولو صفا العقل ألقى الثقل حامله عنه ، ولم تر في الهيجاء معتزلاً ١٥١/٢

تحير مسترشد فوق لما استدل ٢٥١/٢

تفكر فقد حار هذا الدليل وما يكشف النهج غير الفكر ٤٢٧/١

وحذر من ترك العقل ، وحمل على من لم يهتد بهديه ، ورأى ألا فضل للإنسان

على النمل إذا جرد من العقل :

من اهتدى بسوى المعتول أوردته من بات بهديه ، مساء طالما تبلا لـ ١٩٣/٢

فاحذر ولا تضع الأمور مضاعة وانظر بقلب مفكر متبصر ٣٩٨/١

تركت مصباح عقل ما اهتديت به والله أعطاك من نور الحجا قبسا ٢٢/٢

إذا الحيوان فض العقل منه فما فضل الأنيس على النمل ؟ ٢٢٧/٢

وأسرف أبو العلاء في تمجيد العقل ، وبلغ من اطمئنانه إليه وتمجيده إياه ، أن جعله أفضل نصير وخير مشير ، وأعلن إمامته ، وجعله نوراً هادياً ، ونبيّاً يأتي بالغيب .

اللب قطب ، والأمور له رحي فيه تدبر<sup>ررر</sup> كلها وتدار لـ ٣٢١/١

✕ الفكر جبل متى يمسك على طرف منه ، يُنط بالثريا ذلك الطرف ٩٨/٢

✕ والعقل كالبحر ما غيضت غواربه شيئاً ، ومنه بنو الأيام تغترف ٩٨/٢

خذوا سبيل العقل تهتدوا بهديه ولا يرجون غير المهيمن راج

ولا تطفئوا نور المليك فإنه ممتع كلي من حجبى بسراج ٣١٤/١

وإنك إن تستعمل العقل لم يزل مبيتك في ليل بعقلك مشمس ٢٨/٢

إذا قرن الظن المصيب من الفتى بتجربة ، جاء بعلم غيوب ١٢٨/١

لا أشرب الزاح أشرى طيب نشوتها بالعقل أفضل أنصارى وأعوانى ٢٧٢/٢

عليك بالعقل واترك غيره هدرا فالعقل خير مشير ضمه النادى ٢٨٨/١

سأتبع من يدعو إلى الخير جاهداً وأرحل عنها ما إمامى سوى عقلى ٢١٠/٢

كذب الناس لا إمام سوى العقل مشيراً في صبحه والمساء

فإذا ما أطعته جلب الرحمة عند المسير والإرساء ٦٥/١

أيها الغر قد خصصت بعقل فإسألنه فكل عقل نبى ٤٢٨/٢

وقال في رسالة الغفران :

« وإذا المعقول جعل هادياً نفع برية صادياً ، ولكن أين من يصبر على أحكام

العقل...؟ هيهات! - ١٥٥ »

وقال في الفصول والغايات :

« العقل نبيء ، وان خاطر خبيء ، والنظر ربيء ، ونور الله لهذه الثلاثة

معين - ٢٨٠ » .

وكان من مظاهر اطمئنانه إلى العقل ، أن خاصم السفسطة في إنكار الحقائق فقال :

وقال أناس : ما لأمر حقيقة فيل أثبتوا أن لا شقاء ولا نعمى ؟ ٢٨١/٢

هذا الفتى أوقح من صخرة يبهت من ناظره حيث كان

ويدعى الإخلاص في دينه وهو عن الإلحاد في القول كان

يزعم ، أن العشر ما نصفها خمس ، وأن الجسم لا في مكان ! ٢٩٤/٢

رأيه في الحس والخبر - قياسهما بالعقل :

ترك العقل الآن ونسأل عن الحس والخبر ، هل اعتمدهما أبو العلاء أصليين للمعرفة ؟

أقواله فيهما تختلف ، يطعن إليهما حيناً ويرفضهما حيناً آخر . وتعليل هذا الاختلاف

واضح ، ذلك لأن أبا العلاء حينما اعتمد العقل أصلاً ، وأسرف في تمجيده والإيمان

به ، جعل ما سواه مقبلاً عليه ، إن أقره العقل قبله ، وإن أنكره رفضه .

الحس يكذب أحياناً ، فأعرض الأمر على العقل :

- وما تريك مرأى العين صادقة فاجعل لنفسك مرآة من الفكر ل٣٨٣/١

والخبر الصادق جدير بالاحترام والتقدير ، ولكن أين من يضمن صدق الخبر ،

وبرأته من زيف المغرضين ، وعبث الناقلين ؟ هيهات . . . إذن فليقس الخبر

بالعقل وليوزن به .

وخبره صادق بالحديث فإن شك في ذلك فليختبر ٤٣٠/١

والحديث المسموع يوزن بالعقل فيضوى إليه عرف ونكر ٤٤٦/١



جاءت أحاديث إن صحت فإن لها شأنًا ، ولكن فيها ضعف إسناد  
فشاور العقل وارك غير هدرًا فالعقل خير مشير ضمه النادى ٢٨٨/١  
/ فلا تقبلن ما يخبرونك ضلة إذا لم يؤيد ما أتوك به العقل ١٧١/١  
وينفر عقل مغضبًا إن تركته سدى ، واتبعت الشافعى ومالكا ١٥٠/١

صلة على الأضبار إذا لم يؤيدها العقل :

(وأبو العلاء يحمل حملة منكرة على أقوال الرواة ، ويحمل على ما فيها من زيف  
وتقليد ، ويرفض الخبر في إصرار إذا لم يؤيده العقل)

إذا رجع الحصيف إلى حجاج تهبون بالمذاهب وازدراها  
تخذ منها بما أده لب ولا يغمسك جهل في صراها ٤١٦/٢  
هل صح قول من الحاكي فنقبله أم كل ذاك أباطيل وأسمار ؟  
أما العقول فآلت أنه كذب والعقل غرس له بالصدق أثمار ٣٢٠/١  
يتلون أسفارهم والحق يخبرني بأن آخرها مين وأولها  
صدقت يا عقل فليبعد أخوسفه صاغ الأحاديث إفكا أو تأولها ١٩٦/١  
قالوا ، فأنوا ، فلما أن حدودهم إلى القياس ، أبانوا العجز واعترفوا ١٠٠/٢  
أسهب الناس في المقال وما يظفر إلا بزلة مسهبه  
وإذا ما سألت أصحاب دين غيروا بالقياس ما رتبوه  
لا يدينون بالعقول ولكن بأباطيل زخرف كذبوه ٤٠٩/٢  
لقد أتوا بحديث لا يثبت عقل ، فقلنا عن اى الناس تحكونه ؟  
فأخبروا بأسانيد لهم كذب لم تخل من ذكر شيخ لا يزكونه ؟ ٣٤٦/٢

فخذ الذى قال اللبيب وعش به ودع العواة كذوبها وجبهوها ٢٠٢/٢  
تلوا باطلا وجلوا صارما وقالوا صدقنا ، ققتم نعم  
أفيقوا فإن أحاديثهم ضعاف القواعد والمدغم  
زخارف ما ثبتت فى العقول لعمى عليكم بهن المعم ٢٢٨/٢  
أخبرتني بأحاديث مناقضة فرابنى منك قول غير متفق ١٣٧/٢  
ومجمل الرأى فيما عرضنا من أقوال أبي العلاء ، أنه اعتمد العقل أصلاً للمعرفة ،  
فأما ما سواه فمقيس عليه به ، إن أقره قبله ، وإن أنكره رفضه .

اضطراب أبي العلاء - اعترافه بقصور العقل ، وانحرافه إياه

والأمر إلى هنا هين يسير ، ولكنه يتجاوز هذا الحد فيتعقد ويصبح عسيراً . ذلك  
أن أبا العلاء لا يمضى فى اطمئنانه إلى العقل ، اطمئناناً بريئاً من الشك والتناقض ،  
وإنما يدرکه شيء من الشك يفسد عليه اطمئنانه العقلى ، فتراه يتهم العقل ، ويظن  
به الصداً ويعترف بقصوره ، ويسوى بين الجاهل والعالم :

أذهنى طال عهدك بالصقال وماج الناس فى قيل وقال ٢٢٥/٢  
- هى الأفهام قد صدت وكلت ولم يظفر لها أحد بصقل ٢٢٩/٢  
وقد أعمل الناس أفكارهم فلم يغنهم طول إعمالها ٢٤٥/٢  
فهمُ الناس كالجبول وما يظفر إلا بالحسرة العلماء ٦١/١  
- وما العلماء والجهال إلا قريب ، حين تنظر من قريب ١٤٩/١  
وبصير الأقسام مثل أعمى فهلوا فى حنوس تتصادم ٢٢٧/٢  
وقد غابت نجوم الهدى عنا فماج الناس فى ظلم دمسنه ٢٥٢/٢

خبط القوم في الضلال فهل تكشف الظلم؟  
في بلاد مضملة ليس في أرضها علم ٢٢٧/٢  
وأبعد أبو العلاء في ارتداده واتهامه العقل، فأبطل القياس واندس، إليه الشك  
وعز عليه اليقين :

قد نفضت السهام أبغى المقاييس فلم يثبت الرمية نفصى ٦٣/٢  
لعمري قد أعى المقاييس أمرنا فخذسنا عند الظهيرة مظلم ٢٢٥/٢  
رموا فأشوروا ولم يثبت قياسهم شيئاً سوى أن رمى الموت تسديد ٢٥٦/١  
تروم قياساً للحوادث ضلة وتلك أصول ليس يجمعها حصر ٣٠٨/١  
سألتموني فأعيتني إجابكم من ادعى أنه دار فقد كذبا ١٠٣/١  
أما اليقين فلا يقين وإنما أقصى اجتهادى أن أظن وأحدسا ٢٣/٢  
إنما نحن في ضلال وتعليل فإن كنت ذا يقين فباته ١٩٦/١  
وكيف يبين للأفهام معنى له من ربه قدر معى ؟ ٣١٠/٢  
وقد عدم التيقن في زمان حصلنا من حجاج على التنظي  
قتلنا للهبزبر أنت ليث ؟ فشك ، وقال : على أو كآنى ٢٧٥/٢  
وقال في الفصول والغايات :

« أنت العالم ، ( يارب ) وإنما المرء حالم — ٣٣٩ »

لم يستطع أبو العلاء أن ينجح إلى اليقين إلا في شيء واحد ، هو أننا نموت وتبلى أجسادنا

قال في سقط الزند :

جهلنا فلم نعلم على الحرص ما الذى يراد بنا والعلم لله ذى المن ١٩٥/١

وقال في اللزوميات :

وجهلت أمرى غير أنى سالك طرقاً وختها عارها وثمودها ١/٢٦٢ -  
أصبحت فى يومى أسائل عن غدى متحيراً عن حاله متندساً  
أما اليقين فلا يقين وإنما أقصى اجتهادى أن أظن وأحدسا ٢/٢٣  
أما الحقيقة فهى أنى زاهب والله يعلم بالذنى أنا لاقى ٢/١٣٩  
— دفنهم فى الأرض دفن تيقن ولا علم بالأرواح غير ظنون  
وروم الفتى ما قد طوى الله علمه يعد جنوناً أو شبيهه جنون ٢/٣٦٦

تعليل اضطرابه فى مسألة المعرفة :

هذا رجل آمن حيناً بالعقل وأسرف فى الإيمان به ، فما باله يرتد حيناً آخر فينكر ،  
العقل ويكفر به ويتهمه ، ويبطل القياس ويرفضه ؟

هذه مشكلة أثيرت فى الأمس القريب حين وقف أستاذنا الجليل « أمين الخولى »<sup>(١)</sup>  
يعرض أقوال أبى العلاء فى المعرفة ، وينبه إلى هذا التناقض فيها — وفى كل شىء —  
ويوجه الأنظار إلى تردد الرجل وحيرته واضطرابه .

ونحن الآن نحاول أن نلتمس أسباب هذا التردد ، ومصدر ذلك التناقض ،  
لعلنا نجلو الشخصية العقلية لأبى العلاء قدر ما نستطيع .

— لم آمن الرجل بالعقل حيناً وكفر به حيناً آخر ؟

مصدر هذا فيما يبدو لنا ، شعور أبى العلاء بقصور العقل ، العقل الذى مجده حيناً وجعله  
نوراً وإماماً ونبيكاً . تأمل فرأى العقل يضل فى تيه الحياة ، ويعجز عن فهم ما يحفل به

(١) محاضرة الأستاذ الخولى ( رأى فى أبى العلاء ) أُلقيت فى الجمعية الجغرافية الملكية فى

الكون من أسرار . ماذا عرف العقل من أمور الخير والشر ، والجبر والاختيار ، وتوزيع الحظوظ والأرزاق ؟ لقد عجز عن إدراك اليقين في مشكلات الحياة ، وإنه لأعجز حين يتجاوز الأمر هذه المظاهر التي نراها بأعيننا ، إلى أمور الغيبيات ، وما يتصل منها بمصير الإنسان .

أمور يلتبس على البرايا كأن العقل منها في عقال لز ٢٢٦/٢  
والعقل زين ولكن فوقه قدر فما له في ابتغاء الرزق تأثير ٣٢٢/١  
غنى زيد يكون لفقير عمرو وأحكام الحوادث لا يقسنه ٣٥١/٢  
أما الجسوم فللتراب ما لها وعيت بالأرواح أنى تسلك ! ١٤٨/٢  
تباركت يارب العلاء أنت صعتها فليتك في أرزائها لم تبارك ١٥٨/٢  
- والله يقدر أن يفنى بريته من غير سقم، ولكن جنده العلال ١٧٤/٢  
قضى الله فينا بالذى هو كائن قتم ، وضاعت حكمة الحكماء ٦٣/١  
وقد أعمل الناس أفكارهم فلم يغنهم طول إعمالها ٤٥/٢  
وعقول ليست ترد فتبلا لقضاء في عالم الله بالغ ٩٦/٢  
شاب علينا أمرنا شائب وقد وددنا أنه لم يُشب ١٥٢/١  
هذا الشعور بعجز العقل وقصوره ، كان يُلم بأبي العلاء من حين إلى حين ، فيرتد ، وينكر العقل ، ويبطل القياس .

ولعله في تلك اللحظات الكافرة اليأس ، كان يلوذ بإيمانه بإعجاز القدرة فهو يعترف  
لله بقدرة « لا يعجزها ممتنع في العقول . الفصول - ٤٧ »

ولم يكن هذا الاعتراف تقليداً ، فأبو العلاء عدو التقليد ، كذلك لم يكن ارتجالاً ، وإنما أنتجه تأمله في الكون ، وحسه الدقيق لمظاهر القدرة المعجزة فيه . وهو يعرض صوراً شتى من هذه المظاهر ويستعمل في ذلك غالباً إحدى صيغتين :

لا يمتنع على الله القدير — لو شاء القادر

قال في اللزوميات :

يجوز بحكمه موتُ الثريا وأن تبقى السماء بلا نجوم ! ٣١٣/٢

يجوز أن تطفأ النار التي وقدت من عهد عاد وأذكي ناراها الملك ١٤٥/٢

لست أنفى عن قدرة الله أشبا ح ضياء بغير لحم ودم  
وبصيرُ الأقوم مثلى أعمى فهلموا في حنّس تتصادم ٣٢٧/٢

وقال في الفصول والغايات :

« لو شاء الله لرد اليفن إلى الشباب — ٤١ » .

« لو شاء ربنا ، سخر لنا وحوش البر ، فنقلتنا نقل النعم الذلل وركبنا النعام بأزمة وأقتاب — ٤٦ » .

« إن شاء الملك قرب النازح وطواه ، حتى يطوف الرجل في الليلة الدانية بياض الشفق من حرة الفجر ، طوفه بالكعبة ، ثم يثوب إلى فراشه ، والليلة ما همت بالإسحار . ويسلم بمكة فيسمعه أخوه بالشام ، وبأخذ الحجر من تهامة ، فيوقد بها ناره في بيرين وقاصية الرمال ، ويجاز ( يعص ) بأكيلته في قصور فرغان ، فيعتصر بماء المذنونة ( زمزم ) أو جراب » (١) .

(١) انظر الفصول والغايات صفحات ١٧٧ ، ١٩٨ ، ٢٢٧ ، ٢٦٢ ، ٣٢٨ ، ٣٩٤

والحديث عن القدرة الإلهية أمر غير مستغرب من أبي العلاء ، فهو واعظ يمجّد الله ، ولكنك تحس شيئاً من الغرابة ، حين تراه يعن في عرض الصور الغريبة ، فيقول مثلاً في الفصول والغايات :

« يقدر ربنا أن يجعل الإنسان ينظر بقدمه ، ويسمع الأصوات بيده ، وتكون بنانه مجارى دمه ، ويمشى إلى الغرض على هامته ، وذلك من القدرة يسير - ٣١٠ »  
« لقد علمت - والله عليم - أن الله لا يمتنع عليه أن يجعل العتيل (الأجير) ، ييصق على قصار النخل فييسق ، وأن يكون الريق راحاً ، والشفاه بإذنه عقيقاً ، والتغر حيباً أو جماناً - ١٦٠ » .

« من يخبرني عن فور طلين بالكافور ، ومجدل رفع في محالب الأجدل ، وقصر منيف حمل في خنيف (منديل) ؟ والله على ذلك قدير - ١٥٤ » .

« أزعمت أن السعف لا ينبت إلا في الشعف (رءوس النخل) ؟ إن الله إذا حكم نبت في الجذوع - ٢٩١ » .

« أوعل متعل ؟ أمسد في عنق الأسد ؟ أنجم وقع في هجم ؟ نعم إذا أمر مالك الملوك - ٣٧٧ » .

وأبو العلاء ، لم ينس - وهو يعرض هذه الصورة الغريبة للقدرة المعجزة - أننا نستعيد أن ينظر الإنسان بقدمه ، وأن ينبت السعف في الجذوع . أملى في رسالته إلى أبي نصر صدقة بن يوسف الفلاحى<sup>(١)</sup> : « فإن بلغ سيدى الشيخ أن سارى الليل قبض على سهيل ، وأن الأرض أنبتت وشياً أو حريراً ، والسحاب أمطر مداماً وعبيراً ، فهو أعلم برده على المبطلين . حسب الأرض أن تعنو بخلة وحض - وعادة السحاب المرتفع في السماء أن يأتى برى الظماء . »

(١) رسائل أبي العلاء (مرجبلوث) الرسالة الرابعة والعشرون ص ٦١ .

وقال في الفصول والغايات :

« الشيء كما فطر حتى يأذن خالقه بالتغيير ، فإن قيل إن الديمة مطرت مداماً ، وإن الأرض أنبتت أهداماً ، وإن حصناً غار وتهامة أتت حجراً ، فقد كذب القائلون . إنما ينزل من السماء غريض الماء ، وتعنو الأرض بالنبات الغض ، ولا تنتقل تهامة أبداً ، ولا يوجد حوضن إلا منجداً - ٣٣٩ » .

يعلم أبو العلاء ذلك حق العلم ، ولكنه يقول بإعجاز القدرة ، ويعلق الأمر بمشيئة الله :  
« فرضوى لا يخاف أبداً من ضوى حتى يأذن رب الجبال - والقرو لا يمتلىء من عصارة المرو إلا أن يجعله الله ذاماً » .

« لا أصدق أن الدلى أخرجت من الجفر الحلى . ولا أن زارع البراحتصدأ كيمة تشتمل على الدر ، ولكن الله إذا شاء فعل ذلك » .

وقد يحس وهو يعرض هذه الصور الغريبة ويقول بإمكانها ، أن قوانين العقل قد تابها ، ولكن ما هذه القوانين ؟ أليست من صنع عقولنا ؟ كيف نلزم بها سوانا ؟  
إنما نلزم العقل وحده ، ولا يجوز طردها في القدرة الإلهية .

- « والله القادر على كل بعيد . . . . » الفصول ٦٨  
« لا يعجزه ممتنع في العقول . . . . » ٤٧  
« وهو مكون المعجزات . . . . » ٤٥  
« لا يرد عليه عجب . . . . » ١٦٩  
« ولا عجب من أمر الله . . . . » ٢٧٥

واسمع أبا العلاء يسخر بالقوانين التي نضعها بأنفسنا ، ثم ننزلها منزل التقديس ونأبى أن تمس أو تتخلف .



« كذبت النجاة أنها تعلم لم رفع الفاعل ونصب المفعول ، إنما التوم مرجون والعلم لعالم الغيوب ، خالق الأدب والأدباء . فصول ٧٨ »

« أنت وارث العلوم ، وإليك ضويت الأمور ، لو عاش الدؤلى حتى يسمع كلام الفارسي في الحجة ، ما فهم فيما أحسب ، إلا فهم الأمة هدير السنداب . فصول ٧٩ »

ثم اسمعه يفرق بين إمكان العقل وإعجاز القدرة ، فيقول في الفصول والغايات :

« إن سمعت أن الرقيع أمطر جنديلا ، وأنت البقيع مندلا ، قتل أما في المعقول فلا ، وأما في القدرة فبلى . العادات بإذن الله متغيرات — ١٠٩ »

( فأبو العلاء ، يكفر بالعقل حين يشعر بقصوره وعجزه ، وفي هذه الحالة ، تراه يسلم بما يرفض العقل ويعترف بما يباه . ولكن من الناس من رأوا أن العقل لا يكسب حق الرفض ، إلا إذا أحاط بكل شيء ، وكشف لنا عن الحقائق كلها . وهذا ما لم يصل إليه العقل بعد )

قال الإمام الغزالي في كتابه المنقذ<sup>(١)</sup> : « إن هناك أموراً تسمى خواص ، لا يدور تصرف العقل حولها أصلا ، يكاد العقل يكذبها ويقضى باستحالتها .

« وأكثر براهين الفلاسفة في الطبيعيات والإلهيات مبني على هذا الجنس ، فإنهم تصوروا الأمور على قدر ما وجدوه وعقلوه ، وما لم يألوه قدروا استحالاته » .

وأكد الإمام الغزالي هذا المعنى في المضمون فقال : « ليس كل ما لا يدركه العقل ، محالا في نفسه . . » .

وقال أستاذنا الدكتور طه حسين بك يقدم ( ألفريد كابو ) كاتب المصادفة

(١) المنقذ من الضلال للغزالي ( طبعة مصر ) سنة ١٣٠٩ م ص ٣١

إلى قراء العربية<sup>(١)</sup> : « المصادفة عدو القانون العلمي ، وخضم النظرية الفلسفية فالإيمان بها جحود للعلم . . . وهذا كله حق لو أن العلم قد أحاط بكل شيء وكشف عن الحقائق كلها ، لكن العلم بعيد جداً ، أو ما زال إلى الآن بعيداً جداً ، عن أن يحيط بكل شيء ، أو يكشف لنا عن كل شيء . . . . . فليست هناك مصادفة فيما نعلم من أمور الكون ، ولكننا نجعل أكثر مما نعلم ، وإذن فالمصادفة ليست في حقيقة الأمر إلا رمزاً لجهلنا وقصور عقولنا عن فهم الأشياء » .

\*\*\*

على أن من الناس من لا يرون قصور العقل مدعاة إلى اليأس من غده ، وهم يرون أن من حق أبي العلاء ، ومن حق سواه ، أن يعلنوا عجز العقل في ماضيه عن حل مشكلات الكون والحياة ، وقصوره عن اقتحام مجال الغيبيات « وليس لأحد أن ينكر عليهم هذا الحق ، أو يعارضهم فيه إلا حين يتحدثون عن الغد ، ويحملون آثار هذا العجز في نظرهم إلى المستقبل . فعجز العقل في ماضيه لا يقتضى أن يعبر بذلك ، وتثبط همته ، ويحرم الأمل في غده . . . . .

« لقد جاهد العقل الإنساني في محاولة انتزاع الحقائق من بين الظلمات . ومن الحق أنه لم يصل إلى كثير ، ولكن جهوده الرائعة في ماضيه الطويل ، تجعل هناك آملاً في أن يبلغ غايته من كشف الحياة الإنسانية وتمزيق أستارها . وليس ما يدعو إلى اليأس ، ما دام العقل لم يعلن هزيمته ، ولم يكف عن الغزو لحظة »<sup>(٢)</sup> .

( لو اطمأن أبو العلاء إلى هذا لسلم له إيمانه بالعقل ، ولكنه لم يفعل ، فاضطرب وحر ، ورأيناه يشعر بالمرارة لقصور العقل ويتحدث عن الغد حديث اليأس :

(١) قصص تمثيلية فرنسية ، للدكتور طه حسين بك طبعة الهلال - ألفريد كابو

(٢) من محاضرة للأستاذ أمين الحولى . على طلاب الماجستير بكلية الآداب سنة ١٩٤١ .

وروم الفتى ما قد طوى الله علمه يعد جنوناً أو شبيهه جنون ٣٦٦/٢  
وكيف يبين للأفهام معنى له من ربه قدر معى ٣١٠/٢  
ورأيناه يضيق بالعقل ويتألم المأماً مرأ لاذعاً ، فيهتف في تعب وحيرة :

فهمُ الناس كالجبول وما يظفر إلا بالحسرة الفهماء ٦١/١

وزادك بعداً من نبيك وزادهم عليك حقوداً ، أنهم نجباء  
يروون أباً ألقاهم في مؤرب من العقد ضلت حله الأرباء ٥٥٨/١

صاح ، إن جال في الحوادث فكرى صاح يا للأسى ينفر غمضى ٦٣/٢

طالت على ساهر دجنته والصبح ناء ، فمن لنا بغلس ! ٤٦/٢

طوفت في الآفاق عصراً فما أسفرت من خندسك المظلم  
سألت أقواماً فلم تلق من يهديك من رشد إلى معلم ٣١٦/٢

أنا أعمى فكيف أهدى إلى المنهج والناس كلهم عميان ٣٣٢/٢

وبصير الأقوام مثلى أعمى فيهموا في خندس تتصادم ٣٢٧ ٢

وقد غابت نجوم الهدى عنا فاج الناس في ظلم دمسنه ٣٥٣/٢

آليت ما أدرى ولا علمى من كوكبي في الخندس الذاجى ٢٢١/١

وأصبحت في تيه الحياة منادياً بأرفع صوتي ، أين أطلب صوتي ؟ ١٨٠/١

وقال في الفصول والغايات :

« وداء المسرة العقل ، ودواء الحزن الجهل - ٣٢٢ »

والحموضة - أن أبا العلاء كان يؤمن بالعقل ويعتمده أصلاً للمعرفة ، ويسرف في تمجيده والإيمان به ، حتى يجعله إماماً ونبياً ، فإذا طلب إلى هذا النبي الهادي أن يفسر له ما يعرض له من مشكلات الحياة وأحاجي الكون ، وأسرار الغيبات ، قصر العقل عن إدراك ذلك وإبداء الرأي فيه . هنالك يرتد أبو العلاء ويكفر بالعقل ، ويلوذ باعترافه بقدره إلمية قاهرة لا يعجزها ما يمتنع في العقول .

على أن الرجل لم يخلص من سلطان عقله ، كما لم يسلم له إيمانه به إيماناً خالصاً يريحه ، وبقى حائراً متردداً : يؤمن في لحظة ، ويكفر في لحظة أخرى ، من غير أن يسكن إلى إحدى راحتين .

هذا - فيما نرى - مصدر تناقض أقوال أبي العلاء في المعرفة . وهو قد يفسر لنا اضطراب أقواله وحيرته ، حين واجه مشكلات الحياة .

## مكان أبي العلاء بين الشعر والفلسفة

- (١) إنكار فلسفته : لاضطراره في مسألة المعرفة ،  
وطريقته في عرض تأملاته .  
(٢) إنكار شاعريته : لخروجه عن المألوف ،  
وازدحام شعره بالمعاني .  
(٣) مكانه بين الشعر والفلسفة .

## الظروف في أبي العلاء :

لعل العربية لم تعرف في تاريخها الأدبي رجلاً اختلف فيه الناس كما اختلفوا في  
أبي العلاء . فمكانه بين الفلسفة والشعر حائر مهم . ( اطمان الناس حيناً من الدهر  
إلى أنه فيلسوف ، ثم ظهر رأى<sup>(١)</sup> حديث يرفض التسليم بهذا الذي اطمان إليه الناس .  
وعرفه الناس شاعراً أكثر ، فيل إنه نظم من الشعر مائة ألف بيت قبل أن يموت  
بعشر سنوات » ولا ريب أنه قد نظم بعد ذلك الشيء الكثير<sup>(٢)</sup> )

(ولكن من شيوخ صناعة الشعر ونقاده من رفضوا التسليم بشاعريته ، وإنما هو  
ناظم لا شاعر .)

ونرى أن جلاء هذا الموقف المهم الغامض أمر لا بد منه ، قبل التصدى  
لبحث تأملاته . فقد طال عمر هذا الخلاف وآن لنا أن نعرف مكان الرجل بين  
الشعر والفلسفة .

(١) هو رأى أستاذنا الكبير « أمين الخولي » — انظر الصفحة التالية .

(٢) ذكرى أبي العلاء ( تجديد ) ص ١٩١ .

هل هو فيلسوف؟

أجاب البعض بالنفي<sup>(١)</sup> - ورفضوا التسليم بما اطمأن إليه الناس من  
اعتباره فيلسوفاً .

أقوال من أنكروا فلسفته :

١ - وأظهر حجة لديهم ، أن الرجل كما رأيت في مسألة المعرفة ، لم يخضع في  
فيمه للحياة لأصل ثابت من أصول المعرفة ، فهو لا يثبت على إيمانه بالعقل ، ولا يطمئن  
إلى عجز العقل وقصوره . وإنما يقف متردداً بحيث لا تستطيع أن تضمه إلى أى فريق  
من المفكرين . فليس هو عقلياً لأنه لم يثبت على إيمانه بالعقل . وليس هو سوطانياً  
لأنه لم يطمئن إلى عجز العقل - وليس هو شكاً كما لا أدرياً ، لأنه يتيقن حيناً ما  
واثم بالعقل .

٢ - وهو مع هذا متناقض ، لا يثبت على رأى في المسألة الواحدة ، بل تراه  
ينفى ثم يثبت ثم ينفى ثم يثبت ، ويقول بالشئ حيناً ثم يقول بضده حيناً آخر .

٣ - وهناك أمر ثالث قد يؤيد من ينكرون فلسفته . وهو لا يتصل بمنهجه في  
التفكير وإنما يتصل بطريقته في التعبير . فأبو العلاء قد طرق آفاقاً رحبة واسعة وتناول  
طائفة من المسائل ، هى إلى مجال الفلسفة أقرب ، ولكنه لم يعرض تأملاته على طريقة  
الفلاسفة والمتكلمين . فلم يكن يعنيه كثيراً أن يسوق أدلته وبراهينه - أو يرتب  
آراءه ترتيباً منطقياً فيه مقدمات وقضايا ونتائج ، ولم تكن الفكرة وحدها هى الغاية ،  
عنده ، كذلك لم تكن اللغة مجرد وسيلة توصل إلى الغاية ، وإنما كان شديد العناية  
بألفاظه ، وهو يسرف في ذلك ويبدل فيه جهداً يبدو مضنياً ، لولا ما نعرف من مرانة  
أبي العلاء عليه

(١) هذا الرأى أعلنه حضرة الأستاذ أمين الحولى في محاضراته « رأى في أبي العلاء » التى  
ألقاها في الجمعية الجغرافية الملكية في ابريل سنة ١٩٤٠

(والتأنق في اللفظ على حساب المعنى - ليس من شأن الفلاسفة). ترى الفيلسوف يدقق في اختيار الألفاظ - لينتقى أقدرها على أداء المعنى الذي يريد - وأقربها إلى الدلالة على ما يعنى. أما أبو العلاء فشأنه غير ذلك، هو يتأنق في الألفاظ ليختار أجملها إيقاعاً، أو أقربها انساقاً مع فنونه اللفظية التي لا تكاد تعد. وهو يضحى بالمعنى أحياناً ليخلص له منه اللفظ الذي يريد. أولتم له الملاءمة بين اللفظ المختار وبين بقية الألفاظ في البيت أو المقطع. على حين ترى الفيلسوف يضحى بأجل الألفاظ ليسلم له المعنى ويتم له أداء الفكرة صحيحة البناء.

(والفيلسوف في تأملاته : يخطو في بطاء)، وهو يقص عليك خطوات انتقاله في دقة وتفصيل، ويريك مراحل الطريق التي سار فيها، ويعطيك الوسائل التي اهتدى بها إلى ما انتهى إليه من رأى. وليس هذا شأن أبي العلاء في عرض تأملاته : فهو فنان، يقفز القفزة الفنية التي تنتهي بك إلى الآفاق العليا، وإن كنت لا تعرف خطوات الانتقال ومراحل الطريق. وهو قد يلتقى مع الفيلسوف في النهاية ولكنه يأخذك إليها واثباً مسرعاً، ولا حجة له أمامك إلا هذا الذي يجده في نفسه.

\*\*\*

فمرهل هو شاعر؟

لا أيضاً.....!

بهذا أجاب شيوخ صناعة الشعر في الأدب العربي - قالوا فيما نقل عنهم ابن خلدون<sup>(١)</sup> : « إن نظم المعرى ليس من الشعر في شيء ». واعتبروا شعره<sup>(٢)</sup> « كلاماً منظوماً نازلاً عن طبقة الشعر ».

أقوال من أنكروا شاعريته :

١ — السبب الأول أنه خرج عن المألوف ، فتصدى بالشعر لمعالجة أمور عقلية ومسائل فلسفية لم يألفها في الشعراء من قبل ، وكانوا لا يسيغون تصدى الشعر لمعالجة هذه المسائل التي هي إلى مجال النثر أقرب . وأسرفوا في ذلك حتى استهجن بعضهم أن يتعرض الشعر للأمور الجديدة . وقد حمل ابن خلدون على المنشور المتقى وأبى أن يخاطب به ذوى السلطان لما أدخل فيه من أساليب الشعر . قال : <sup>(١)</sup> « وهذا الفن المنشور المتقى أدخل المتأخرون فيه أساليب الشعر ، فوجب أن تنزه المحاطبات السلطانية عنه ، إذ أساليب الشعر تنافيا للوذية . » إلى أن قال : « والمحمود في المحاطبات السلطانية التبرسل ، وهو إطلاق الكلام ، وأما إجراء المحاطبات السلطانية على هذا النحو الذى هو على أساليب الشعر فمذموم . »

هذا يريك أن من الأقدمين من ضاقوا بتصدى الشعر للأمور الجديدة والمسائل العقلية ، وطال عمر هذا الإنكار ، يتناقله النقاد ، طبقة بعد طبقة وجيلاً بعد جيل .

بل لا يأخذك العجب إذا قلت إن من كبار النقاد من لم يقف عند القول بأن التصدى للمسائل العقلية والأمور الجديدة ليس من شأن الشعر ، بل رأى <sup>(٢)</sup> — فوق ذلك — أن اشتغال الإنسان بالعلوم والمسائل العقلية والفقهية يعطل ملكة الشعر فيه .

وقد قست حملة النقاد على أبى العلاء وأسقطوا اسمه من ديوان الشعراء ، لأنه أسرف في هذا الأسلوب الجديد وظهرت فيه شخصية لعل العربية لم تعرفها من قبل ، أو لم تظهر فيها واضحة كاملة .

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٥٦٧ (٢) مقدمة ابن خلدون ص ٥٧٩



كان أول عيدها بذلك حين ظهر بعض الشعراء قبيل الإسلام ، يعالجون بالشعر بعض مذاهب خاصة - كطرفة الذي عالج مذهب اللذة يفرق فيها من لا يؤمن بشيء بعد الموت . ولكن الشخصية الجديدة ظهرت في طرفة وأمثاله - خافتة ضئيلة . فلم يطل العرب الوقوف عندها - ومرت بهم لم يكادوا يحسونها أو يكثرثون بها .

وجاء المتنبي بعد بضعة قرون يعالج بعض أفكار فلسفية في شعره . فضايق به النقاد ولكنهم على أي حال لم ينكروه ، أولاً ، لأنه كان مقلا في هذه الناحية إذ شغل بالمدح والهجاء عن نفسه وعن الكون والحياة ، إلا في فترات قليلة كان يخلو فيها إلى التأمل ، حين يصدمه موت صديق عزيز ، أو حين ينفض يديه من أمير يمدحه أو عدو يهجمه . وثانياً لأن المتنبي كان لا يزال يجري على الأساليب التي ألفوها ، وينظم شعره في المدح والهجاء والرثاء والوصف والغناء . فلم يبتدع جديداً في أغراض الشعر ، وكل ما في الأمر أنه كان يخرج أحياناً قليلة عما ألفوا ، فينظم بعض الأبيات في المعاني الفلسفية والمسائل العليا .

جاء أبو العلاء على أثر المتنبي ، فظهرت فيه الشخصية الجديدة واضحة ناضجة . فآلفى النقاد أنفسهم أمام بدعة جديدة في الشعر . هذا رجل يتحدث بلسان الشعراء ، ولكنه لا يجاريهم فيما يتوخونه من أغراض . هذا رجل يتزيا بزى الشعراء ولكنه يخرج بالشعر عما ألفوه . ولما حاولوا أن يطردوا في شعره الضوابط التي حددها لهم شيوخهم ، عجزوا . وكانت نتيجة هذا العجز أن أنكروا ذلك البدع الجديد .

كان من هذه الضوابط أن يكون الشعر جارياً على أساليب العرب المخصوصة به « لأن<sup>(١)</sup> الشعر له أساليب تخصه ، لا تكون للمشور فما كان من الكلام منظوماً وليس على تلك الأساليب فلا يكون شعراً » .

وقد كان . . . .

أنكر شعر أبي العلاء لأنه خرج على هذه الضوابط المقدسة، وعالج شعره المسائل العقلية والأمور الجدية التي هي من أساليب المنثور.

ذلك الإنكار غير مستغرب من هؤلاء لأنها « شئنة نعرفها من أخزم ». فقد كان دأب فريق من النقاد العرب ، أن ينكروا كل جديد ، ويرفضوا كل ما يخرج على الأوضاع التي تلقنوها عن شيوخهم ، وخلعوا عليها قداسة فأصبحت مصنوعة لا يجوز أن تمس .

ورواد الأدب العربي وتاريخه ، يعرفون هذا ، ويشعر أكثرهم بحزن له ، إذ هو معطل للابتكار ملغ لسنة التطور ، عاجز عن مسيرة الحياة ، وإن كان أحد زعماء المدرسة الحديثة في النقد ، يرى أن أحكامنا على هؤلاء المحافظين ، يعوزها شيء من الإنصاف ، لأن الاحتفاظ بالقديم سنة كونية ، تحفظ توازن العالم ، وتسدد خطا انتقاله<sup>(١)</sup> .

\*\*\*

ثار النقاد<sup>(٢)</sup> على أبي نواس أن عاش في عصره وبيئته ، ولم يعيش مع الجاهليين في البداية ، ولكنه أصر على أن يبقى لشاعريته فيجد نفسه ويعبر عنها ، ويعيش في بيئته ويتحدث بها . وبدا له شاذاً منكراً أن يقف في شعره ، على النوى والأحجار بالقلاة ، وهو إلى جوار الأمين في أنخم قصور بغداد . هنالك مال إلى أظهر الأشياء في حياته

(١) هو رأي أستاذنا أمين الخولي ، ذكره أثناء مناقشته لهذا البحث .

(٢) انظر الخصومة بين القدماء والمحدثين ص ٩١ من كتاب « تاريخ النقد الأدبي عند العرب »

للأستاذ طه إبراهيم .

الجديدة ، فاستمد منه ديباجة شعره ، وسخر برباء النقاد وكذبهم فصاح بأعلى صوته :  
 عاج الشقى على رسم يسائله      ومُجَّت أسأل عن خمارة البلد  
 يبكى على طلل الماضين من أسد      لا درّ درك ! قل لي : من بنو أسد ؟  
 لا جف دمع الذى يبكى على حجر      ولا صفا قلب من يصبو إلى وتد !

ولكن هذه الديباجة الجديدة الحضرية التي بدت لأبى نواس طبيعية معقولة ، بدت لكثير من النقاد شاذة منكرة ، فتنكروا لها وأعلنوا الحرب عليها لأنها تخرج عما ألفوه ، وهم حريصون على تقديس هذا المألوف ، مصرون على أن يتكى عليه الشعراء جيلاً بعد جيل ، غير ملتفتين إلى ما يحسون في أنفسهم وفي بيناتهم .

كان أبو تمام في منزل الحسين بن الضحاك وهو ينشد شعره ، وعنده إسحاق الموصلى فقال له إسحاق : « يا فتى ، ما أشد ما تتكىء على نفسك ! » .

فهل كان غريباً أن ينكروا أبا العلاء ، وهو يورطهم ويتكىء على نفسه ويثبته العلمية ، فيخرج على الأساليب المألوفة التي حدودها لما يعالج بالشعر من مسائل وأغراض ، وينظم القصائد التي لا تتصل بمدح ولا ذم ولا وصف ولا غناء ؟

\*\*\*

٢ - والسبب الثانى فى إنكار أبى العلاء أنه - لكثرة ما كان يعالج من مسائل عقلية - قد ازدحم شعره بالمعاني . ويظهر أن الذوق العربى لا يهضم كثرة المعاني فى الشعر ، وقد ضاق النقاد بان خفاجة لكثرة معانيه ، وعابوا شعر أبى تمام لهذا السبب أيضاً . قال ابن خلدون : « كان <sup>(١)</sup> شيوخنا رحمهم الله يعيرون شعر أبى تمام لكثرة معانيه وازدحامها فى البيت الواحد » .

فهل كان عجيباً أن يثوروا على أبي العلاء وقد بذ تلاميذ مدرسة المعاني في هذا الميدان ؟ .

هكذا أضع الأقدمون أبا العلاء الشاعر وكان رأيهم فيه أنه ناظم لا شاعر .

رأى المحمدين :

ولكن ما رأينا نحن المحدثين ؟ أهو شاعر عندنا أم لا ؟

يجب أن نتفق أولاً على حد الشعر لكي نحيب عن السؤال :

أصل الشعر في اللغة : العلم والفتنة والإدراك . استعملت المادة أولاً لما لابس الإنسان والتصق به من شعر وشعار . ثم أطلقت على الشعور بمعنى الحس والمشاعر أي الحواس التي بها يدرك الإنسان ويحس .

فهذا المعنى الملحوظ في المادة ، من الالتصاق بالإنسان وملاسته والحس والشعور ، هذا المعنى قد أغفل<sup>(١)</sup> تماماً في التحديد العربي القديم للشعر . جملة اللغويين والعروضيون الكلام الموزون المتقي ، وهو تعريف واسع يغفل الشعور ، ويدخل المتن وما إليها من المنظومات التي اصطنعها المعامون ، ليهونوا على تلاميذهم حفظ القواعد ، واللغة والمنطق الخ . . . أو يدسوا إليهم ما يريدون من حكم ومواعظ .

وجاء « قدامة بن جعفر » في صدر القرن الرابع ، فأحس أن ذلك التعريف غير مانع ، إلا أنه لما حاول تحديد الشعر قال : « إنه قول موزون متقي ، يدل على معنى »

(١) يرى شيخى الجليل ، الأستاذ أمين الحولى « أن تعريفات الأقدمين للشعر — وإن خانها الحظ في هذا الموضع الفني — فانهم قد لاحظوا معنى الشعور والحس — أو قريباً منه — أثناء درسيهم للشعر ، فقالوا في كتب المناطقة « هو ما تألف من الخيالات التي تخيل للنفس ما تتأثر به قبضاً أو بسطاً فنفر منه أو ترغب الخ » والأدباء والنقاد الأقدمون ، كانوا ولا شك يقدرون تأثير النفس بالشعر وتأثيره فيها ، وإن خانهم الحظ في التعريفات .

وهذا التعريف لا يختلف عن سابقه ، لأن الدلالة على معنى أمر مفروغ منه ، ولم يقصد أحد من سبق قدامة أن يكون الشعر لغواً لا معنى له .

وجاء بعده « ابن رشيق » في القرن الخامس فأضاف إلى حد الشعر شيئاً رابعاً قال : « بنية الشعر من أربعة أشياء : اللفظ والوزن والمعنى والقافية » وهو لا يختلف عن قول قدامة .

وجاء ابن خلدون في القرن الثامن ، فلاحظ أن الكلام الموزون المتقى ليس بحد للشعر ، وأورد تعريفاً للشعر جمع فيه ضوابط شيوخه فقال : « هو الكلام <sup>(١)</sup> البليغ المبني على الاستعارة والأوصاف ، المفصل بأجزاء متفقة في الوزن والروي ، مستقل كل منها في غرضه ومقصده ، الجارى على أساليب العرب » .

وهذا التعريف يهمل الشعور وهو المعنى الأصيل في الشعر كما رأينا في المادة ، وهو بعد هذا تعريف ضيق كثير القيود ، يخرج شعر أبي العلاء وأمثاله ، ويخرج القصائد الطوال التي لا يستقل كل بيت فيها عما قبله وما بعده .

ولا يكتفى ابن خلدون بهذه القيود ، بل ينقل إليك عن شيوخه في هذه الصناعات الأدبية ، أنهم كانوا يضيّقون بازدياد المعاني في الشعر ويكرهون تصدى الشعر للمسائل العقلية والأمور الجدية .

( هذه هي القيود والحدود التي وضعها الشيوخ التدماء للشعر العربي ، ومن ثم أنكروا أبا العلاء وجحدوا شاعريته . )

ولكن قيودهم لا يجوز أنه نلزمنا ، فلنسا مقيدين بهذا المألوف عندهم لأنه معطل للابتكار مبلغ لسنة التطور . والوقوف عنده ووقوف بالشعر حيث تركه الأقدمون من غير انتفاع بسير الزمان .

أبو العلاء شاعر ، لا يجوز لنا أن نتهم شاعريته إلا حين تشلنا القيود وتضيق آفاق تفكيرنا ، فلا نفهم من الشعر إلا ما يوافق الحدود والضوابط التي وضعوها منذ أكثر من عشرة قرون .

### الشعر عندنا :

فأما إذا اتسعت آفاقنا فلم تقصر الشعر على اللفظ والمعنى ، ولم نقف به عند الأساليب التي عرفها القدماء ، وفهمنا الشعر كما يجب أن يفهم ، تعبيراً موسيقياً مؤثراً عما تجرد النفس ، وترجمة منغمة عما تنفعل به وتهتاج ، إذا فهمنا الشعر هكذا فأبو العلاء عندنا شاعر لا نتهم شاعريته .

اقرأ داليتيه في رثاء أبي حمزة الفقيه فهو بها عندنا — وعند الأستاذ الجليل الدكتور طه حسين بك<sup>(١)</sup> — أشعر راث في العربية .

واقراً قصائده الأخرى في الرثاء ، وفي الحنين إلى المعرة وإلى بغداد ، ثم قل أي شيء يكون الشعر إذا لم يكن هذه النفثات اللاذعة الوقع الفاتنة الإيقاع ؟ أي شيء يكون الشعر إذا لم يكن هذه النغبات التي تترجم عن عواطف مشبوبة ، وتلمس مواطن التأثير من النفس الحية ؟

وليس « سقط الزند » وحده هو الديوان الذي تتجلى فيه شاعرية أبي العلاء ، بل إن في اللزوميات — وهي موضع الاتهام — مقاطع من الشعر العالی قل أن تجرد مثلها في الأدب العربي ، أصدق دلالة على ما تجرد النفس ، وأقوى تأثيراً في العاطفة . ولسنا نسرده عليك بضعة أبيات من هذا الشعر لناخذ منها الحكم ، فالأحكام النقدية في عصرنا لم تعد تنكس على مثل تلك النظرة الجزئية التي كان العرب الأولون يحكمون بها فيقولون : — فلان أشعر العرب لأنه قال هذا البيت أو ذلك .

(١) تجديد ذكرى أبي العلاء ص ٢١٣ .

لسنا نسرده عليك بعض أبيات من هذا الشعر العالى ، بل يكفي أن نحملك على الفصل الذى كتبناه عن « أبى العلاء ومصير الإنسان » فسترى فيه أشعاراً من أروع ما وعت العربية من الشعر المترجم عن دقة الحس وحدة العاطفة وصدق الشعور .  
( إن الشعر ليس لفظاً ومعنى فحسب إنما هناك الشعور الذى تجده النفس ، والنفس الذى يسرى فى الأعارىض . )

مأخذ النقاد المحدثين على شعر أبى العلاء :

والكثيرون من النقاد المحدثين لا يسيغون عرض المعرى ، ويكرهون « اهتمامه بمشكلة اللفظ أكثر من المعنى » ويضيقون بإسرافه فى القيود اللفظية ، وكان المرجو منه - وقد تحرر عقله وثار على الأساليب المألوفة ، أن يتحرر من القيود الشكلية ، لا أن يسرف فيها . كذلك عابوا عليه « إسرافه فى (١) التكلف والغموض ، والإكثار من المعانى والآراء إكثاراً يشبه أن يكون مجرد عرض منظوم لها » .

أبو العلاء بمنزلة من حيث الشعور :

هذا بعض ما يأخذ النقاد المحدثون على أبى العلاء - وعذرهم واضح حين يضيقون بعرض المعرى ، ولكن مأخذهم كما ترى لا يتجاوز الناحية الشكلية للشعر . ويبقى بعد ذلك جانب الشعور والعاطفة وهو كما رأينا المعنى الأول الأصيل فى المادة .

( وأبو العلاء يأتى فى المكان الأول من حيث وضوح الشعور وصفاءه وقوته ، وهو يمتاز من هذه الناحية ويأتى فى الذروة بين الشعراء . )

قال أستاذنا الدكتور طه حسين بك (٢) : « شعره يمثل شخصه تمثيلاً صحيحاً

(١) هذا رأى فى أبى العلاء سمعته من حضرة الأستاذ أمين الحولى فى بعض حديث له . ومن عاب تكلف أبى العلاء : ابن الأثير فى المثل السائر والإسكندرى فى تاريخ الآداب العباسية .

(٢) تجديد ذكرى أبى العلاء ص ٢٠١

ومصدر ذلك أن غير أبي العلاء من الشعراء قلما يفكرون في أنفسهم أو يعترفون بها — فهم يفتنونها فيما يحاولون أن ينظموا الشعر فيه . فإذا مدحوا فبنت قوتهم في المدح ، أما أبو العلاء فقد كان شديد الاعتراف بنفسه ، كثير التفكير فيها لا ينزل عنها ليتقن مدحاً أو يحسن وصفاً .

أبو العلاء شاعر يجذ فيعبر ، شاعر قد دق حسه وأرهفت عواطفه وقويت بصيرته فاستطاع أن يزيح الحجب عن نفسه ، وينفذ إليها فيراها كما هي ، ويحس ما تجيش به من عواطف ، وما يلم بها من أهواء ، وما يطيف بها من رؤى وأحلام .

ولعلنا لا نعرف في العربية شاعراً استطاع أن يجذ نفسه ويعرضها بأهوائها وعواطفها وشكوكها وآلامها ، كما فعل أبو العلاء . وهذه الميزة لا تبدو في نظمه فقط ، بل تبدو في ثمره أيضاً . أنصت إليه وهو يطيل التأمل في مصير الإنسان فيردد في مرارة وحنن ... « وصيح بالأرض اقبلي رهنك وبالزبل فاغدرى ! وحيز المال ونسى العهد وانتوى عن الإنسان أنيسه ذو الود القديم » .

( الفصول والغايات ص ٣٤٢ )

ويهتف بأهل القبور : « سلم الله عليكم أهل ديار لا يشعرون بتبليج الصبح ولا ترحل النهار ! أشتاق إليكم وإلى من أشتاق ؟ لا الأرواح متكلمة ، ولا الأجسام ملتئمة ، ولا المنازل برحاب . »

واسمعه يصيح بالدنيا : « أحب الدنيا وآلتها ليست في ! وقد نئست من بلوغها واليأس مريح ، فإلى م التشوف والضلال ؟ »

ثم ينطوى على جراحه مردداً في ألم واستسلام : « وإن الله خلقني لأمر حاولت سواه فألغيت المبهم بغير انفراج . »

( الفصول والغايات ص ٢٣١ )

أنصت إلى هذه العبارات وتلمس أثرها في قلبك وعواطفك ، فسترى ، أن لثرت



نفحة شعرية تخطبها في كثير من القصائد المنظومة الموزونة المقفاة .

لقد أشرف في علمه على أهواء رديئة يحرص الناس على كتمانها ، ولكنه كان شاعراً شديداً الوفاء لشاعريته ، فأنثى يحدث نفسه ويتحدث عنها ، وكان حديثه إلى نفسه صادقاً بريئاً من العش والخداع . وكان حديثه عنها صادقاً بريئاً من النفاق والرياء .

ثبات المستوى ليس شرطاً في الشعارية :

هذا هو الشاعر الذي أثبت الشبه حول شاعريته ، وقد بقيت شبهة أخرى تأخرنا في دفعها لأنها تبدو لنا هينة يسيرة . ذلك أن من الناس من يأخذون على أبي العلاء قصائد في الزوميات كثرت فيها المعاني والآراء ، كثرة تشبه أن تكون عرضاً منظوماً لهذه المعاني والآراء ، وهم يسوقون إليك هذه الأبيات ليدلوا على أن أبا العلاء ناظم لا شاعر .

ولسنا نجادل في أن من شعر أبي العلاء طائفة من الأبيات يصدق عليها هذا المأخذ ، ولسنا نجادل أيضاً في أن اهتمامه بالصنعة اللفظية وكلفه بإظهار تمكنه من اللغة وقدرته عليها ، وإسرافه في التكلف والإغراب . لسنا نجادل في أن هذا كله يفسد عليه جملة من شعره ، يبدو بعضها مسرفاً في التغالي الغامض الملعز ، ويبدو بعضها الآخر مجرد نظم لطائفة من الآراء والمعاني . كل هذا حق لا نجادل فيه ، ولكننا نقرر أنه ليس من شرط الشعارية ثبات المستوى للشاعر ،<sup>(١)</sup> فالأعشى صناعة العرب هو القائل :

وقد غدوت إلى الخانوت يتبعني شاورٍ مشلٍ شلولٍ شلشَلٍ شولٍ

« وبشار » الشاعر الفحل ، هو نفسه صاحب « رباية ربة البيت التي تصب الخل

(١) يرد أستاذي الكبير أمين الحولي على هذا ، بأن ما التمس من تغير المستوى عند الأعشى وبشار ، وأبي العاتية ، ليس إلا النادر أو البيت المفرد ، على حين أن ما عند أبي العلاء من الشعر الخالي من العناية الأولى بالصنعة اللفظية ، هو النادر والقليل .

في الزيت « والتي « لها عشر دجاجات وديك حسن الصوت » وأبو العتاهية شاعر  
الرشيد المقرب هو نفسه القائل :

هو الله هو الله ولكن يغفر الله

فثبت المستوى يجب أن يستبعد في فهم الشاعر . وإذا استبعدناه فلا ضير علينا  
أن يقال : إن لأبي العلاء أبياتاً رديئة ، بل نجيب : أجل ولكن يبقى له بعد ذلك  
كثير من الشعر العالى المترجم عن شعور نقي صاف ، وهو في هذا شاعر ممتاز يجد  
فيعبر ويؤثر . -

٢

الفرق بين أبي العلاء والشعراء

قيمة تأملية :

والمسألة لا تنتهى عند هذا الحد ، فنحن مضطرون إلى أن نواجه اعتراض من  
يقولون : إذا كان أبو العلاء شاعراً ، فقيم الوقوف عند آرائه ومعانيه؟ إن  
الشعر مجال الدراسات الفنية وليس مجال الأبحاث العقلية .

هل هي خطرات شاعر يريم في كل راد؟

هؤلاء المعترضون يؤمنون بشاعرية أبي العلاء ، ولكنهم يرون أنه لم يتناول المسائل  
العليا مفكراً متأملاً ، ولم يصدر في هذه التأملات عن تفكير ودرس وبحث ، وإنما  
هي خطرات طائفة مرتجلة ، والشعراء في كل واد يهيمون .

شاعت هذه الفكرة من قديم ، ومن الذين قالوا بها الصفدى والسلفى ، واعتنقها  
نفر من المحدثين نذكر منهم المرحوم أحمد تيمور باشا والميمنى . وكانت متكثاً للدفاع  
عن عقيدة أبي العلاء .

قال الميمنى<sup>(١)</sup> — : « إن حب الظرف والاستظراف هو الذى حدا به على أن  
أنشأ كل صنف من الشعر وولج فى كل باب منه . » وقال فى الدفاع عن معتقد  
أبى العلاء<sup>(٢)</sup> « ولكن له والحق يقال كثيراً من الأشعار تنجح إلى التشكيك فقال  
بعضهم — ومنهم السلفى والصفدى — : وكان لا يستقر به قرار ولا يبقى على قانون  
بل يجرى مع القافية إذا حصلت كما تجبى\* لا كما يجب . ا . ه . وهذا رأى صحيح فى  
بعض شعره . » وقال المرحوم أحمد تيمور باشا<sup>(٣)</sup> : « ولقائل أن يقول إن الرجل لم  
يقصد بياناً لمذهبه أو شرحاً لمعتقده بل جرى فيه مجرى الشعراء فى أفانينهم وهم — كما  
تعلم — يجوزون الكذب ويقولون ما لا يفعلون — » .

فهؤلاء يرون أن أبا العلاء كسائر الشعراء :

١ — يجوز الكذب ويقول ما لا يعنى .

٢ — يهيم فى كل واد ، ويلج فى كل باب ، ويجرى مع القافية كما تجبى .

لو صح هذان الزعمان لكان موضوع رسالتنا هذه عبثاً لا طائل فيه ولا معنى له .  
فى رسالة تجمع أقوال أبى العلاء وتأملاته فى طائفة من المشكلات الإنسانية والمسائل  
العليا التى شغلت الفلاسفة والمتكلمين . فلو أن أبا العلاء يقول ما لا يفعل ويهيم فى كل  
واد ، فلا معنى للوقوف عند تأملاته وآرائه فى هذه المسائل العقلية والأبحاث الفلسفية .

أبو العلاء لا يكذب فى شعره ولا يقول ما لا يعنى :

ولكن الزعمين كليهما خاطئان ، فأبو العلاء شاعر ، ولكنه يختلف عن الشعراء فى  
كونه لا يكذب ولا يقول ما لا يعنى

(١) أبو العلاء وما إليه ص ٢٩٢

(٢) أبو العلاء وما إليه ص ٢٩٨

(٣) أبو العلاء المعرى ص ١٥٧

والذين يتهمون أبا العلاء بالكذب والارتجال ، يجرون مع الفكرة الشائعة عن الشعراء ، من غير أن يعنوا بتحقيق التهمة من أقوال الرجل نفسه . فهو مأخوذ بتهمة زملائه ولكنه منها برى .

أبو العلاء نفسه يبرأ من كذب الشعراء . كان يضيق بشعر حديثه لما فيه من مبالغة وإسراف . ولما نظم « اللزوميات » قدمها إلينا معلنا أنه<sup>(١)</sup> « توخى صدق الكلمة ونزهها عن الكذب » وأنه كان قد قال في كلام له قديم أنه هجر الشعر ، وإنما يقصد بذلك<sup>(٢)</sup> « ما استجيز فيه الكذب واستعين على نظمه بالشبهات » واعتذر أبو العلاء مما عسى أن يقع في ديوانه مما لا يوافق أساليب الشعراء<sup>(٣)</sup> « فقد وجدنا الشعراء توصلوا إلى تحسين المنطق بالكذب » .

وكتب إلى أبي القاسم المغربي في رسالة الإغريض<sup>(٤)</sup> « والشعر الأول وإن كان سبب الأثرة ، وصحيفة المأثرة ، فإنه كذوب القالة ، نوم الإطالة وإن « قفانك » على حسنها وقدم سنها لتقر بما يبطل شهادة العدل الرضى » .

شعره ترجمة صادقة عما يجرد :

أبو العلاء يبرأ من الكذب ويضيق به كما رأينا ، والذين اتصلوا به وأطالوا صحبته ، يعرفونه صادقاً فيما يقول . فشعره ترجمة صادقة عما يجرد ، وأقواله صدى صحيح لتأملاته . وقد قال الرجل كل ما أراد أن يقول ، غير متق ولا متهيّب ، وإن غيره من الشعراء ليخفون نقائصهم ، ويكتمون أهواءهم ، ويحرصون على التقية في إعلان آرائهم إذا كانت تخالف شعور العامة أو تهاجم مصالح الخاصة .

(١) اللزوميات ج ١ ص ٩ (٢) اللزوميات ج ١ ص ٤١

(٣) اللزوميات ج ١ ص ٤٢

(٤) رسائل أبي العلاء ، الرسالة الثانية ص ١٨

وتأملته ليست فطرات شاعر يهيم في كل واد :

هذه تهمة الكذب نفيناها عن أبي العلاء وسمعناه يبرأ منها ، وبقيت التهمة الثانية وهي أن تأملاته لا تعدو أن تكون فطرات شاعر يهيم في كل واد ، فهو لا يتناول المسائل العليا مفكراً متأملاً ، وإنما هي فطرات تشبه ما نعرفه من أبيات الحكم التي يزدحم بها شعر أمثال زهير وعدى بن زيد وأبي العتاهية . وقد ردت<sup>(١)</sup> دائرة المعارف الإسلامية على هذا التشبيه فجعلت قياس أبي العلاء إلى مثل أبي العتاهية ظالماً وحيثاً ، إذ كان أبو العتاهية يستقي من الدين ويتقيد به ، وكان أبو العلاء يستقي من الفلسفة ولا يتقيد بالدين . وأضاف الدكتور طه بك إلى ذلك : « إن<sup>(٢)</sup> أبا العتاهية على كثرة ما استعان بالدين في زهد الذي ملأ به ديوانه ، كان فاسقاً مستهتراً بالمجون . بخلاف أبي العلاء الذي استكمل الفلسفة واتهمه الناس بالزندقة ، والإلحاد ، فإنه لم يميل إلى لهُو ولم يذهب مذهب مجنون . »

ولست مجرد نظم لحكم معروفة :

ونحب هنا أن نقرر أن شأن أبي العلاء غير شأن شعراء الحكم ، فهؤلاء لم يزيدوا على أن نظموا طائفة من الحكم الشائعة المعروفة بين الناس . من غير أن يتقيدوا بما يقولون ، فهم في الحث على الزهد مثلاً ، لا يصدر عن مذهب يعتنقونه ويدعون إليه ، وإنما ينظمون حكماً شائعة في الناس ، على حين كان أبو العلاء يحث على الزهد وهو زاهد منصرف عن ملذات الحياة ، ويدعو إلى الرفق بالحيوان وهو ممتنع عن أكل اللحوم ، (فهو يعني ما يقول ، ويتقيد به) ، ويصدر فيه عن إخلاص ، وذلك مظهر لا نراه في عامة الشعراء .

نحن لا نقول فقط إن أبا العلاء إنسان ، لا يجوز أن يهدر حظه الإنساني من التفكير

(١) دائرة المعارف الإسلامية مادة « أبو العلاء » .

(٢) تجديد ذكرى أبي العلاء ص ٢٢٧ .

والمنطق ، وإنما نقول إنه إنسان ممتاز ، قد تأمل في الكون والحياة ومصير الإنسان .  
وسمع أكثر ما قيل من رواد هذه الآفاق ، وأدارها في ذهنه ، ثم أملى قوله فيما عرض  
له ، غير مصدر عن تقليد وارتجال ، وأعلنه صريحاً صادقاً مهما خالف العرف ،  
فليس من الحق والإنصاف أن نأخذ تأملاته على أنها خطرات سريعة مرتجلة .

٣

العبء العلاء ليس جديداً على الإنسانية

وإن بدا جديداً على العربية

ولكنك رأيت أبا العلاء ضائعاً بين الشعر والفلسفة ، وهو الشاعر الممتاز الجدير  
بالأضيق .

وإنما أضيق لأن الذوق العربي كان حريصاً — ولعله لا يزال — على أن يخلص  
الشعر للعواطف . فتصدى أبي العلاء للمسائل العقلية بأسلوب شعري كان يبدو جديداً  
على العربية ، وإن لم يكن جديداً على الإنسانية ، فقد أصغت الإنسانية قديماً إلى  
قصيدة من أروع الشعر وأجمله ، يهتف بها لوكريس الشاعر الروماني الفيلسوف  
في القرن الأول ق . م تلك هي قصيدته « طبيعية الأشياء De Rerum Natura »  
التي عالج بها المسائل الكبرى للإنسانية ، وأذاب فيها قلبه وأعصابه ، لفرط تأثره  
بأحزان الإنسانية ومتاعها . قالوا <sup>(١)</sup> : « والصفة المميزة لقصيدة لوكريس التي  
جعلتها فريدة في الآداب ، هي أنه عالج المسائل الفلسفية شعراً . »

وفي الأمس القريب في القرن التاسع عشر ، شهدت الإنسانية فيلسوفاً فرنسياً  
هو « ألفريد دي فيني Alfred de Vigny » يعطيل التأمل في الكون والحياة

(١) دائرة المعارف البريطانية ، مادة « Lucretius »

ومصير الإنسان . وقد أحزنه أن يرى الإنسان مخلوقاً تافهاً فانياً لا تتأثر به الطبيعة ولا تكترث له ، وأحزنه ضعف الإرادة وعجز الإنسان وقصور العقل ، والموت المسلط علينا . فلما بدا له أن يتحدث عن هذه المسائل العقلية الجافة الغامضة ، لم يشأ أن يعالجها بالأسلوب العقلي الجاف المعتد ، وإنما نقل حسه بها من العقل إلى القلب ثم تحدث من قلبه ، حديث شاعر يصدر عن شعوره وعواطفه ، لا حديث مفكر يصدر عن عقله وتفكيره . قال في كلمة له قدمت بها مجموعة قصائده (طبعة سنة ١٨٣٧) :  
« الميزة<sup>(١)</sup> الوحيدة التي لا يستطيع أحد أن يسلبني إياها ، هي أنني كنت أول فرنسي عالج المسائل العقلية ، بهذا الأسلوب الذي ترى فيه الفكرة الفلسفية معروضة في قالب شعري . »

وتسمع<sup>(٢)</sup> اليوم شاعراً فذاً من شعراء فرنسا المعاصرين ، يقرر أن الفكرة الفلسفية لا تعالج بالشعر فحسب ، بل تعالج بأى فن آخر من الفنون الجميلة العليا .

وفي العالم الشرقى ، سمعنا انخيام — وهو التلميذ الأول لأبي العلاء — يعالج في شعره أدق المسائل ، ويتناول مهزلة الوجود ومصير الإنسانية تناولاً شعرياً مؤثراً ، ومع ذلك فإن تصديه لمعالجة هذه المسائل العقلية ، لم يحرمه مكانه الممتاز بين نقول الشعراء .

وقد شهدنا في عصرنا هذا « طاغور » شاعر الهند الأكبر يعالج المسائل الفلسفية بالشعر والقصص . ورأينا « إقبال » يختار طريقة الشعراء في شرح فلسفته . وفي كتابيه « أسرار خويدي ، وأسرار بي خويدي » قطع من أروع الشعر الفارسي ، تشرح فلسفة الذاتية وأسرارها ، في أسلوب من الشعر الرمزي العالى .

ولعلنا نلمح هذا النوع في صورة واضحة ، عند الشعراء المتصوفة الذين عاجلوا

B. Braunschvig - Notre Littérature Book II P. 472 Squ. (١)

P. Valéry - Variétés II. Léonard et Les Philosophes. (٢)

بالشعر بعض المسائل الغامضة والآراء الفلسفية ، كالحلول والحب الإلهي ، والرمزية ، وفلسفة الإشراق .

أنت ترى إذن أن تصدى الشعر للمسائل العقلية والأمور الفلسفية الجافة ، ليس غريباً ولا منكرأ ، وإن<sup>(١)</sup> ضاق به الذوق العربي وأنكره طويلاً .

وترى أن أبا العلاء ليس بدعاً في التاريخ الإنساني ، ولكنه « مبتدع<sup>(٢)</sup> » هذا المذهب في الأدب العربي . وهو من هذه الناحية جدير بأن يكون موضع نخر العربية واعتزازها ، كما كان تلميذه الخيام موضع نخر الأدب الفارسي ، وكما كان لوكريس موضع نخر الأدب اللاتيني .

إن من الشذوذ المنكر أن نظل قيد ضوابط الأقدمين ، وأن تهيب ما خلعوه عليها من قداسة ، فقد كانت هذه الضوابط مفهومة في الماضي ، ولكن تقيدنا به يشل حركتنا ، وينبئ عن مجزنا عن الانتفاع بتجارب بضعة قرون أضيفت إلى عمر الإنسانية .

فإذا كان أبو العلاء قد أضيع من قبل ، فإننا نرجو ألا يضيع بيننا اليوم ، وألا ننكر عليه مكاناً كريماً بين شعرائنا المفكرين الممتازين ، أصحاب الوجدانات القوية والشخصية اليقظة .

(١) تجديد ذكرى أبي العلاء . ص ٢٢٥

(٢) يقول أستاذنا أمين الحولي « إن للذوق العربي أن ينكر تصدى الشعر لمعالجة المسائل العقلية بما هي عقلية ، لكن النقاد لم ينكروا أن الفن والفلسفة ، لوان من التأمل الذي يواجه به الإنسان مشكلة الكون وألغاز الوجود ، ولكن فرق ما بين اللونين في تناول هو ما يتحدث فيه التأديبون ، فليست الموضوعات محرمة على أحدهما محللة للآخر ، ولكن المنهجين مختلفان في الموضوعات نفسها » انظر ما نقله ابن خلدون عن النقاد في كراهة تصدى الشعر للأمور الجديدة . وقد نقلناه في ص ٢٤ — ٢٩ .



## أبو العلاء أمام الحياة الإنسانية

- ١ - تشاؤم أبي العلاء ورده إلى دواعيه
- ٢ - متاعبه في حياته الخاصة
- ٣ - نضاله مع الدنيا وهزيمته في هذا النضال
- ٤ - سوء الحياة العامة في زمانه ومكانه

١

خرج أبو العلاء يرتاد آفاق الحياة الإنسانية باحثًا متأملًا ، وتصدى لمواجهة مشكلات هذه الحياة على ما فيها من دقة وتعقيد وعموض .

لم خلق الإنسان ؟

وماذا يلقى من متاعب الحياة ؟

وماذا يقترف من الأخطاء ؟

وإلى أين المصير ؟

ومن الطبيعي أن تكون نظرتَه إلى الحياة الإنسانية العامة متأثرة بحياته الخاصة ، ومن ثم نرى أن نلم بهذه الحياة الخاصة ، ونرصد ما فيها من متاعب ، قبل أن نصحبه وهو يجتاز مراحل الحياة الإنسانية ، ويرصد متاعبها وأخطأها .

الحزن

حنة مبكرة :

حياة أبي العلاء شاحبة عابسة ، استقبلته الدنيا والشمس تنحدر إلى مغربها ،  
والكون يتشح بغلالة شاحبة من أضواء غاربة ما لبثت أن ذابت في ظلام ليلة  
حالكة من ليالى الحاق ! قالوا <sup>(١)</sup> : « كانت ولادته يوم الجمعة عند مغيب الشمس  
ثلاث بقين من ربيع الأول سنة ٣٦٣ هـ . »

ومجل القدر بمأساته ، فاعتل <sup>(٢)</sup> علة الجدرى التى ذهب فيها بصره سنة ٣٦٧ هـ ،  
وهكذا شاع الظلام فى دنياه وهو بعد طفل يستقبل الحياة ، وأسدل بينه وبين الدنيا  
ستار حالك السواد ، قبل أن يمضى من عمره أربع سنوات .

استقبلته الأيام عابسة وكشفت له عن أظلم جانب فيها ، وأخذته بالقسوة والعنف ،  
ولداته يعبثون ويلهون ، فارغى البال من هموم العيش ونكد الأيام .

وفاة أبيه :

ومضت أعوام عشرة ، أخذ الصبي نفسه خلالها بالجلد والاستسلام ، وتكلف  
الشجاعة والصبر ، لكنه لم يكذب للمنحة ويعتادها ، حتى دهمته فاجعة أليمة  
أذهلته وهاجت أحزان ماضيه ، فنكأت الجرح وما كاد يندمل . رحل عنه أبوه  
إلى غير رجعة ، فولى معه الرفيق الكريم والنصير البار .

هنالك وقف الفتى فى تيه الحياة يفتقد العصا التى كان يتوكأ عليها ويهتدى بها  
فى الظلمات ، فألقى يده منها صغراً ، وإذا به يخبط فى التيه ضالاً جريحاً متعباً .

ولكن يداً كريمة رفيقة امتدت إليه ، فردت إليه بعض الجلد وبعض العزاء ،

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان ج ١ ص ٤١ . تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ج ٤ ص ٢٤٢  
بغية الوعاة للسيوطي ص ١٢٦ — شذرات الذهب لابن العماد ج ٣ ص ٢٨٠  
(٢) مجمع الأدباء لياقوت ج ١ ص ١٦٢ — وفيات الأعيان ج ١ ص ٤١

وانثنت إلى كلومه تأسوها في حنان الأثونة الرفيقة ، وحب الأمومة البارة . فصمد الفتى لمآساته ، وتجلد مرة ثانية . وانبثقت فيه قوى جديدة تغريه بالنضال . وأشرقت في دنياه المظلمة بارقة أمل ، فواجه الحياة متجلداً شجاعاً — واندس في دنيا الناس يفرض نفسه عليها ، ويفتصب مكانه على مائدة الحياة وقد نحى عنه . روى المؤرخون أنه « كان في أثناء شببته يجالس الظرفاء ، ويتصرف في فنون المزل والجد ، ويلعب الزرد والشطرنج ، ويقول إنه يحمد الله على العمى ، كما يحمده غيره على البصر . » وقد غادر قريته بعد أن لزمها خمس عشرة سنة ، لعله أمضاها في النضال بينه وبين نفسه ، وجمع أمره ، والتزود بما يحتاج إليه من عدة وعزم للنضال في دنيا الناس .

خروجه إلى بغداد :

خرج إلى بغداد آخر سنة ٣٩٨ هجرية<sup>(١)</sup> — وإنها يومئذ لعروس الدنيا ، ومركز الحضارة الشرقية وملتی الرواد والتجار ومقام الأشراف من العرب والعجم ، ومقصد الشعراء والرواة والعلماء والفقهاء والطلاب من جميع الأنحاء .

لماذا خرج إلى بغداد ؟

سكت ياقوت فلم يزد على أن سجل الرحلة ، وكذلك فعل ابن خلكان وإن كان قد جعل الرحلة اثنتين<sup>(٢)</sup> ، ونقله عنه ابن العماد في شذرات الذهب<sup>(٣)</sup> . كذلك سكت الخطيب البغدادي فلم يذكر لنا فيم كانت الرحلة إلى بغداد<sup>(٤)</sup> . وردتها دائرة المعارف الإسلامية إلى ( أسباب مجهولة ) وإن لم تستبعد « أن

(١) معجم الأدباء لياقوت ج ١ ص ١٦٣

(٢) وفيات الأعيان ج ١ ص ٤١

(٣) شذرات الذهب ج ١ ص ٢٨١

(٤) تاريخ بغداد ج ٤ ص ٢٤٠

يكون في شبابه ، قد شعر بقيود الحياة الريفية ، ونزع إلى ميدان أوسع تقدر فيه مواهبه<sup>(١)</sup> . »

وذكر الذهبي<sup>(٢)</sup> أنه سافر إليها منتظماً شاكياً : تعرض صاحب حلب لما في يده من الوقف الضئيل . وهو سبب شك فيه مرجليوث<sup>(٣)</sup> ، وسلامون ، والدكتور طه حسين بك<sup>(٤)</sup> ، لأسباب أوردها في كتابه « ذكرى أبي العلاء » .

ورد الدكتور طه حسين بك<sup>(٥)</sup> ، تلك الرحلة إلى أسباب أخرى ، قال إنه « يعتقد أن حب العلم ، وطلب الشهرة ، وسعة العيش ، وبغض الحياة السياسية بحلب ، هي التي كونت في نفس أبي العلاء ، عزمه الرحلة من بلاد الشام إلى بلاد العراق . »

وقال مرجليوث « لقد يقبل أن يكون ضياع وقف الشاعر سبباً من أسباب رحيله عن المعرة ، ولكنه لا يجعلنا نفرض أنه رحل إلى بغداد لاسترداده . ورسائله وآثاره لا تذكر شيئاً عن هذا الوقف . وغير مستغرب ولا شاذ أن رجلاً ظفر بحظ من الشهرة ، يرغب في أن يجرب حظه في العاصمة »

(أبو العلاء يفتي أنه سافر للثروة :

أما أن أبا العلاء كان يبغض الحياة السياسية في حلب فأمراً لا نشك فيه ، وأما هذه الثروة التي راح ينشدها في بغداد فأمراً غير مستغرب ، لولا أن أبا العلاء نفسه قد

(١) دائره المعارف الإسلامية مادة ( أبو العلاء )

(٢) ترجمة الذهبي — رسائل مرجليوث ص ١٢٩

(٣) Margoliouth - Biography of Abu'l Alā P. 20 ed. Oxford

(٤) تجديد ذكرى أبي العلاء ص ١٢٨

(٥) « » « » ص ١٢٨

أح في إنكار أنه ذهب يستكثر من الغنى وهو يقول : « وأحلف ما سافرت أستكثر من النشب <sup>(١)</sup> » وهذه جملة أملاها مطمئناً رزيناً منصرفاً إلى نفسه وخواتمه ، أملاها في رسالته إلى أهل المعرفة ، وهي رسالة لم تصدر عنه سرية ، ولا مرتجلة ، وإنما صدرت عن روية وتفكير ، وكان رأيه فيها : « ليس بنتيج الساعة ، ولا ريب الشهر والسنة ، ولكنه سليل الفكر الطويل <sup>(٢)</sup> » .

أبو العلاء كما رأيت ينبغي أن يكون قد سافر يستكثر من الغنى ، وهذا يبدو مخالفاً لرأى الدكتور طه حسين بك . ونحن لا نبرىء أبا العلاء من الرغبة في سعة العيش ، وإن كنا نصدق في قوله إنه لم يسافر استكثاراً من النشب ، فليس ببعيد أن يكون قد رغب في الثروة ولكن الثروة لم تكن غايته بل كانت وسيلته إلى غاية أخرى كان يرجوها في بغداد . وإلا لبقى في بغداد حين عرض أهلها عليه أموالهم « عرض <sup>(٣)</sup> الجد ، فوجدوه غير جدل بالصفات ولا هش إلى معروف الأتوام . »

فما هذه الغاية البعيدة التي راح ينشرها في بغداد ؟

(حب العلم ، وطلب الشهرة ؟)

نعم ، ولكننا نضيف إليهما غاية أخرى تلتبسها من حالته النفسية في تلك الفترة الفاصلة بين طوري حياته .

(كانت غايته تأييد نضال مع الدنيا ، وإعلاءه الناس بتفوقه وامتنازه :

يبدو لنا من تفهم حالته النفسية ، وطول صحبته ، أنه خرج إلى بغداد يؤيد نضاله على الدنيا ، وانتصاره عليها ، هذا النضال الذي بدأه في شببته وتمثل لنا فيه ، تحديه

(١) و(٢) رسائل أبي العلاء (مرجليوث) الرسالة الثامنة من ٣٤

(٣) المصدر نفسه من ٣٥

للدنيا وتظاهره بالاستخفاف بمتاعبه . وقد سمعت ما رواه المؤرخون عن مجالسته  
الطرفاء — وتصرفه في فنون الهزل والجد ، ولعبه الترد والشطرنج ، وحده الله  
على العمى .

وظهر هذا النضال واضحاً في شعر الشباب . فقد قال في ذلك العهد<sup>(١)</sup> :

وقد سار ذكرى في البلاد فمن لهم      بإخفاء شمس ضوءها متكامل  
يهم الليالي بعض ما أنا مضر      ويثقل رضوى دون ما أنا حامل  
وإني وإن كنت الأخير زمانه      لآت بما لم تستطعه الأوائل  
ينافس يومى في أمسى تشرفاً      وتحسد أسحارى على الأصائل  
وطال اعترافى بالزمان وصرفه      فلست أبالى من تقول الغوائل  
فلو بان عضدى ما تأسف منكبي      ولو مات زندي ما بكته الأنامل

( سقط الزند — شرح التنوير — ج ١ ص ١٠٩ )

هذا هو حديث النفس التي تناضل عن حقها في الحياة ، وتعلن عن امتيازها وتفوقها ،  
وتتحدى الأيام بعجزها عن النيل منها ، مهما أكثرت من مصائبها وأثقلت  
من أحمالها .

لمثل هذا خرج أبو العلاء إلى بغداد . خرج يؤيد نضاله على الدنيا وانتصاره  
عليها ( خرج يعلن الناس بمكانه ويفرض نفسه عليهم ، ويدفعهم إلى الاعتراف به  
ويعرض طبيعته الممتازة وذكائه النادر ، ليثبت أن الأيام لم تهزمه ، وأن محنته لا تحول  
دون تفوقه وامتيازته )

(١) لم يعين أبو العلاء — ولا المؤرخون — تاريخ هذه القصيدة ، كما لم يعينوا تاريخ  
غيرها من آثاره ، ولكن الذى اطمأن إليه دارسو أبي العلاء ، هو أن شعر الفخر كان قبيل  
العزلة . انظر ص ٢٠٦ من تجديد ذكرى أبي العلاء .

واذكر هنا ما رواه ياقوت<sup>(١)</sup> ، عن قصة الكلب .. قال : « إنه دخل على الشريف المرتضى وهو ببغداد ، فعثر برجل فقال : من هذا الكلب ؟ فأجاب أبو العلاء : الكلب من لا يعرف للكلب سبعين اسماً ! » .

تلك قصة أوردتها ياقوت في معرض الحديث عن ذكائه ، ونقلها عنه السيوطي<sup>(٢)</sup> ، ونقلها كذلك تيمور باشا فأوردتها في فصل<sup>(٣)</sup> « في مبلغ علمه وذكائه » .

ولكني أوردتها هنا لشيء غير التندر بذكائه والإشادة بعلمه - إنني أقف عندها طويلاً فألمح وراءها معنى بعيداً . هي تكشف لي عن عزم أبي العلاء على النضال ، وتعلن عن تحديه للدين والناس ، وإصراره على أن يفرض نفسه عليهم ، إنه يقول : لقد امتحنتني الأيام ولكنهما لم تهزمني ! أفسحوا لي مكاني بينكم ، فإن محنتي لا تحول دون تفوق وامتيازى ! من شاء فليتقدم لمنافرتي ، والكلب من لا يعرف للكلب سبعين اسماً .

فسد في النضال في بغداد :

خرج أبو العلاء إذن مناقلاً عن نفسه ، يطلب مكانه الجدير به ، فماذا لقي في بغداد وكيف كان النضال ؟

(أما الناس فاعترفوا به وأفسحوا له مكانه بين الخاصة الممتازين<sup>(٤)</sup> .

وأما الدنيا فتصدت له ساخرة بما اصطنع من جلد ، وما تكلف من شجاعة . رأته يتحداها ، فسأقت إليه ما زهده في النضال وكفه عنه . وأنت تذكر كيف

(١) معجم الأدباء لياقوت ج ١ ص ١٦٩

(٢) بقية الوعاة للسيوطي ص ١٢٦

(٣) أبو العلاء المعري لأحمد تيمور باشا ص ٢٣

(٤) معجم الأدباء لياقوت ج ١ ص ١٦٢ - تجديد ذكرى أبي العلاء ص ١٥٢

أخرج<sup>(١)</sup> من مجلس الشريف المرتضى ذليلاً مهاناً . وتذكر قصته مع أبي الحسن على بن عيسى الرعي النحوي إذ استأذن<sup>(٢)</sup> عليه فقال : « ليصعد الاصطبل » ( الأعمى ) « ولست في حاجة إلى أن نذكر لك أثر ذلك في نفس شاعرة دقيقة الحس ، قليلة التصبر ، شديدة الكبرياء كنفس أبي العلاء . »

كان هذا كفيلاً بأن يجعل مكانه في بغداد - في دنيا الناس - قلقاً غير مطمئن ، لكنه تجلد ليبي نفسه للعودة إلى دنياه ، وساعده على التجلد أن الحياة العامة في بغداد ، في ذلك الحين ، كانت تهيب له غير قليل من المتاع ، وكانت حفاوة البغداديين به تربطه إليهم ، وتحببهم إليه . وقد أفسحو له مكانه الجدير به فتأثر بتقديرهم ، ورأى في البقاء بينهم ، لوناً من ألوان الوفاء والاعتراف بالجميل .

رصيد عن بغداد :

وجاءه خبر من معرة النعمان أن أمه مريضة ، فأزججه عن بغداد ، أو قل مجل بإخراجه منها . فقد يبدو لنا أنه كان على نية الرحيل مرضت أمه أو لم تمرض - ولست أنسى أنه قال يعلل رحيله عن بغداد . . . !

أثارني عنكم أمران : والده لم ألقها وثناء عاد مسفوتا

ذانك سببان ظاهران للسفر ، وهما ظاهر العذر كما يقول الفقهاء ، ولكنه إنما تعلل بهما . ووراءهما سبب بعيد ، هو ما قدمنا من قلق مكانه في بغداد ، ودقة حسه لما لقي فيها .

لأنه ترك بغداد لمرض أمه حقاً ، لعاد إليها بعد أن ماتت . ولو أنه تركها لنفسه

(١) معجم الأدباء لياقوت ج ١ ص ١٧٠ - شذرات الذهب لابن العماد ج ١ ص ١٨٣

بغية الوعاة للسيوطي ص ١٦٩

(٢) معجم الأدباء لياقوت ج ١ ص ١٦٩ .



في طلب الثروة ، لردته إليها الأموال التي عرضها البغداديون عليه عرض الجد فيما يقول .  
إنما هي تعلقة الرجل المتعب ، الذي أجمع أمره على الرحيل والعزلة . (أجل ، لم يكن  
رحيله عن بغداد بخافة حين أزجمه مرض أمه ، ولم يكن إجماع أمره على العزلة  
« نتيج الساعة ، ولكن سليل الفكر الطويل <sup>(١)</sup> » ثم كان مرض أمه وعجز ثروته  
الضئيلة عن مواتاته على العيش في بغداد فعجل بالسفر . كان في نيته أن يرحل ، دون  
أن يحدد متى وكيف ، فجاء خبر مرض أمه مؤذناً بموعد الرحيل .

### وفاة أمه :

أخذ الطريق إلى أمه وإن نفسه تهفو إلى ساعة يلقاها ، فيغرق آلامه في حنانها  
الكبير ويستمد السلوى والعزاء . وعاودته ذكرى ما لقي في بغداد ولكنه اعتصم بذكرى  
أمه ، وتمثل له ما سوف يلقى عندها من نعيم . وإنه لعارق في تأملاته ، معتصم بأحلامه ، إذ  
ماتت أمه ، فتداعى له صاب وتمت المساة . صحا الرجل من غفوة أحلامه على صوت الفاجعة  
الجديدة ، فأدرك في يقظة مباغتة أنه ضائع الحيلة أمام مصائب القدر وكوارث الأيام .  
هنالك عزم على وضع حد للنضال الذي أرفقه ، ومضى يهيمهم بكلمات نائمة نادية ، ويلهو  
بأحزانه ويتفنن في تصويرها ، وكأنه يستمرىء طعامها : « يا قلب لعل أسودك زنجي  
من ولد حام ... ألا تبتئس لأول من فعل معك الجميل ؟ ألا تجزع لتقوض الأقربين ؟  
يا شمال ، ألم يحزنك شلل اليمين ؟ أقمت وتحمل الناس ، وإن لحاقى بالظاعن لوشيك ،  
عند الله أحسب ما رزئت من أهل ولقيت من هم كاد الغريب له يشيب ، وتعب  
رسخ ألمه في الأعضاء <sup>(٢)</sup> . »

رحمك الله من ساكنة رمس ، أصبحت حياتك كأمس <sup>(٣)</sup>

(١) رسالته إلى أهل المعرة - رسائل أبي العلاء - الرسالة الثامنة ص ٣٤

(٢) الفصول والغايات ص ١٥

(٣) رسائل أبي العلاء . الرسالة السابعة ص ٢٨

فإن ينقطع منك الرجاء فإنه سيبقى عليك الحزن ما بقي الدهر  
لا أمل بعدها خيراً ، ولا أزيد في المحن إلا إضاعاً وسيراً . ياسلوة الأيام  
موعدك الحشر . موعده والله بعيد . . . وحزني لفقدها ، كنعميم أهل الجنة - كلما  
نقد جدد ، وشرحه إملال سامع وإفناء زمان .

هكذا انتهت الرحلة وأوى المتعب إلى بيته ، فإذا الظلام يكتنفه . . . اختفت  
منه الابتسامة الوحيدة التي أشرقت في أساه ، وتلاشى شعاع النور الذي أضاء في حياته  
المظلمة . أب المسافر من سفره وحط رحاله بعد أن أتم التجربة . كانت الحياة كما رأيت  
قد أخذته بأنواع من القيود فثار ، ولكن ثورته لم تفكها عنه ، وإنما تحطمت على  
صخرة الأحزان . حاول أن يشغل عنها بالناس والدنيا لينساها في زحمة الحياة ، ولكنه  
وجد هناك ما أزعجه عنها وملاً نفسه مللاً وتعباً .

وعاد يلتمس العزاء في أحضان أمه ، ولكن أمه قد مضت ومضى معها العزاء .

هنالك زهد في دنيا الناس ، وصدق عما تركت له من تافه المملذات .

« وانطوى على يأس ومجانبة للناس »<sup>(١)</sup>

\*\*\*

حياته بعد العزلة :

هذه حياة الرجل قبل العزلة ، وهذه هي متاعبه وآلامه ، فهل استراح في عزلته  
وهذا إلى اليأس وكف عن النضال ؟ .

ظن<sup>(٢)</sup> الكثيرون أن أبا العلاء حين اعتزل ، قد راض نفسه على الرضا بما قدر له

(١) من رسالة إلى بعض العلوية ( رسائل أبي العلاء - الرسالة التاسعة ص ٣٥ )

(٢) أبو العلاء وما إليه - للميني ص ١٧٤ .

والاستسلام لما أريد به ، ولكن الحقيقة أن أبا العلاء لم يذق لذة الصبر وإن تكلف الصبر . ولم يرض بمحنته وإن تظاهر بالرضا والاستسلام . إنما رأى الرجل أنه ضائع الحياة ، لا يملك لنفسه شيئاً ، فانطوى على نفسه ، يعالج همومه ، ويتكلف الصبر والصبر عنه بعيد)

صبره عن مأساة :

(ونحن نتركه الآن يحدث عن مأساته ، فسترى في حديثه مرارة مؤثرة وأنياباً مكتوماً وصراخاً أبح ، وشكاة موجعة باكية .)

قال في اللزوميات :

ربّ متى أرحل عن هذه الدنيا فإني قد أطلت المقام  
لم أدر ما نجمي ولكنه في النحس مذ كان ، جرى واستقام  
فلا صديقي يترجى يدي ولا عدوي يتخشى انتقام  
والعيش سقم للفتى منصب والموت يأتي بشفاء السقام ٣٢٤/٢

ويبكم إن رأيتموني يوماً حبة في الثرى فلا تلقطوني  
بت كالواو بين ياء وكسر لا يلام الرجال إن يسقطوني ٣٨٥/٢

أجامل الناس ولو أنني كشفت ما في السر أخزاني ٣٨٣/٢

أراني في قيد الحياة مكلفاً ثقاتل أمشي تحتها وأطابق ١١٨/٤

من عثرة القوم أن كانوا وليدهم أبا فلان ، ولم ينسل ولا بلغا  
كالسيف سمي قطعاً وما ضربت به الأُكف ، ولا في هامة ولغا ٩٥/٢

عرفت صروفه فأزمتُ منها على سن ابن تجربة مُسن

وأقترنى إلى من ليس مثلى كما افتقر السنان إلى المسن ٢٧٥/٢  
إذا لم يكن خلفي كبير يضيعه حماي ولا طفل ، فقيم حياتي ؟ ١٨٢/١  
إذا طفقت في الثرى أعين فقد أمنت من عمى أو رمد ٣٠٢/١  
فيادار الخسار ألى خلاص فأذهب في الجنوب أو الشمال ؟  
وظلم أن أحاول فيك ربحاً ولم أخرج إليك برأس مال ٢٢٩/٢  
وهون أرزاء الحوادث أنى وحيـد أعانها بغير عيال  
فدعنى وأهوالا أمارس ضنكها وإياك عنى لا تتف بحيالى ! ٢١٥/٢  
وأصبحت في الدنيا غيبناً مرزءاً فأعفيت نسلى من أذاة ومن غبن  
فإن تحمكى بالجور فى وفى أبى فلن تحمكه فى بناتى ولا فى ابنى ٣٥٩/٢  
وقال فى الفصول والغايات :

ما أضيق على دنياى ! وأنت المفرع إذا بطل كل احتيال . (٥٣)

يا نفس العبر ، لا تبقين على الغير ، أما أصلك فقد ذهب ، وأما الفرع فلا فرع  
لك ، إنما أنت كشباً ، عشى ماء مطحلباً . (٥٣)

إن جناحى لمبيض ، طرت فى الصعيد فوقعت غير بعيد ، والله منهض المنهاضين (٢١٤)  
أصبح وأيت ، وأنا الضعيف الهيت ، ولو شاء خالقى لجعلنى القوى المزير (١٨٨)  
يا نفس ، كأنى بك وقد بنت ، عن غير ابن لك ولا بنت ، طالما رنت وأرنت ،  
فالآن خبت وخبت ، أما عمك فشنت ، أردت الزين فمازنت ، فرحمك الله  
إذ حنت . . . . . كأن الأيام تحذنى ، تأكلنى فتلذنى ، والله العالم بعبده إذا جالت  
فيه الظنون . (٢١٩)

طلبني الزمن بوتر ، ورماني بالقتر ، وما ترك لي مسيو قتر ، غير ملقي جسد تحت  
الصفاح . (٢٥٥)

الله ملك الملوك ، وأنا معترف مقر ، أنشهد الدنيا مقر ، وأن غنيها مفتقر ، أعوزني  
فيه مسكن آرز إليه وأستكن ، وتبوات الناسجة بين المثاب . (٤٧)

أضحك فلا ضحك ! وأنا بالبكاء حقيق مما كان ويكون ، فعلى بالأسف مادعت  
الحمامة حماما !

إنما أنا كرجل مبل بالصدى ، لا يجرد ورداً ولا مورداً فهو ظمان أبداً . إن ورد  
غروفا وجده مضغوفاً ، وإن صادف نزوعاً ، أعوزته الآلة والمعين . (٢١٦)

أرتفع والقدر يكبني ، يالبتى دائماً وبلبني . كم أستنسر وأنا من البغاث ! (٢١٦)  
كم بت وظللت ، فقد سئمت الحياة ومللت ! كم أبليت من المرض فما بللت . (٢٨٥)  
أى صديق لي وأى نسيب ؟ إني في الوطن لغريب ! (٢٦٦)

لا اعتدل أبداً ولا أستقيم ! مغبون في الدنيا غيبين . . . (٢٧٠)

أبو العمراء لم يزهر في المجد :

«والذين يظنون أبا العلاء زهد في المجد والشهرة محطون ، فقد كان الرجل شديد  
الكبرياء والاعتداد بعلمه وذكائه ، حريصاً على أن يعرفهما الناس ، شاكرًا من  
يعرفهما ، ساخطاً على من ينكرها .»

كتب إلى أبي القاسم المغربي في رسالة الإغريض<sup>(١)</sup> . « وجعل الله رتبته . . . .  
لا تتخضع أبداً . فقد جعلني إن حضرت عُرِف شأني ، وإن غبت لم يجهل مكاني .  
وقد غضب حين تلى عليه كتاب أبي الحسن النكتي البصري ، إذ قصر اسمه

وحرّفه فأسماه « محمداً أبي العلاء » قال رداً عليه<sup>(١)</sup> : « أما السمة فغيرها ، وأما الكنية فقصرها ، فإننا لله وإنا إليه راجعون ! هذا أمر الله ! ليس هو من ضعف الشاعر ولا وهن القائل ، ولكنه من سوء الحظ لمن خوطب ، والاتفاق الرديء لمن سمى وذاكر . . . . . »

« ولا يقل سيدى الشيخ — أدام الله عزه — قد قصرت الشعراء . . . . . فإنه لو كان استعمل ضرورة غير تلك لقبلت حجته ، ولكنه ألغى الضرورات كلها ورفض العيوب فلم يستعملها . »

أرأيت كيف غضب المعرى وتألّم ، وثار واستسلم ؟ أرأيت كيف فزع لقصر اسمه ثم تماسك وظنها ضرورة شاعر . ثم أدركه الشك فمضى يفتقد ضرورة أخرى فى رسالة صاحبه وأخذ يستعرضها فى صبر عجيب حتى أتى عليها فإذا بها خلو من الضرورات ، بريئة من عيوب الشعر ، هنالك فزع أبو العلاء وارتاب ، بدأ يعاتب صاحبه فى سخريّة ، ولكن المرارة غلبته فهتف فى حزن وشكوى<sup>(٢)</sup> « وإنما تعوثت من ذلك لأننى قصير الهمة قصير اليد ، مقصور النظر مقصور فى البيت ، فكأنى محبوس فيه فما كفانى ذلك مع قصر الجسم ، حتى يضاف إليه قصر الاسم ! لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . لو كنت أطول من ظل الريح لصرت أقصر من سالفة الذباب قد كدت أمصح فى الأرض كما تمصح الظلال . »

٤ — (سوء الحياة العامّة فى زمانه ومطائنه)

تلك حياة الرجل الخاصة ، فإذا تجاوزتها إلى الحياة العامّة فى حلب وفى بغداد وفى البلاد الإسلامية بوجه عام ، ألفيت شراً ونكراً . فقد ضمت الدولة شعوباً متنافرة شتى ، واندست إليها لوثات دينية واجتماعية شاذة من كل مكان .

(١) رسائل أبي العلاء — الرسالة السابعة والعشرون ص ٦٥

(٢) « » « » السابعة والعشرون ص ٧٦

كانت الحياة السياسية على حال من السوء يدعو إلى التشاؤم . لم يظهر هذا السوء فجأة في ذلك العهد ، وإنما تقدمته أسباب وطلأع ، ظلت تعمل في جسم الدولة حتى صار هرمًا منحوبًا .

وكانت قوة شخصية الخلفاء في العهد العباسي الأول تؤخر المأساة ، حتى إذا كان العصر الثاني ، ضاعت هذه القوة .

لم يعد للخليفة هيبة ، فهو مراقب مسجون ، ينتظر القتل والعزل ، لا رأى له في اختياره أو عزله ، يثور به الخدم وتستبد به النساء ، ويلعب به الوزراء ويضحك منه الجند ، ويحوطه الأعداء من كل ناحية : من بيته وقومه وعدوه . وهو حائر يتردد بين الحرب والسلم ، بين الجهر بالعداء والكتمان والمداراة ، وهو ضعيف يقدر فلا يعفو ، ويملك فلا يرحم ، يصطنع الغدر والدس والخيانة ، بل والسلب المستتر .

والجند ماضون في طغيانهم . يظالمون ويستبدون ويسلبون ويتنافسون . حديثهم بالسلاح ، وتفاهمهم بالحراب .

والادارة مكونة من خليط عجيب ، والدولة كالجثة تنهشها ذئاب الأقطاع والعصبيات والشهوات .

ولم يعد للدين حرمة ، فكثير مدعو النبوة ، والزنادقة ، واندست إلى البلاد لوثات دينية وآراء غريبة شاذة . وأصبح التصريح بالسوأة شائعاً على ألسن العامة والخاصة ، وشاع الاتجار بالدين والتكسب به .

والجمهور يفتح عينيه على هذا كله وهو في ثورة فكرية لم يرها العرب من قبل ، فكانت ثقافته تزيد من ثورته وسخطه .

وارجع إلى ما تختار من كتب التاريخ الإسلامي لذلك العهد ، فسترى تلك

الصورة التي عرضناها له ، بريئة من الغلو والمبالغة والإسراف .

\*\*\*

في هذه البيئة المنكرة عاش أبو العلاء ، ومن الحق أنها لم تنفرد به وحده ، وإنما كانت بيئة شائعة مشتركة ، (شهدها عدد من الشعراء فلم تلذعهم المرارة كما لذعت أبا العلاء . ذلك لأنه كان متعباً ، وقد أوفت الحياة له كيل الهموم ، وأثقلت كاهله بأعبائها ، وألقت بينه وبين الدنيا ستاراً أسود ، فبدت له مآسى الدنيا مظلمة شديدة الإظلام . وعاد الشاعر كتلة من الحس المرهف الدقيق ، فإذا به يحس أشياء ، يمر بها غيره سراعاً لا يلتفتون ) ثم اعتزل الناس ، ولكن بقيت له نفسه الشاعرة وحسبه المرهف ، وعقله الممتاز وروح الحرة الطليقة ، فمضى يرصد مهازل الحياة في عصره ، ويحس شرورها وأخطائها إحساساً عميقاً مؤلماً ، فتصدر عنه فيما يليه ، قوية لاذعة مؤثرة .

قال في الزوميات يتحدث عن فساد الحياة في عصره :

مل المقام فكم أعاشر أمة      أمرت بغير صلاحها أمراؤها  
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها      فغدوا مصالحها وهم أجراؤها ٥٥/١

إنما هذه المذاهب أسببا      ب جلب الدنيا إلى الرؤساء  
غرض القوم متعة ولا يرقون      لدمع الشاء والخنساء  
كالذي قام يجمع الزنج بالبصرة      والقرمطى بالأحساء ٦٥/١

ومن يفقد حال الزمان وأهله      يذم بهم غرباً من الأرض أو شرقاً  
يجد قولهم مينا ، وودهم قلى      وخيرهم شراً وصنعتهم خرقاً ١٣٦/٢

لقد تفكرت في الدنيا وساكنها      فأحدث الفكر أشجاناً وتأريقاً



أعرق آدم هذا لا يمازجه سواه ، أم مس من إبليس تعريفا ؟ ١٣١/٢

كل الديار ذميمة لا مقام به وإن حلت ديار الويل والرمم  
إن الحجاز عن الخيرات محتجز وما تهامة إلا معدن التهم  
والشام شؤم وليس اليمن في يمن ويثرب الآن ، تثيرب على الفهم ١٠٣/٢

ويقال الكرام قولاً وما في العصر إلا الشخوص والأسماء  
وأحاديث حبرتها غواة وافترتها للمكسب القدمات ٢٠٨/١

تلاوتكم ليست لرشد ولا هدى ولكن لكم فيها التكاثر والكبر ٣٠٥/١

فؤادك خفاق وبرقك خافق وأعيالك في الدنيا خليل موافق  
تخير ، فأما وحدة مثل ميتة وإما جليس في الحياة منافق ١١٨/٢

سأفعل خيراً ما استطعت فلا تقم على صلاة يوم أصبح هالكا  
فما فيكم من خير يدعى به يفرج عنى في المضيق المسالك ١٤٩/٢

وكتب في رسالة الأخرسين يحمل على المتدينين وزيفهم :

« قال رجل من الصالحين . لأن يدعو لى رجل أحرص ، أحب إلى من  
أن يدعو لى ألف خطيب على ألف منبر — لأن ذلك يومىء إلى الله سبحانه بلسان  
ما أفك ولا قال البهتان ، وأولئك جديرون أن يكونوا كما قال سبحانه : « يقولون  
بالسننهم ما ليس في قلوبهم » .

وقال في الفصول والغايات :

طُفَّت الآفاق فإذا الدنيا نفاق ، ومللت من مداراة العالم بما يضمّر غيره الفؤاد ،  
فاخترت الوحدة على جليس السوء ! (٢٧٣)

\*\*\*

بهذا الحس الدقيق المرفف ، وتلك النظرة القائمة المتشائمة ، تجاوز أبو العلاء دنياه  
الخاصة ويبيئه العامة ، ومضى يواجه مشكلات الحياة الإنسانية ويرصد متاعها  
وشروها وأخطاءها . فلنمض معه ولنصغ إلى تأملاته .

مراحل الحياة الإنسانية

« مرحلة النشأة — مرحلة الحياة — مرحلة الموت والمصير »

المقالة الرابعة : العلة الغائية للخلق

« لم خلق الإنسان ؟ وهل خلق العالم لنا ؟ »

« الخامسة : متاعب الإنسان »

« مشكلة الخير والشر »

« السادسة : أخطاء الإنسان »

« مشكلة الجنب والاختيار »

« السابعة : الموت »

« الثامنة : مصير الإنسان »

المنا

إلى

البحر

بوس

رو

الي

## مراحل الحياة الانسانية

المرحلة الأولى

العلة الغائية وحكمة الوجود

- ١ - لم خلق الإنسان ؟
- ٢ - وهل خلق العالم لنا ؟
- ٣ - وسخرت الكائنات لأجلنا ؟

١

البحث في حكمة خلق الإنسان يرجع إلى أصل عام هو الحكمة العامة للوجود .  
هل للخلق حكمة معروفة ؟

أو أن ما نراه في الكون ، من مظاهر وكائنات ، نتيجة نظام آلى لا يقصد الإغاية ؟ .  
ظهر النضال بين الرأيين في البيئة اليونانية من قديم ، وكان في أول أمره عامماً يتجه إلى المظاهر الكونية ، ويحاول فهمها وتعليلها . حتى جاء الدور السقراطي ، فلم يعد البحث في حكمة الخلق مقصوراً على الظواهر الكونية ، وإنما تجاوزها إلى الكائنات بوجه عام والإنسان بوجه خاص .

رد الظواهر الكونية إلى غضب الآلهة ررضائها :

ظهرت فكرة العلة الغائية ساذجة ، في (الميثولوجيا) اليونانية القديمة ، فكان اليونان في شغل دائم بالآلهة وغضبها ورضائها ، كلما رأوا خيراً رددوه إلى رضى الآلهة ،

مدرسة الفلاسفة والفلاسفة

وكما أصابهم أذى ردوه إلى غضبها . فكان الآلهة في شغل دائم بهؤلاء البشر ، وهي تفعل ما تفعل ، وتخلق ما تخلق ، متأثرة بعواطفها نحوهم .

ولكن المدرسة الذرية الأولى ، حاربت هذه الفكرة ، فزعمها ديمقريطس Démocrite يسأل : « هل المادة - وهي متحركة أبداً - تسير في حركتها ، وفقاً لخطة مقدورة وغاية مرسومة ، أو أنها تخبط خبط عشواء ؟ » ويجيب ديمقريطس عن السؤال ، فلا يتردد في القول ، بأن الضرورة الآلية العمياء وحدها ، هي التي تدفع الذرات هنا وهناك دون أن يكون لها قدر معلوم ، أو سبب مرسوم ، أو غاية تقصدها .

هذا قول جهرت به المدرسة الذرية الأولى قبيل القرن السادس ق. م. ولكن العهد لم يطل به ، فقد نهض أناكسا جوراس Anaxagore حوالي سنة ٥٠٠ ق. م. يبطله ، ويقول أرسطو عنه : « بدا كأنه الوحيد الذي احتفظ برشده إزاء هذيان سلفائه . »

بهره ما يشمل الكون من نظام وجمال وتناسق ، فأدرك على الفور أنه يستحيل على قوة عمياء أن تخرج هذا العالم الدقيق المتناغم ، فهو كما يظهر لا يخبط خبط عشواء بل يقصد إلى غرض محدود ، وكيف يسيع العقل أن يكون تناسق الكون من فعل قوة آلية عمياء ؟ وهل تنتج هذه القوة إذا أطلق لها الأمر إلا عماء وفوضى ؟<sup>(١)</sup>

وقد بالغ أناكسا جوراس في تقدير القوة العاقلة حتى انقلبت عنده قوة آلية ، وكأنه انكفأ بذلك راجعاً إلى حيث كان أسلافه من قبل .

وجاءت مدرسة سقراط فقررت ألا شيء في العالم خلق عبثاً ، وأعلن أرسطو ، أن ما نرى في العالم ليس ضرباً من العبث لا يقصد إلى غاية معلومة ، بل لا بد أن يكون هناك غاية ، وكل يسير إلى غايته ويعرف السبيل إليها . وحركات العالم ليست

(١) تاريخ الفلسفة اليونانية للأستاذ يوسف كرم ص ٥٦

حركات آلية مجردة عن القصد ، إنما كل حركاته - حتى الآلية منها - موجه إلى غاية .  
*The Great Chain of Being*

وضبطاً للفكرة ، مضى تلاميذ المدرسة يلتمسون غاية يرد إليها كل نوع من الكائنات . واقتضاهم هذا أن يضعوا ترتيباً عرف بسلسلة مراتب الوجود أو سلم العالم فالعالم متدرج في الرقي ، بعضه أرقى من بعض في الوجود وفي القيمة .

البذور الأولى للوجود تبدأ بالحياة المعدنية ، وهي أحط درجات الوجود ، وما يوجد فيها بشكل ساذج أو دنيء ، يوجد على درجة أرقى في الحياة النباتية ثم الحيوانية ، وتنتهي السلسلة بالإنسان وهو أرقى الموجودات ، بما أنه حوى أنقى عنصر من هذه جميعاً .

قالوا : « وكل نوع من هذه الدرجات موضوع للدرجة التي تليه ، وله حق الاستيلاء على ما دونه وإلا كان وجود ما دونه عبثاً » . قال سقراط<sup>(١)</sup> : « إن الخير هو النافع » ويقصد بالنافع أن يؤدي الغاية التي خلق من أجلها ، وإذا فكل الكائنات مسخرة لهذا الإنسان إذ هو أعلاها وأسمها ، وإذا - فالاعتداء على الحيوان خير ، لأن ذلك هو غاية وجوده ، والمثل الأعلى له أن ينتفع به الإنسان . وكان أفلاطون يمجّد الإنسان ويقول عنه في طيماوس : « ألسنا<sup>(٢)</sup> نبات السماء لا نبات الأرض ؟ » وأرسطو يقرر « أن لكل موجود وظيفة يؤديها ، وكال الموجود أو خيره ، يكون في تمام وظيفته<sup>(٣)</sup> . »

وقد أخضع أصحاب المذهب ، كل الأمور لهذا التفسير الإنساني ، وقوموها بمقياس

(١) L. Robin-La Morale Antigue P.27-32 ed. 1938

(٢) الأخلاق لأرسطو - تعريب لطفى باشا السيد عن ستهيلير . ص ٦٤

(٣) L. Robin-La Morale Antigue - (Aristote-) P. 45-50

المصلحة البشرية ، فكل الكائنات موضوعة للإنسان ( نبات السماء ) ، وكل ما في الكون من بحار وأنهار ونجوم ونبات وحيوان ، قصد به نفع البشر — حتى الزلازل وثوران البراكين والآفات والعاهات ، يقصد بها نفعهم أيضاً ، إذ فيها إعلان لهم بسخط الآلهة ورددع لهم عن المعاصي .

ويظهر أن أرسطو قد لمح ما في هذا من إسراف فتحفظ وقال : « يجب ألا نفهم من هذا أن كل موجود إنما يتحرك لخدمة الإنسان » . ولكنه يقول بعد هذا مباشرة : « كل <sup>(١)</sup> الأشياء التي هي أحط من الإنسان في سلم الرقي ، تتجه نحوه ، وغايتها هو الإنسان بحكم أنه أعلى منها في سلم الرقي » .

وقد لقي القائلون بذلك ، خصومة حادة عنيفة أثارها (الأباقرة<sup>(٢)</sup>) ، فقد أنكروا العلة الغائية إنكاراً صريحاً ، ورفضوا القول بأن يداً إلهية خلقت هذا الكون لنا . وسخروا بمن يردون الظواهر الكونية إلى حكمة معروفة من نفع البشر أو سواهم . فلم يخلق المطر والخصب والصحة جزاءً لطاعة الناس ، وإعلاناً برضى الآلهة ، وليست الصواعق والبراكين والزلازل والآفات إيذاناً بسخطها ورددعاً للبشر . إنما الوجود كله ، خاضع لنظام آلي لا دخل لإرادة خارجية فيه ، والقرايين التي يقدمها الناس للآلهة عبث مزدوج ، لأنها لا تقبلها ولا ترد ثمنها لها ، كما أنها لا تزجج بالغضب منا ، فيذه عواطف بشرية ليس لمثلها مكان في القوة الإلهية الكاملة<sup>(٣)</sup> .

والآلهة لم يخلقوا شيئاً لأجلنا ، لأنهم لم يكونوا ولن يكونوا في حدود دنيانا .

(١) الكون الفساد لأرسطو — تعريب لطفي باشا السيد عن ستمبر . ص ٢٣٤

(٢) Zeller — Outlines of the History of Greek Philosophy — Baily —  
The Greek Atomisme.

(٣) Lucretius — The Nature of things (De Rerum Natura) Book II (٣)  
Para. 167 — 183



وليس ما دون الإنسان مسخراً لخدمته ، فالإنسان أكثر الكائنات أعباء ، ولعله انفرادونها بالمتاعب والشقاء ، فالعالم لم يخلق للإنسان ، والكائنات لم تسخر له ، وإنما لكل موجود حقه الذاتي في الوجود.

وقصيدة لوكريس « طبيعة الأشياء » إنكار ملح لمعرفة حكمة الوجود ، ورفض صريح لها ، وفيها سخرية بغرور الإنسان ورتاء لمتاعبه وشقوته ، واعتراف بحق الوجود الذاتي لكل الكائنات . قال : « هناك<sup>(١)</sup> من يدعون أن يداً إلهية خلقت هذا الكون كله لمصلحة البشر ، ولكن من الحق أن ندعى ذلك وتتصور الأشياء خلقاً إلا لخدمتنا ، فإن لكل موجود حقه الذاتي في الوجود »

٢

في البيئـة الإسلاميـة

القول بحكمة الخلق وردها إلى منفعة البشر :

« وفي البيئة الإسلامية ، راج القول بحكمة الوجود وبخلق العالم لنا واعتنقه المعتزلة ، فردوا كل شيء إلى منفعة الإنسان ، وردوا حكمة الوجود إلى نفع المكلفين من عباد الله .

وقد ظهرت هذه المسألة في البيئة الإسلامية وأجمعت الفرق الدينية المختلفة — من معتزلة وسنيين وغيرهم — على أن الله خلق الخلق لحكمة ، وإن اختلفوا وراء ذلك في أن تكون هناك علة غائية بعثت الله تعالى على العمل ، كما تبعثنا نحن على أن نعمل

Lucretius — The Nature of things ( De Rerum Natura ) (١)

Book 11 Para . 467 — 483

طلباً لتحقيق تلك الغاية التي يريدونها في قولهم : « أول الفكر آخر العمل » ،  
فنفي بعضهم هذه العلة ، وهو نفي لا يلزم منه مطلقاً نفي أن الله يفعل الحكمة ، فالحكمة  
هي مصلحة يراد تحقيقها ، والعلة هي ما يتوقف عليه وجود الشيء ، ويكون خارجاً  
عنه مؤثراً فيه ، وقد راج القول بأن حكمة الخلق هي منفعة الإنسان فالمعتزلة<sup>(١)</sup>  
« أجمعوا على أن الله خلق عباده لعله ، وأنه إنما خلقهم لينفعهم لا يضرهم ، وأن  
ما كان من الخلق غير مكلف فإنما خلقه لينتفع به المكلف من خلقه ، وليكون عبرة  
لمن خلقه ودليلاً ، ولولا ذلك كان لا وجه لخلقهم ، لأن من خلق ما لا ينتفع به  
ولا يزيل بخلقه عنه ضرراً فهو عبث . » .

قيل لهم فلم خلق الحيات والعقارب وما أشبهها من الهوام ؟ قالوا لعلها تحشر يوم  
القيامة فتكون عذاباً على أهل جهنم من الكافرين والفجار من غير أن ينالها من ألم  
جهنم شيء ، كما لا ينال خزنة جهنم .<sup>(٢)</sup> قيل وجهنم ؟ أخلقت لنفع الخلق ؟ قالوا نعم ،  
فقد أخافت كثيرين فصلحت أعمالهم . قيل وإيلام الأطفال ؟ قالوا إنه يؤلمهم عبرة  
للبالغين . وهكذا مضى المعتزلة في التأويل وردوا كل شيء إلى منفعة المكلفين .

والغزالي أيضاً في كتابه « الحكمة في مخلوقات الله » ، يخضع كل ما في الكون لهذا  
التفسير الإنساني ، ويطرده في كل شيء ، قال : « إذا تأملت<sup>(٣)</sup> هذا العالم بفكرك  
وجدته كالبيت المعد فيه جميع ما يحتاج إليه ، فالسما مرفوعة كالسقف والأرض ممدودة  
كالبساط ، والنجوم منصوبة كالمصابيح ، والجواهر مخزونة كالدخائر . وكل شيء  
من ذلك معد مهياً لشأنه . . . . . والإنسان كالمالك للبيت ، الحول لما فيه ، فضروب  
النبات لما ربه ، وأصناف الحيوان مصروفة لمصالحه . » .

(١) مقالات الإسلاميين للأشعري ص ٢٤٧ - ٢٥٢

(٢) مقالات الإسلاميين للأشعري من ص ٢٥٤

(٣) انظر مقدمة كتاب « الحكمة في مخلوقات الله » للغزالي

وقال في المضمون: « وكما<sup>(١)</sup> النبات أن يصير غذاء لما هو أعلى منه بالرتبة ، وهو الحيوان . وكذلك نسبة الحيوانات المذبوحة إلى الإنسان »

« والاعتراض<sup>(٢)</sup> على هذا ، جهل بالأقدار والمراتب ، والعاقل يعلم أن الكامل أبداً يفدى بالناقص ، وأن الناقص يستسخر لأجل الكامل ، وهو عين الحكمة وليس ذلك بظلم » .

وابن رشد الفيلسوف يقطع بأن التناسق المشاهد في الكون ، لا يمكن أن<sup>(٣)</sup> يكون بالاتفاق ، بل ذلك من قاصد قصده ومريد أراحه وهو الله عز وجل ، ويقول في مكان آخر . . . « إن<sup>(٤)</sup> الأشياء التي تفعلها الإرادة لا لمكان شيء من الأشياء ، أعني لمكان غاية من الغايات . هي عبث ومنسوبة إلى الاتفاق » . وابن رشد في هذا يرد الوجود إلى غاية ، ويفهم من قوله بعد ذلك أن الغاية هي منفعة البشر . ذكر في قوله تعالى « ألم نجعل الأرض مهاداً ، والجبال أوتاداً . . . إلى قوله تعالى وجنات أفافاً » . أن<sup>(٥)</sup> هذه الآية إذا تؤمل فيها وجد فيها التنبيه على موافقة أجزاء العالم لوجود الإنسان .

وعلى القول بمنفعة الإنسان ، وترتيب الكائنات ، اعتمد داعي الدعاة في مناظرته لأبي العلاء حول حق الإنسان في الاستيلاء على الحيوان . قال : « فالحيوان<sup>(٦)</sup> يستولى على النبات بالقوة الحساسة التي يرحح بها عليه من حيث كون النبات نامياً فقط وليس بحساس ، فلو لم يكن ذلك كذلك لكان موضوع النبات باطلاً لا معنى له . والقوة

(١) و (٢) المضمون به على غير أهله — للإمام الغزالي ص ١١ - ١٢

(٣) الكشف عن مناهج الأدلة لابن رشد ص ٨٢

(٤) « » » » » » » » ٨٩

(٥) « » » » » » » » ٨٢

(٦) معجم الأدباء لياقوت ص ١٩٠ .

الإنسانية كذلك مستولية على الحيوان استيلاء الحيوان على النبات ، لرجحانها عليها بالمنطق والعقل . فهي مسخرة له بجميعة ، وإلا لكان موضوع الحيوان باطلا لا معنى له » .

رفض القول بالعلة الغائية :

ولكن القول بالعلة الغائية لقي في البيئة الإسلامية خصومة حادة تشبه تلك الخصومة التي لقيها في البيئة اليونانية . أعلن هذه الخصومة ابن حزم في المغرب ، وأبو العلاء في المشرق .

( ولا ينبغي أحدهما أن الله خلق الخلق لحكمة . ولكنه ينبغي أن تكون هناك علة ما ، تبعث الله على العمل ، ونعرفها نحن )

فأما ابن حزم ، فيحتد في خصومته ، ويصطنع السب والتجريح . والجزء الثالث من الفصل ، جدال عنيف مع الفرق المختلفة ، وخصومة منكرة لأصحاب مذهب العلة الغائية ، ورفض صريح لها <sup>(١)</sup> .

ذهب <sup>(٢)</sup> ابن حزم إلى أن هذه العلة من صنع عقولنا ، وهي تلزمننا . ولكن الخالق بخلاف خلقه ، يفعل ما يفعل ، ويخلق ما يخلق ، لا لعلة تبعثه على الفعل ، سوى أنه شاء ذلك . وأكد هذا المعنى فقال : « قلنا <sup>(٣)</sup> في غير موضع ، إن الخلق لما كانوا لا يقع منهم فعل إلا لعلة ، ووجب بالبراهين الضرورية أن البارئ تعالى بخلاف جميع خلقه من جميع الجهات ، وجب أن يكون فعله لا لعلة بخلاف أفعال جميع الخلق » .

وقد اعترف « ابن حزم » بعد هذا بحق الحيوان في الحياة ، ونبه إلى خطأ تورط فيه في ترتيب الكائنات ، فنحن نأخذ الأمر على ظاهره ، ونرى أن كل درجة من

(١) الجزء الثالث من كتاب الفصل في الملل والنحل لابن حزم

(٢) الفصل في الملل والنحل لابن حزم ج ١ ص ٧١

(٣) « » « » « » « » ج ١ ص ٧٠

الكائنات تمتاز على ما دونها في كل شيء وهذا أخذ بظواهر الأمور . والحق « أن كل واقعين تحت جنس ، فإن ذلك الجنس يعطيها اسمه عطاء مستويا ، فلما كان جنس الحى يجمعنا مع سائر الحيوان ، استويتنا معها كلها استواء لا تفاضل فيه ، فيما اقتضاه اسم الحياة ، ونحن نعلم بالمشاهدة أن الحيوان يألم بالضرب والنخس ، ويحدث لهما من الصوت والقلق ما يحقق ألمه ، كما نفعل نحن ولا فرق ، فنحن نستوى معه في الحياة وما يتبعها استواء لا تفاضل فيه ، وإنما نفضله فيما يتصل بالنطق ، من علم وتكليف ورسالة . »

### أبو العلاء والعلّة الغائية

وأما أبو العلاء فيعرض الرأى على طريقته — تأملات شعرية فيها إنكار للعلّة الغائية ، وحزن لمتاعب الإنسان وسخرية مرّة بغروره ومنطقه ، ورفض لمقاييسه في تقويم الأشياء .

(هو يؤمن بأن الله تعالى خالقنا وخالق كل شيء ، وهو وحده الملك القوى القادر ، ونحن عباده العجزة الضعفاء ، ويؤمن أن الله خلقنا لحكمة ، ولكن ما العلة الغائية لذلك ؟ وما حكمة الوجود ؟ فلنرقبه وهو يمضى في تأملاته يلتمس الجواب .

منظر الانسان :

نسمعه أولاً يردد منطق الإنسان فيقول :

لو سُلط البرام على الآرام ، والعلس على ذوات الطلس ، لاستراحت الرذية من

الأذية ( الفصول والغايات ص ١٥٢ )

و يصور إنكارنا حق الحياة على ما لا ينفعنا فيقول في الفصول والغايات :  
لو كان لى وقير فيه الحبشة الرعيان ، أعبط كل يوم ما اخترت من الفرار ، فجاء  
خرس فى الليل الدامس يكنى أبا جعدة ، وراءه عيال لا عهد لهم بالقوت منذ أيام ،  
فاختلس فريراً أعجب ، لساءنى ذلك ، وتعدوت بالملامة على ولاية الزراب . (٥٦)  
لا يذنب رب الأخطار عند نفسه إذا اعتبط مائة فرار ، ويرى الذئب باعتباط  
الواحد مذنباً . (١٠)

ذلك منطوق الإنسان ، ولم لا ؟ أليس الكون وما فيه مسخراً له موضوعاً لأجله ؟

#### متاعب الآدميين :

ولكن أبا العلاء يمضى فى تأملاته ، فإذا هذا المنطق الإنسانى لا يستقيم على  
التحقيق ، لاحظ أبو العلاء أن الله قد ابتلى البشر بصنوف من المتاعب عجز عن  
تأويلها لمنفعتهم ، فكيف يستقيم هذا مع القول بأن الله لم يخلق الخلق إلا لينفعهم ؟  
فى كل أرض صروف غير هائلة يلعبن بالناس أفراداً وأزواجاً ١٥٥/١  
مهلاً ! أمن وبأه فررت وهل ترى فى الأرض إلا منزلاً موبوءاً ؟ ٦٢/١  
وقال فى الفصول والغايات :

والدهر يلعب بنا حالاً بعد حال (٢٩١)

وكل تطعم الكلب سنام الذعلب ، وتجب إلى الغوى المترب ، ذات الحسن  
العرب ، والجذب يحشر إلى الأمصار أرباب الإصار ، ويوكل أهل الصرم  
الحشرات . (٣٦٣/١١٤)

ومضى أبو العلاء فى تأملاته فلاحظ أن الله قد سلط علينا الهوام ، وهياً للوحوش  
قدرة على اقتراسنا واقتراس ما ينفعنا من ماشية ودواب ، فكيف يستقيم هذا مع القول  
بأن الحيوان موضوع لأجلنا مسخراً فى منفعتنا ؟

بيناً امرؤ يتوقى الذئب عن عرض أناه ليث على العلات يفترس لز ١٣/٢  
ولو لم يقدر خالق الميث فرسه لمطعمه ، لم يعطه الناب والظفرا ٣٥٢/١  
وقال في الفصول والغايات :

شبع السرحان من الطليح ، والله رزقه لحم الطلاح (١٨٩)

(البرغوث يمتص دماءنا) والله أذن له بذلك الغذاء (٥٤)

سقط فارس أسد ، على فارس أساد ، دارع لبد على دارع زرد ، والله مسلط  
جنوده على من شاء . (١٩٨)

يغدو الحاطب نشيطا وفي يده الخلب ، وعلى عاتقه المسد ، فيكون أكيل أسامة  
مع الشروق . (٤٠٧)

أنت ربنا كافي العافلين . بك أقرت شنعاء شنيعة (الحية) ، شربت  
الذيفان جرجا ، ثم رفعت رأسها إلى واحد بانسة تغتزل العميت ، فأعجلته عن دعاء  
الصحب . . . ويجه البأس ! لقد عثر منها بعثار فما تماسك في أيدي الرخصة ،  
فكانت الكرامة له دفنه مع الرواح . (٤٧٣)

رب فار من إبرة ذات الفقار (العقرب) ، أتيح له ناب الصل (٣٦٥)  
أوحى الله إلى الأسد أن كل فلاناً ، فظلت النوائح بحآ من النواح عليه ، في  
أيديهن خذم النعال . (٤٣٧)

٣ لم يخلق الكورم وما فيه لنا ، ولكل طائفة منه في الحياة

ليس صحيحاً إذن أن كل ما في الكون خلق من أجلنا وسخر لنا ، وإنما  
لكل كائن حقه الذاتي في الوجود . خلق الله الكائنات وهياً لها سبيل الحياة ،  
ورعايته تعالى تشمل الحيوان كما تشمل الإنسان . . .

قال في سقط الزند :

دع الطير فوضى إنما هي كلها طوالب رزق لا تجيء بمفجع ١٠١/

وفي اللزوميات :

والرزق يهتف يا إنس اعملوا وكلوا يا أيها الظبي ردّ ، يا طائر التقط ٧١/٢

ولو لم يقدر خالق الليث فرسه لمطعمه ، لم يعطه الناب والظفرا ٣٥٢/١

ولو لم يُرد جورّ البزاة على القطا مكوّنها ، ما صاغها بمناسر ٣٧٧/١

وفي الفصول والغايات :

عَشِيَتْ رَحْمَةُ اللَّهِ كُلَّ الْحَيْوَانِ ، وَتَكْفَلُ بِالرِّزْقِ لِكُلِّ الْمَتَغَذِّيَاتِ (١٧٥)

ليس التعشير ( صوت الغراب ) بنعى ولا تبشير ، وإنما هو لغة طير تسأل الله المير ، وهو رازق كل الحيوان . (٥٤)

إن الوحشية أكلت القسور في رَأْدِ النَّهَارِ ، وَأَكَلَهَا الْقَسُورُ فِي الْأَصِيلِ ، وَاللَّهُ بِمَا كَانَ مِنْهَا عَلِيمٌ خَيْرٌ . (٢٢٧)

طلب الأذى الدفء فلقيه ذو نافض من الآساد ، والله جعل رزق الضيفم من الحيوان . (٢٤٢)

أجل ، للسكائنات التي دوننا حقها الذاتي في الحياة ، ولكننا ننكره عليها ، لأننا نقيس الأمور بمنفعتنا البشرية الخاصة ، ونرد كل ما في الكون إلى مصلحتنا . ومن يدري ؟ لعل من هذه الوحوش والحشرات من يخدعه الوهم والغرور مثلنا ، فيظن أننا نستحق الحياة ، أو أننا لم نخلق إلا لأجله .



وفي الفارسية القديمة قصة رمزية لا تخلو من عبرة وفكاهة . . زعموا أن رجلاً أشرف على الكون فلأه الزهو ، وشاع في نفسه الغرور ، وصاح قائلاً : « هذه الشمس تشرق من أجلي ، وهذا النبات ينبثق من التربة ليغذي ، وهذه الدواب التي ترعى فوق الروابي وتملأ الوديان مسخرة لي ، كل ما في الكون قد خلق من أجلي ، ألا ما أعظم مكانتي عند الخالق ! » . وكانت بعوضة تسمع هذا الكلام فلم يعجبها . وقفت على أذنه تمتص دمه وتروى به ظمأها وهي تقول في سخرية : « قد يكون زعمك صحيحاً ، ولكن لا تشك في أني أعظم منك مكانة وأرفع رتبة لدى الخالق — فهو إن كان قد خلق العالم لأجلك ، فقد خلقك أيها الإنسان العظيم لأجلي ! » .

واذكر هنا قصة البيت والمالك عند الغزالي .

ثم اذكر قول أبي العلاء في البرغوث : والله قد أذن له بذلك الغذاء (٥٤)

وقوله : « أوحى الله إلى الأسد أن كل فلاناً ! فضلت النوايح بحاً من النوايح عليه في أيديهن خِدمُ النعال

الكوره لم يخلوه لنا ، وظواهره لا تتأثر بنا

هنالك يرفض أبو العلاء أن يعترف بالعالمة الغائبة ، ويرفض أن يحدد حكمة الخلق ، ويشفق على الإنسان الذي يزعم الزاعمون أن الله خلق كل شيء لمنفعته ، وأن الكون قد سخر لأجله ، وقد مضى يسخر بمن يلتمسون علة إنسانية يردون إليها أنواع الكائنات وظواهر الكون .

لقد سلطت علينا الآفات والوحوش والأمراض والهوام ، ولو شاء الله لحمانا منها وحمى ضعاف الحيوان منا ، ولكن الله يسلم بعض خلقه على بعض لحكمة نجهلها ، ولعلها الحد من كبرياء الخلوقات ، وإفهامها — لو تفهم ، أن العالم لم يخلق لنوع

بعينه من الكائنات ، وإنما خلق كل موجود ، وله حقه الذاتى فى الوجود ، وهىئت له أسباب الحياة ولو على حساب كائن آخر

(وظواهر الكون لا تتأثر بنا — إنما الأمور مردودة إلى مشيئة الله)

قال فى اللزوميات :

لم تجدوا لقبيح من فعالكم ولم يجئكم لحسن التوبة المطرُ ٣١٩/١

قضى الله فى وقت مضى أن عامكم يقل حياه أو يزيد به السحم

فقولكم : رب اسقنا ، غير ممطر ولكن بهذادانت العرب والعجم ٢٥٢/٢

وفى الفصول والغايات :

إن أمر الله جليل ، لا ينقصه غدرُ الغادرين ، ولا تزيد قدره صلاةُ المصلين ، ولكن الصيام والصلاة ينفعان من فعلهما من الناسكين . (٤٣٨)

\*\*\*

أبو العلاء يرفض مقياسنا وبراغ عن من الجبراه فى الحياة :

لم يكن غريباً بعد ذلك أن يرفض أبو العلاء مقياسنا الإنسانى فى ترتيب الكائنات ، ويعجب لنا : نزع الوحش ونسطو على الطير والماشية ، فلا لوم ولا تريب ، ويخطف ذئب جائع دجاجة عجماء أو حملا هزيلا ، يهدى به ثورة جوعه ، أو يطعم به عيالا له جياعاً لا عهد لهم بالقوت منذ أيام ، فنثور وندعو بالويل والثبور ، وهو ما اختار أن يجوع ، وما خلق طبيعته الآكلة للحوم . قال فى اللزوميات :

لو حاورتك الضأنُ قال حصيفها الذئب يظلم ، وابنُ آدم أظلمُ

أطردتَ عنا فارساً ذا رجلة ساقته حاجته وليلٌ مظلمُ

ويزيده عذراً لديننا أنه سدران ، ليس بعالم ما تعلم  
تهوى سلامتنا ، وترعى سرحننا وحرابُ ضارٍ من حرابِك أسلم ٢٧٤/٢  
جرُّ ياغرابُ وأفسدُ ، لن ترى أحداً إلا مسيئاً وأى الناس لم يجر ؟  
لو كنتَ حارسَ أثمارٍ لهم ينعت وصادفوك لما أخلوك من حجر ٣٨٥/١

وقال في الفصول والغايات :

في قدرة ربك أن تقول المرية : إن المرء غضبني ، خلبني واحتلبني ، جز وبرى  
وشرب لبني ، ونحر سقبي فكربني ، وإلى القاصية ركبني ، فلما رأى الكبر ثلبنى .  
أبعدني عنه وألبني ، وعن حوض الواردة ضربني ، لا يحسن ذلك أدباً ! (٤٢٣)

يا ظالمة ألا تنصفين ؟ لو كان لي وقبر ( قطع ) فيه الخبشة الرعيان ، أعبط كل يوم  
ما اخترت من الفرار ، فجاء خرص ( جائع مقرور ) في الليل الدامس يكنى أبا جعدة ،  
وراءه عيال لاعهد لهم بالقوت منذ أيام ، فاختمس فريراً أعجب ، لساءني ذاك وغدوت  
بالملامة على ولادة الزراب . (٧٥)

لا يذنب ربُّ الأخطار عند نفسه إذا اعتبط مائة فرار ، ويراه ( يرى الذئب )  
باعتباط الواحد مذنباً . (٤١٠)

وربما اشتاق الراعيان إلى الشواء فأكلا ونسبا إليه ( إلى الذئب ) ، خانا  
— يعلم الله — وكذباً . (٤١٠)

هل أمن التعذيب حيوانٌ يعرف بالذئب ، يتبع الركاب فيرجع مخيباً ؟ يغدومع  
السفر الغادين ، لعل الركائب تلقى حوائل وأسقبا ! . الله رزقه في البضيع ، فعلام  
يقتل إذا احترس فريراً منزرباً ؟ (٤١٠)

وقف الصائد في شماله قوس نبع ، فأفزع الوحوش بالطبع ، ورمى ضبعاً في الضبع ،

فركبتُ لذلك الردع ، أنفع ما فعل أم ليس ينفع ؟ ألا تُفرّق بين الحسنات والساج ؟

وقال في اللزوميات :

ولو علمتم بدء الذئب من سغب إذن لسالتم بالشاة للذئب  
ما أغدر الإنس كم حشف ترببهم فغادروه قتيلا بعد تربيب ١٣٤/١

\*\*\*

وقد تصدى أبو العلاء للدفاع عن حق الحيوان في الحياة ، واشتهرت في ذلك  
قصيدته الحائية التي مطلعها .

غدوت مريض العقل والدين فالتفتي لتمسح أبناء الأمور الصحائح ٣٣٢/١

وفي اللزوميات — غير هذه — قصائد أخرى كثيرة ، تنكر قسوتنا على الحيوان  
وتدافع عن حقه في الحياة .

وســـــــــــــــــيان أم برة وحمامة غدت ولداً في مهده ، وغدت بُجا  
فلا تبكرن يوماً بكفك مدية لتهلك فرخاً في موطنه دجا ٢٠٩/١

تسريح كفي برغوئاً ظفرتُ به أبرُّ من درهم أعطيه محتاجا ٢١٢/١

أرى حيوان الأرض يهرب حتفه ويفزعه رعدٌ ويطمعه برق  
فيا طائرُ أمتي ، وياظيُّ لا تحف شداي ، فما بيني وبينكما فرق ١١٦/٢

وما الظبياتُ مني خائفات وردن على الأصائل أو ربضنه  
فلا تأخذُ ودائع ذات ريش فما لك أيها الإنسان بضنه ٣٤٨/٢

وقال في الفصول والغايات :

أيها المسكين ، ما أنت وحمامة قد رضيت من الأوطان بفضن في غينة واد ،  
مشيفة على صغيرين مجزا عن المراد ، فهي تنقل الحبة إلى حبيبي الفؤاد . فامض  
لحاجتك ولا ترمها . (٢٦٠)

واقراء رسالته<sup>(١)</sup> إلى أبي منصور خازن دار العلم ببغداد ، تركيف يتمثل أبو العلاء  
ألم الحيوان ، وكيف يضيف إليه اللوعة والحنين .

مناظرة لداعي الدعاة :

عرض أبو العلاء رأيه في ترتيب الكائنات ، وحق الحيوان في الحياة ، على  
طريقة الشعراء ، وكان هذا جديراً بأن يعقبه من لم وكيف .

ولكن من معاصري أبي العلاء من لم تخدعهم طريقته ، فأروا خلال تأملاته  
الشعرية مذهباً يعتنقه الرجل ، ويخالف به جمهور المساميين . فتصدوا لجداله . من  
هؤلاء داعي الدعاة بمصر ، أبو نصر بن أبي عمران . وكان لبقاً ذكياً عنيد الخصومة .  
رأى في الأمر شيئاً أكثر من خطرات شاعريهيم في كل واد ، وأيقن أن أبا العلاء  
يؤمن بما يقول ، ويعتبقه مذهباً له في حياته العملية ، فأحب أن يناقشه ويحججه ،  
لكن كيف يجره إلى المناظرة ، وهو المعتزل الزاهد الذي اختار طريقة الشعراء في  
عرض تأملاته وآرائه ؟ .

الأمر يحتاج إلى الحيلة البارعة .

وقد قال أبو العلاء :

غدوت مريض العقل والدين فالقني لتسمع أبناء الأمور الصحاح لز ٢٢٢/١

(١) رسائل أبي العلاء ( مرجليوت ) الرسالة التاسعة عشرة ص ٥٢

فليتناقض أبو نصر، وليذهب إلى طبيب العقل والدين يرجو كشف المرض ! —  
وقد كان .

ودارت بينهما رسائل نجح فيها داعى الدعاة فى كشف الرجل وإظهار أن وراء  
تأملاته الشعرية شيئاً أكثر وأخطر من خطرات شاعر يهيم فى كل واد ويقول  
ما لا يعنى . وفطن أبو العلاء لمقصد الرجل فراوغ وداور ، ولكنه مع ذلك بقى  
على موقفه فى الدفاع عن حق الحيوان فى الحياة ، وإنكار قسوتنا عليه ورفض  
مقاييسنا الإنسانية .

سأله داعى الدعاة<sup>(١)</sup> « عن العلة فى تحريمه على نفسه اللحوم والألبان — سؤال  
من يعرف بكونها مخلوقة للأشخاص البشرية . . . فإن القوة الإنسانية مستولية على  
الحيوان استيلاء الحيوان على النبات ، لرجحانها عليها بالنطق والعقل فهى مسخرة له  
بجميعها . . . . . ولو لم يكن ذلك كذلك لكان موضوع الحيوان باطلا . »  
فأجاب أبو العلاء : « إن الحيوان كله حساس يقع به الألم — وحاله فى ذلك يعلم . . .  
وإن العرب لتضرب المثل بما يلحق الوحشية من الوجد إذا فقدت الفصيل ، وإن  
السماك ليخرج من الماء كارها ، وإن النحل لتحارب الشائر عن العسل بما تقدر »  
قال داعى الدعاة : « ولكن الله خالقها رؤوف رحيم وما أنت بأرأف بها منه . »  
فضى أبو العلاء يسخر بمنطقنا ويقول : « لورأف بنى آدم ، لوجب أن يرأف بغيرهم  
من أصناف الحيوان الذى يجد الألم بأذى شئ ، ولم يخص الإنسان بذلك وهم يجنون  
الكبائر ويقدمون على إتيان الذنوب ؟ وقد علم أن الوحش الزائفة يدنو إليها الفارس  
فيطعن العير والأتان وربما كانوا جماعة ، فصادوا الأتنة والأعيار ، وهن ما أسدين أذاة  
— فلائى حال استوجب الرأفة من يفعل بها ذلك ، وهى لم تشرب من المآثم بذنوب

(١) الرسالة الأولى من داعى الدعاة إلى أبى العلاء

ولم تحس ما يكتب من الذنوب . ثم أضاف : « وما الطير<sup>(١)</sup> الراضية بلقط الحبة ،  
الراجعة بها إلى الأجرة ، فسلط عليها بازى أو صقر . . . ؟ وإن القطة لتدع  
فراخها ظاءً ، وتبتكر لترد ماء ، تحمله إليها في القرية ، فيصادفها دون المدهن  
(المستنقع) أجدل ، فينال الظفر بقوت ، ويهلك أفرأخها أواما . ؟ ألحقت الرأفة  
بازياً أو كدرية ، فأخذت غصباً أو درية ؟ » .

قيل له ولكن الله سخر الحيوان للإنسان على ما تعرف من ترتيب المخلوقات ،  
فأجاب ساخراً منكرأ : « فلم يسلط الأسد على افتراس إنسية ليست بالفسدة ولا  
القسية ؟ ولم مات بلدغ الحيات جماعة مشهورة ، ما هي بالزلل مهورة ؟ »  
وقد بقى أبو العلاء على مذهبه ، وصرح في رسالته الرابعة إلى داعى الدعاة بأنه  
« قد رضى أن يلقى الله جلت قدرته ، وهو لا يطالب إلا بما فعل من اجتناب اللحم ،  
فإن وصل إلى هذه الرتبة فقد سعد » .

\*\*\*

وتصدى أبى العلاء للدفاع عن حق الحيوان فى الحياة ، وامتناعه عن أكل اللحم ،  
مصدرهما ما رأيت من رفض الاعتراف بسيطرة الإنسان على الخليقة ، والتسليم بأن  
الكون مخلوق لنا ، وكل ما فيه مسخر لمنفعتنا . ولكن الكثيرين يقفون عند  
ظواهر الأشياء فيردون ذلك إلى مجرد « التأثر<sup>(٢)</sup> بالفلسفة الهندية » أو الحكماء<sup>(٣)</sup>  
المتقدمين .

وآخرون يردون هذا الدفاع إلى مجرد الرأفة بالحيوان . ولذلك لم يفهموا فيم كان

(١) هذه القصة منظومة فى اللزوميات أيضاً ج ٢ ص ٢٤٨

(٢) دائرة المعارف الإسلامية مادة (أبو العلاء)

(٣) وفيات الأعيان لابن خلسكان ج ١ ص ٤٢

امتناعه عن أكل لحم ذبحه غيره؟ فهم يسألون في عجب: «قد<sup>(١)</sup> كان يمكنه ألا يذبح الحيوان رحمة، وأما ما قد ذبحه غيره، فأى رحمة بقيت؟»

وزعم البعض «أنه<sup>(٢)</sup> كان مدفوعاً في ذلك إلى حد ما بدافع الاقتصاد»، ولا ندري كيف يضطره الفقر إلى المذهب النباتي، وإن أقفر أعرابي، ليجد بلغته من اللبن والطيروما يخرج من الماء؟ وقد عرضت عليه الثروة كما رأيت عرض الجد عند رحيله عن بغداد، وعرضت عليه في الفترة الأخيرة من حياته عن طريق داعي الدعاة. (عندنا أن تصديه للدفاع عن الحيوان. مصدره الاعتراف بحق الحيوان في الحياة، ورفض منطقتنا الإنساني، في اعتبار الكون وما فيه مخلوقاً لأجلنا، مستخراً لنا).

الكوره لا يكثر بنا :

هكذا رفض أبو العلاء القول بأن حكمة الخلق هي منفعة البشر، ومضى يسخر بفرورنا نحن الذين نزعم أن العالم خلق لمنفعتنا، وأن الظواهر الكونية تتأثر بنا، وإنما الأمر موكل إلى مشيئة الله، والكون لا يعنيه من شأننا قليل ولا كثير.

قال في اللزوميات :

تورعوا يا بني حواء عن كذب فما لكم عند رب صاغم خطر ٣١٩/١

وهاتف على الفراقد والثريا شخصاً في مضاجعها درسنه  
وما خلقت حضار ولا سهيل بأبشار يمانية يدسنه ٣٥٣/٢

وقال<sup>(٣)</sup> :

وما درى يوم أحد بالذين ثووا فيه، ولا يوم بدر أنهم نصروا

(١) معجم الأدباء لياقوت ج ١ ص ١٧٠

(٢) مجلة الجمعية الأسيوية الملكية سنة ١٩٠٢ ص ٣١٩، ٣٢٠

(٣) «أبو العلاء وما ليه للميني» — انظر البيت رقم ٢٩ من قائم شعر أبي العلاء



وفي الفصول والغايات :

هل مازن وهوازن القبيلتان ، في مُلك الله ، إلا كمازن النملة ، والهوازن من الطير النافرة؟ وكذلك كلب بن ربيعة ، وكلاب بن وبرة وإنماهما كلب مفرد ، وكلاب مستنبحة . وقضاعة بن مالك كالدابة الخارجة من خضارة ، وقريش كذلك . (٤)

يا من نام على السنام ، إن النجم لا يُيهاد من طول السهاد ، إن عرتك نافض فإن السهاك لا يشعر بحمّاك ! (١٦٦)

لم نخلقه عبثاً ، ولكننا نجعل العبد :

هل خلقنا عبثاً ؟

كاد أبو العلاء يقول ذلك ، لولا إيمانه بأن الله حكيم غير عاثر .

لولا بدائعُ دلت أن خالقنا أدرى وأحكم ، قلنا خلقنا لم لز ٢٦٤/٢

وخلقك من ربنا حكمة لقد جل عن لعب أو عبث لز ٢٠٣/٢

وفي الفصول والغايات :

(٨١) ما أمور العالم بمهملّة .

(٦) ما أنشأك ربك لعبث .

والربُّ يستجار ، لا يخرج مما يقضيه الجمدُ ولا الحيوان ، ولا يفعل إلا ما رضى

وشاء ، وغيرُ متعلق به الزيفُ والخطأ ولا شيء من الدنيا (٣٣١)

\*\*\*

هو تعالى حكيم ، سبحانه جل عن عبث وارتباب ، لم يخلقنا عبثاً ، ولكن ما هذه

الحكمة التي خلقنا لأجلها ؟

ذلك أمرٌ يجبهله أبو العلاء .

ومن الخطأ والظلم أن يزعم أحد أن أبا العلاء اطمان إلى هذا التسليم تقليداً أو ارتجالاً ، أو إراحة لذهنه من عناء التعليل ، فقد رأيت ، وسترى ، أنه قد أتعبه البحث التمسها في خلقنا وخلق الكائنات فأضلها .

والتمسها في توزيع الحظوظ والأرزاق ؟ فأعجزه الاهتداء إليها .

والتمسها في الهداية والإضلال فما وجدها .

والتمسها في الموت فلم يعرف ماذا يراد بنا .

لم يكن غريباً بعد ذلك أن يرفض القول بالحكمة ، وأن يرد الأمر كله إلى مشيئة الله ، فهو تعالى يفعل ما يفعل ويخلق ما يخلق ، لا لعلته إلا لأنه أراد ذلك . أما ما عدا هذا فيجعله أبو العلاء . وهو يجبر بهذا الجهل في صراحة مرة أليمة .

أرى جوهرأ حل فيه العرض تبارك خالقه ما الغرض ؟ لز ٦٣/٢

والله خالقنا لأمرٍ شاء أبق العبيد ، وعنده لا يأتق ١٢٤/٢

خلقنا لشيء غير بادٍ ، وإنما نعيش قليلا ، ثم يدركنا الهلك ١٤٢/٢

فأفارق الأرض لم نظفر بمعرفة أى المعانى بأهل الأرض مقصود ٢٥٤/١

المرحلة الثانية

من مراحل الحياة الإنسانية

مرحلة الحياة

أصغينا إلى تأملات أبي العلاء في مسألة العلة الغائية للوجود — وهي المرحلة الأولى من مراحل حياة الإنسان — ورأيناه حائراً متعباً لا يعرف علة واضحة يرد إليها خلق الإنسان .

والآن نرى أبا العلاء يواجه المرحلة الثانية من مراحل الحياة الإنسانية ، وتلك هي مرحلة الحياة .

اهتم أبو العلاء بهذه المرحلة اهتماماً كبيراً ، على أن عنايته اتجهت بوجه خاص إلى ناحيتين من نواحي الحياة :

( الأولى ) متاعب الإنسان ( مشكلة الخير والشر ) .

( الثانية ) أخطاء الإنسان ( مشكلة الجبر والاختيار ) .

واهتمامه بهاتين الناحيتين غير مستغرب ، ( فالناحية الأولى تبحث في متاعب الإنسان ، وأبو العلاء كما رأينا ، موفور الحظ من شقاء الدنيا ومتاعبها . والناحية الثانية تبحث في أخطاء الإنسان ، وأبو العلاء قد ضاق بأخطاء الإنسانية ورثى لها ، وحرص على أن يعرف نصيب الإنسان من المسؤولية عن هذه الأخطاء . )

ونحن نصحبه في هذه الجولة مبتدئين بمشكلة الخير والشر .

## متاعب الانسان

### مشكلة الخير والشر

- ١ - تعذر ضبط مقاييس الخير والشر .
- ٢ - عالمنا الذي نعيش فيه ، أخير هو أم شر ؟
- ٣ - من خلق الشر ؟
- ٤ - علة خلق الشر .

### ١

### الخير والشر

تعذر ضبط مقاييسهما :

قبل أن نعرض لمشكلة الخير والشر ونضعي إلى أبي العلاء وهو يرصد شرور الدنيا ومتاعب الحياة ، نرى واجبا علينا أن نشير إلى تعذر ضبط معنى الخير والشر وتعذر الاتفاق على مقياس منضبط لتقويمهما .

ما الخير وما الشر :

واضح أن الشر هو تقيض الخير كما تقول معاجم اللغة ، وقد حاولوا تعريفها من قديم فأحسوا صعوبة التعريف وجأوا إلى المرونة يستعينون بها على ما في الأمر من مشقة وعسر .

قالوا: <sup>(١)</sup> « إن الخير هو ما يجب أن يكون ، والشر هو ما يجب ألا يكون »

(١) دائرة معارف الأخلاق والديانات - مادة ( الخير والشر )

ويرد عليه أنه لا توجد حدود ثابتة واضحة لكلمة (ما يجب) ، فمن الصعب تحديد ما صدق « ما » في قولهم ( ما يجب وما لا يجب ) .

وقالوا<sup>(١)</sup> : « الخير هو المرغوب ، والشر هو المكروه » . « والخير<sup>(٢)</sup> عندنا هو الذي نرحب به إذا جاء ، ونحاول أن نحتفظ به ونبقيه ، وننظر إليه برضا — والشر في تجار بنا هو كل ما يراد التخلص منه وإبعاده عن نظرنا وسمعنا وذاكرتنا » .

على أن الأمر أدق وأوسع من أن تضبطه قيود التعريف ، ولكل من الخير والشر — على أى حال — مفهوم ذهنى ليس من العسير إدراكه وتمثله ، وهو فى أبسط حالاته ، وبمعناه العام ، ينصرف إلى النفع والضرر ( فالخير هو النافع المفيد ، والشر هو المؤذى الضار )

مقاييس الخير والشر :

ولكن بم يقاس النفع والضرر ؟

كتب<sup>(٣)</sup> الأخلاق تفصل الحديث عن تاريخ الحكم الخلقى وتطوره من عرف وعادة إلى قانون — وضعى أو سماوى — إلى بحث ونظر . وهى كذلك تعرض الخلاف فى ضبط الغاية التى يخضع لها السلوك الإنسانى ويوجه إليها . وتصور النضال بين من أرجعوا<sup>(٤)</sup> هذه المقاييس الخلقية إلى معنى الواجب ، وبين من أرجعوها إلى معنى اللذة .

وليس هذا مكان التعرض لهذه الأبحاث الخلقية ، ولكن الذى يعيننا هنا هو الإشارة إلى الخلاف فى التقويم الاعتبارى للخير والشر . هل تقوم الأمور بالاعتبار الفردى ، أو باعتبار الجماعة على اختلاف صورها ؟ . .

Sidgwick — Methods of Ethics P. 110 ed. London 1901 (١)

Royce — Studies of good & Evil P. 16 (٢)

Zeller — Outlines of the History of Greek Philosophy P. 237 (٣) و (٤)

L. Robin — La Morale Antique P. 45 — 50

لم تهتد الإنسانية حتى اليوم ، إلى مقياس صحيح منضبط ، يتفق عليه الناس في تقويم الخيرية والشرية ، فلا يزال شيء من النضال قائماً بين أنصار الجماعة وأنصار الفردية . وإن كان صوت الفردية قد خفت قليلاً ، وبدا نوع من الاطمئنان إلى الجماعية .

هل يقاس بالفرد أو الجماعة ؟

يرى أنصار الجماعة أن القياس بالمصلحة الفردية قائم على الأثرة والأنانية معطل لمبادئ التضحية والإيثار والفاء ، والواجب أن تهدر المصلحة الفردية في سبيل مصلحة الجماعة ، وأن تكون هذه المصلحة هي التي تلون نواحي الحياة وتوجه السلوك والأخلاق ، فكل وسيلة تبررها مصلحة الجماعة ، خير وفضيلة مهما أبت العرف واثارت الأوضاع .

ويرى أنصار الفردية أن فناء الفرد في الجماعة إلغاء لسير الزمان ، وتعطيل للنهوض الإنساني ، ورجوع إلى عصور السذاجة والفظرة ، حين كان الفرد يفنى في جماعته ، ويرى بعينها ويردد صدى صوتها — وهذا الفناء لم يعد يسير رقي الفردية ، والتطور الاجتماعي والسياسي ، القائم على احترام الفرد وتقدير شخصيته ، والاعتراف بوجوده مستقلاً عن جماعته .

ونلاحظ أن تقويم الخير والشر بأى المقياسين ، عاجز عن ضبط الأمر ، فما أكثر ما تجد شيئاً ينفك ويؤذى سواك ، ومصلحة جماعة ما ، قد تضر جماعة أخرى .

أر يقاس بالمصلحة الإنسانية العامة ؟

ولقد وجد مبشرون ينادون بتقويم الأمور بالمصلحة الإنسانية العامة ، ويدعون إلى مقياس واسع لا ينظر إلى نفع فرد بعينه أو طائفة بذاتها ، وإنما ينظر في أفق أوسع ويهدر الاعتبارات الشخصية والطائفية والقومية جميعاً ، ليقس بمصلحة المجموع .

فما كان نافعاً للإنسانية نغير وما كان مسيئاً إليها فشر « الخير هو أحسن ما يمكن  
لأكبر عدد ممكن » .

ظهر هذا المقياس في أقوال الدعاة وتعاليم المصلحين المبشرين بعهد جديد يلغى  
الفروق بين طوائف البشر وأجناسهم ، ويحطم الحدود والأسوار التي تقيها كل أمة  
حول نفسها . وهذا المقياس يبدو سامياً معقولاً في ظاهره ، ولكننا إذا حققناه وجدنا  
أن ضبطه عسير إذ يصعب أن يتفق الجميع على تحديد ما ينفع المجموع وما يضره .

هذه الحرب الهدامة التي تدمر جهد الإنسانية وتراثها في ماضيها الطويل ، وجدت  
من يقول إن فيها بعض الخير للبشرية ، وهذه المدنية التي أثمرها جهد الإنسانية  
وكد فيها العقل الإنساني قروناً وأجيالاً ، وجدت من ينكرها ويرى فيها القضاء  
على نعيم البساطة والقطرة .

جاء في دائرة المعارف للأخلاق والأديان : « نحن إذ ننظر إلى الخير والشر الخلقين ،  
نجد خلافاً لانهائية له في معتقدات الناس وتقويمهم لما هو خير وما هو شر — ولا يوجد  
اتفاق عالمي بين الناس على تقويم السلوك ، خيراً كان أو شراً . فما هو فضيلة في مكان ما  
يعد رذيلة في مكان آخر . وما يقدره بعض الناس أصدق تقدير ، يتعذر على آخرين  
أن يجدوا ألفاظاً تعبر عن مدى كراهتهم له واحتقارهم إياه . قال بسكال : « ليس هناك  
قط قانون عالمي واحد » . وقال <sup>(١)</sup> : « ما هو حق في هذا السفح من سفح البرنيه ،  
باطل في ذلك السفح الآخر » .

وإخلاف في الخير والشر الطبيعيين *physique* يشبه الإخلاف في الخير والشر  
الخلقيين ، فقد عجز الناس عن الاطمئنان إلى مقياس تقوم به الخيرية والشرية . فما  
أكثر ما تجد مصائب قوم فوائد عند آخرين ؟ .

الموت الذي يراه البعض مأساة الإنسانية الكبرى ، وجد من يراه خيراً للإنسانية ومنفذاً للتضخم في عدد الأفراد ، وإراحة من ذل الشيخوخة وضعفها . والريح التي تهدم بعض الدور الفقيرة ، تسوق السحب فتزول الأمطار .

وهبنا انفتقنا على قدر ما من الأمور نراها خيراً للإنسانية أو شراً لها كالمريض والزلازل والجذب والصحة والخصب ، فقد بقي من يرى أن في مقياسنا خطأ جوهرياً ، فنحن في تقويمنا ، للأشياء نقيسها بمصلحتنا معشر البشر ونسقط من حسابنا ماعدانا من الخلوقات ، مدفوعين في ذلك باعتقادنا أن هذا الكون خلق لأجلنا وأن ما فيه مسخر لمصلحتنا ، فما نفعنا فهو خير ومن حقه أن يعيش ، وما لم ينفعنا فشر وليس من حقه أن يعيش . وإذا عاش بالرغم منا ، مضيئاً نساءً في عجب وإنكار : كيف يخلق الله هذا الشر؟ وتبدأ المشكلة .

#### الطريف في زانية الخير والشر :

هذه المقاييس المتقدمة - على ما فيها من صعوبة وخلاف - اعتبارية محضة ، فهي تستطيع أن تحكم على أمر ما حكماً اعتبارياً إضافياً ، فقول هو خير بالنسبة إلى فلان ، شر بالنسبة إلى فلان - أو هو خير بالإضافة إلى بني الإنسان ، شر بالإضافة إلى الحيوان .

ولكن أي شيء هو في ذاته ؟ أخير هو أم شر ، ما الرأي في العمل الواحد يعمله زيد فيكون منه خيراً وفضيلة ، ويعمله عمرو فيكون شراً وردية ؟ وما القول في الشيء الواحد يكون شراً وخيراً لشخصين في وقت واحد ؟ أو للشخص الواحد في ظروف متغيرة ؟ ذلك أمر حير الناس من قديم وكان<sup>(١)</sup> إحدى المقدمات التي استخرجت منها المدرسة السوفسطائية Sophiste نتائجها الخطرة في إنكار الحقائق ، واتهام المعرفة الإنسانية .

(١) كناناش في الفلسفة وتاريخها لحضرة الأستاذ أمين الحولي



قررت المدرسة أنه لا حق ولا باطل ، ولا خير ولا شر ، بل كل ذلك مما تواطأ الناس عليه ليستقيم به معاشهم . قالوا<sup>(١)</sup> : « مذهب كل قوم بالقياس إليهم ، وباطل بالقياس إلى خصومهم ، وقد يكون طرفا النقيض حقاً بالقياس إلى شخصين ، وليس في نفس الأمر شيء بحق » .

وقد خاصهم سقراط وتلاميذه في إنكارهم للحقائق ، واتهامهم للمعرفة الإنسانية . وقالوا إن العقل عام مشترك بين الناس وهو أداة المعرفة ، وإذن فنحن نستطيع أن نصوغ للخير تعريفاً يقوم على أساس إدراكنا العقلي لصفاته المشتركة ، وبذلك نكون قد ظفرنا بمقياس يقره العقل ، وهو عنصر مشترك عند كل الأشخاص .

استطاع سقراط وتلاميذه ، أن يمحوا لوثمة الشك التي بثها السوفسطائيون في نفوس الناس ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يلغوا الفروق الواضحة في وجهات النظر ، وأن يحددوا أن الشيء الواحد يكون فضيلة وخيراً في مكان ما ، ويكون رذيلة وشرّاً في مكان آخر .

لم يستطيعوا أن يحددوا ذلك ، وظلت المشكلة قائمة ونشأ عنها ما عرف بنظرية

النسبية الخلقية . Relativity of morality .

أصحیح ما قال بسكال<sup>(٢)</sup> : « إن ما هو حق في هذا السفح من البرنيه ، باطل في ذلك السفح الآخر » ؟ أيكون الشر والخير قريبين ؟

هذا ما يشغل الكثيرين من الفلاسفة المحدثين ، في بحثهم في نظرية القيم . هل<sup>(٣)</sup> قيم الأشياء من جمال وقبح ، وخير وشر ، وحق وباطل ، صفات عينية في الأشياء ؟ هل لها وجود مستقل عن عقولنا ، أو هي من وضع العقل ؟ .

(١) محاضرات الأستاذ سلتلانا ج ١ ص ٢٠

(٢) B. Pascal — (Pensées — 204 P. 405) ed. L. Braunschvig .

(٣) انظر ملخص الخصومة في نظرية القيم في كتاب ( فلسفة المحدثين والمعاصرين للأستاذ

وولف ) وقد عربه الدكتور أبو العلا عفيفي .

في البيئتين الإسلامية :

ظهرت المشكلة في البيئتين الإسلامية وأخذت لوناً إسلامياً . فذهب فريق إلى مثل ما ذهبت إليه السفسة اليونانية ، وقالوا إن مذهب كل قوم حق عندهم باطل بالقياس إلى غيرهم ، وليس شيء حقاً في ذاته . وذهب فريق آخر إلى الأحقاق متميزة إطلاقاً ، لا في نفسها ولا تبعاً للاعتقاد ، وقد ووجه هؤلاء وهؤلاء بخصومة منكرة ويقول الفخر الرازي في مناقشتهم<sup>(١)</sup> : « إن الصواب ألا نشغل بالجواب عن هذه الشبه لأن ذلك يحصل غرضهم . » وكان الطريق عنده « أن يعذبوا حتى يعترفوا بالحسيات » على أن النضال ظل حاداً في المدارس الكلامية ، وقام الجدل واشتدت الخصومة في الأمر . ذهب فريق إلى أن ليس في العالم شيء حسن لعينه ولا قبيح لعينه ، بل الحسن والقبح تابعان لأمر الشرع ونهيه ، فما سماه الله حسناً فهو حسن وفاعله محسن وما سماه قبيحاً فقبيح وفاعله مسيء .

وأشهر أدلتهم على ذلك :

أولاً — أن الحسن والقبح لو كانا ذاتيين لم يتخلفا ولم يتوقفا على شروط ، فإن ما بالذات لا يتخلف .

ثانياً — أن الله كان قبل الخلق ولا شيء معه ، فعلى أي شيء كانت صورة الحسن حسنة والقبيح قبيحة ، وليس هنالك عقل أصلاً ، ولا كانت هنالك نفس عاقلة فيقبح عندها القبيح ويحسن الحسن ، فبأي شيء قام تحسين الحسن وتقييح القبيح<sup>(٢)</sup> .  
والتمسوا شواهدهم من الواقع والحس ، وقد فصل ابن حزم رأيهم<sup>(٣)</sup> فهو يسأل .  
« ما مقياس الخير والشر ؟ » ثم يتصدى للإجابة فيلاحظ أن كثيراً من الأعمال اعتبرت

(١) محصل أفكار المتقدمين للفخر الرازي ص ٢٣

(٢) الفصل في الملل والنحل لابن حزم ج ٣ ص ١٠٣

(٣) هذا الرأي مفصل في الجزء الثالث من الفصل

شراً لأن الله نهى عنها ، وأن هناك أشياء تعتبر شراً حيناً وخيراً حيناً آخر . فقتل النفس في الانتحار شر ومعصية - وفي الحرب والجهاد خير وإيمان . وكانت الصلاة إلى بيت المقدس حركة حسنة وإيماناً قبل أن يولى الرسول قبلة يرضاه ، فلما أمر بأن يولى وجهه شطر المسجد الحرام أصبح استقبال بيت المقدس أمر قبيحاً منكرًا - وهذه تلك ، الحركة نفسها . والخمر والخنازير والحجارة المعبودة ، كانت حسنة عند العرب ، ولكن الله تعالى سماها قبايح وأرجاساً وحراماً ونجساً ، فأصبحت شروراً وخبائث . ثم يقرر ابن حزم : « فصح أن العالم ليس في شيء حسن لعينه ، ولا شيء قبيح لعينه ، لكن ما سماه الله حسناً فهو حسن وفاعله محسن وما سماه قبيحاً فقبيح ، وفاعله مسيء . »

والغزالي في رده على من قال بتعدد الآلهة ، أحدهما خالق الخير ، والثاني خالق الخير ، قرر : « (١) أن الشر ليس شراً لذاته ، بل هو من حيث ذاته مساو للخير ومماثل له - والقدرة على الشيء قدرة على مثله ، فإن إحراق بدن المسلم بالنار شر وإحراق بدن الكافر خير ودفع شر . والشخص واحد ، إذا تكلم بكلمة الإسلام ، انقلب الإحراق في حقه شراً . »

ولكن المعتزلة رفضوا هذا المذهب وذهبوا إلى أن الحسن والقبح في الأشياء والأعمال عقليان ، رداً على من قالوا إنهما شرعيان ، فجميع الأعمال الحسنة فيها نفسها صفة جعلتها حسنة وجعلتنا نحكم عليها بالحسن إذا رأيناها ، والشرع بأمره بأشياء ومنهيه عن أشياء إنما يتبع في ذلك ما في الأشياء من حسن وقبح ، وكذلك العقل يستحسن أشياء لإدراكه ما في الأشياء ذاتها من حسن ، ويستقبح أشياء لإدراكه ما فيها ذاتها من قبح ، فالشرع في تحسينه وتقبيلحه مخبر عنها لا مثبت لها ، والعقل مدرك لها لا منشىء

(١) الاقتصاد في الاعتقاد للامام الغزالي

وأهم أدلتهم :

أولاً - أن الناس قبل ورود الشرائع ، كانت تتحاكم إلى العقل ، وتتجادل بالعقل ، وليسوا يرجعون في ذلك إلا إلى ما في الأشياء من حسن وقبح عقليين .

ثانياً - لو لم يكن في الأشياء حسن وقبح عقليان ، لأفحمت الرسل حين يقول الناس : لا يجب علينا النظر في معجزاتكم ونبوتكم إلا بالشرع ، ولا يستقر الشرع عندنا إلا بنظرنا في نبوتكم ومعجزاتكم .

\*\*\*

(وتسأل عن رأى أبي العلاء في هذا الصدد فلا تجده يعرض للمسألة عرضاً مباشراً كما فعل الفلاسفة وأهل الكلام . وإنما يعالجها عن طريق الشعراء . فهو حيناً لا ينكر الحقائق كما فعلت السوفسطائية بل يقول رداً عليهم :

وقال أناس ما لأمر حقيقة فهل أثبتوا أن لا شقاء ولا نعيم ؟ لز ٢٨٠/٢

ولكنك تلمح جنوحه إلى الاعتراف بتعذر ضبط القياس في الخير والشر حين

يقول في اللزومات :

غنى زيد يكون لفقير عمرو وأحكام الحوادث لا يقسنه ٢٥١/٢

سقيا الغمام بعض الإنس نفسه كالطرس يهلك إما مسه البلل ١٧٥/٢

وسخط الأطباء بما نالها تولد منه رضى الحابل ٣٤٥/٢

ويقول في الفصول والغايات :

تصير برة العادة عقداً ، وبرة الناقة في عنقها قدا . (١٨)

رُب صَعِقٍ فِي غَمَامٍ مَبْعُوقٍ ، يَطْرُدُ الْجَدْبَ بِخُصْبِ أَدَبٍ ، وَغَرِيْقٍ ، فِي غَمْرِ

يَنْقَعُ سَالِكَ الطَّرِيقِ . (٢٢)

## علمنا الذي نعيش فيه

أخير هو أم شر؟

لم يكن أبو العلاء أول رائد لهذا الأفق الإنساني الواسع ، وأول متأمل في تلك المسائل الإنسانية العامة . فالناس من قديم يواجهون متاعب الحياة ، ويختلف رأيهم فيها باختلاف حظهم من التفاؤل والتشاؤم . فمن الناس من يستقبلون الحياة ضاحكين متفائلين ، يرون كل شيء فيها حسناً طيباً . ومنهم من يرى الشر في كل مكان ويمس الحياة الإنسانية ملامئ بالمتاعب والآلام . وعلم النفس يحل هذه المشكلة ويرد الخلاف فيها إلى اختلاف الأمزجة وتفاوت حظوظ الناس من المتاعب والمسرات . ولكن المسألة تعقدت حين عرضت للبحث العقلي في المدارس الفلسفية والكلامية ، وقام النضال بين المتفائلين والمتشاؤمين .

### مذهب التفاؤل :

كانت مدرسة سقراط متفائلة ترى أن العالم — على ما فيه من نقص — هو خير العوالم الممكنة . وحجتها في ذلك أن الله بنى العالم من المادة التي وجدها وقد خلقه كاملاً بقدر ما تسمح به هذه المادة ( طيماوس — أفلاطون ) .

ومدرسة الاسكندرية<sup>(١)</sup> ، كانت تذهب إلى التفاؤل ، وترى أن الشر في علمنا قليل جزئي . وتقرر أنه لا يقع شر جزئي في العالم ، لا تقتضى الحكمة أن يوجد بسببه خير كلي .

(١) محاضرات سانتيلانا ج ١ ص ١١١

وقد اعتنق<sup>(١)</sup> « لينتس 1716 : Leibnitz 1646 » مذهب القائلين : « إن علمنا خير العوالم الممكنة » وفصله ودافع عنه . فهو يقرر « أن الحكمة السامية لا يمكنها إلا اختيار أصلح الأشياء » . ولكي يواجه بمذهبه شرور العالم ، كان يفرق بين الشر النظري والشر الطبيعي . ثم يعمد أحياناً إلى نفي الشر النظري فيضيف إليه وجوداً سلبياً محضاً ، مؤكداً « أنه شر بالقياس إلى الإنسان فحسب ، أما الأضرار الطبيعية فقد سمح الله بوجودها لأنه أدرك من قبل بحكمته السامية أن علمنا — مع ما فيه من شر — خير من أى عالم ممكن ، فليس في الإمكان أبدع مما كان » .

وقد ووجه المتفائلون بشرور العالم ، فراحوا يلتمسون علة طيبة لها ، قال بعضهم : « إن الشر يزيد قيمة الخير وبضدها تتميز الأشياء » . وقال آخرون<sup>(٢)</sup> : « إن الشر الطبيعي physique هو الذي أبرز جهود العقل الإنساني ، وجعل تاريخ البشرية رائعاً ، والعقبات هي أم الاختراع ، بينا الحياة السهلة ذات المتاعب القليلة ، تجعل الإنسان حامل الجسم والعقل ، تافه الشخصية » .

\*\*\*

(وراج مذهب التفاؤل في العالم الإسلامي ، ومن القائلين به ابن رشد) الذي ذهب إلى أن «<sup>(٤)</sup> العالم قد بنى بترتيب ونظام لا يمكن أن يوجد أتقن منه ... (صنع الله الذي أتقن كل شيء) » .

وذهبت إليه كذلك المدرسة<sup>(٥)</sup> الصوفية ، فقررت أن ليس في الامكان أبدع مما كان . وقد فصل هذا المذهب الإمام الغزالي .

(١) دائرة المعارف البريطانية مادة لينتس

(٢) و (٣) دائرة معارف الأخلاق والأديان مادة « الخير والشر »

(٤) الكشف عن مناهج الأدلة لابن رشد ص ٨٧

(٥) محاضرات سانتيلا ج ١ ص ١٠٩

وذهبت المعتزلة إلى القول بالأصلح ، فقالت : <sup>(١)</sup> « ليس عند الله تعالى شيء أصح مما أعطاه الناس ، ولا يجوز أن يترك الله تعالى شيئاً يقدر عليه من الصلاح . ولو كان عنده تعالى أصح وأفضل مما فعل ومنعه ، لكان بخيلاً ظالماً » .

وهذه الأقوال — على اختلاف مناهج البحث فيها في المدرسة الصوفية والمدرسة الكلامية — تنتهى إلى أن الشر الموجود في العالم شر جزئى لا بد منه ، وأن العالم — على حاله التى نراها — هو أفضل العوالم الممكنة .

#### مذهب القشائرم :

ولكن أقوال المتفائلين وتأولاتهم ، لقيت خصومة منكرة أثارها المتشائمون ، والتشاؤم قديم ، فالبوذية كانت ترى أن الوجود نفسه شر ، وأن الحياة تعنى الحزن . والمهرب الوحيد من أحزانها هو الفرار من الحياة ، وذلك أمر مستطاع حين نسحب من الدنيا ، ونقهر الرغبة فى الحياة . وكانت البوذية تعترف بالخير ، ولكن بمعنى سلبى فهو عندها : ألا ترغب ، ولا تتمتع .

والتشاؤم الغربى أو الحديث ، يعرضه « شو بنهاور 1788-1860 Schopenhaur » « وكان <sup>(٢)</sup> تلميذاً لفيلسوف شرقى ، فذهبه متأثر — إن لم يكن مستعاراً — من البوذية مع خلاف فى الألفاظ ، فى البوذية « قانون خالق Karma » ولكن عند شو بنهاور نجد الإرادة The Will » .

يرى شو بنهاور أن الإرادة التى خلقت هذا العالم عمياء جهول ، إذ خلقت هذه الدنيا المألمة بالمتاعب والشروع والأحزان . وإذا كان الخلق والحياة ، كما نعرفهما ،

(١) الفصل فى الملل والنحل لابن حزم ج ٣ ص ١٦٤

(٢) دائرة معارف الأخلاق والأديان مادة الخير والشر

من عمل خالق مدرك ، فلا بد أنه شرير آثم ، لم يجد رياضة أفضل من هذه الدنيا التلسة البائسة .

ومثله « جون ستيوارت ميل J.S. Mill » الذي رصد متاعب الإنسانية وأحزانها وأمانها المحطمة وسجلها تسجيلاً مؤثراً<sup>(١)</sup> . « فالطبيعة تنصب الفخاخ للناس ، ولديها المئات من الميئات الخفية الاحتياطية ، وهي تفعل ذلك في قسوة وبلا اكتشاف» و«فولتير<sup>(٢)</sup> ، على طريقته التهكمية الساخرة اللاذعة ، يحشد في قصته « كانديد » أولاناً من الشقاء الإنساني ، ويعرض آلام الإنسانية ومتاعبها ، عرضاً مؤثراً ، فيه سخرية مرة بمن يزعمون أن ليس في الإمكان أبدع مما كان .

وهؤلاء المشائمون ، يرون أن نظرية التفاؤل ، هي سخرية مؤلمة قاسية بمتاعب الإنسانية وآلامها .

\*\*\*

مثل هذا النضال ، عُرف — على صورةٍ ما — في المدارس الإسلامية ، بين المعتزلة أصحاب القول بالأصلح ، وبين خصومهم ، وقد لجأ الأولون إلى التأويل ومضوا يلتصبون غاية طيبة لكل ما يبدو لنا شراً . ولكن خصومهم واجهوم بالشرور التي تملأ العالم ، والمتاعب التي تصيب الإنسانية ، والحن التي تصب عليها ، وأرهقهم<sup>(٣)</sup> بالسؤال عما وراء ذلك من خير ، وسوف ترى هذا النضال في الحديث عن حكمة خلق الشر .

أبو العلاء يرصد شرور العالم :

الآن تقف لنسمع رأى أبي العلاء في عالمنا الذي نعيش فيه ..

J. S. Mill — Essay on Nature (١)

Voltaire — Candide (٢)

(٣) الجزء الثالث من الفصل في الملل والنحل لابن حزم .



واضح أن أبا العلاء كان متشائماً يرى الكون حافلاً بألوان الشر والأذى ، وقد فصلنا في المقالة الثالثة كيف كانت حياته العملية ، ومزاجه العقلي ، وظروف زمانه ومكانه ، تأبى عليه أن يريح نفسه ، فيزعم الشر خيراً ، أو يطمئن إلى أن ليس في الإمكان أبدع مما كان . (بل كان مغرماً في التشاؤم ، دقيق الحس لما في الكون من شر وأذى ، صادق الحزن لما يصيب المخلوقات من ألم وضرر)

وقد سمعنا أبا العلاء في المقالة الثالثة يتحدث عن متاعبه الخاصة ، ويتحدث عن سوء الحياة في زمانه ومكانه . والآن نسمعه يتحدث عن متاعب الحياة الإنسانية . قال في سقط الزند :

يا دهر يا منجز إبعاده      ومخلف المأمول من وعده  
أرى ذوى النضل وأضدادهم      يجمعهم سيالك ، في مده ٥/٢

وقال في اللزوميات :

مهلاً أمن وبأ فررت وهل ترى      في الدهر إلا منزلاً موبوءاً ؟ ٦٢/١  
ما الظافرون بعزها ويسارها      إلا قريبو الحال من خيابها ١٤٣/١  
أرى دنياك خالطها قذاها      وأعيت أن يهذبها مصفى ١٠٨/٢  
وإذا رجعت إلى الحقائق لم يكن      في العالم البشرى إلا بانس ٢٠/٢  
أما إساءتها فقد      كانت ، وحسبناها وعود ٣٠٦/١  
في كل أرض صروف غير هازلة      يلعبن بالناس أفراداً وأزواجاً ٢١٣/١  
ومن لم تبيته الخطوب فإنه      سيصبحه من حادث الدهر صائح ٢٤٤/١  
ضحك الدهر في محياك مكر      ماله غير أن يسوءك فكر ! ٢٤٥/١

وما في الأرض من أحد غني ولكن كلنا فقراء عاله ٢٠٠/٢

تباركت<sup>(١)</sup> يارب العال أنت صغتها فليتك في أرزائمها لم تبارك ! ١٥٨/٢  
وقال في الفصول والغايات :

كل الدنيا مكاره إلا ما شاء الله . (١٥٤)

والدهر يلعب بنا حالاً بعد حال . (٢٩١)

إن المرء السيد ، ربما أذنته النكبات حتى يحسبه اللبيب أحد ضعاف العامة (٤٣٠، ٣١٨)  
صروف الأيام تريك الجدى على التدى ، وذا الأمور يخدم المأمور ، والعربية  
تنصف السبية ، والصقر يسأل الدخاء معونته على الفقر ، والظباء تصاول قروما . (٤٧٢)  
الزمان لا يجوز عنه الضمان ، إنما يضمن ما يعرف ويؤمن . (٤٤٩)

كفاك من حوادث الدهر ، أن ولد الغنى يفتقر ، وأن ابن الفارس يرحل فيحضر ،  
وتدعى الوشائظ صمياً . (٤٣٠)

الله ملك الملوك ، وأنا معترف مقر ، أن شهد الدنيا مقر ، وأن غنيها مفتقر . (٤٧)

إن داء الدنيا عرف قديماً ، والحياة كثيرة الصاب . (٣٢٤)

والدنيا دار حسرات . (١٠٥) ودار شقاء (١٦٠)

ألم تر ناراً بالأمس متأججة ، ومررت بها اليوم هابية كأنها لم تغد ضراماً ؟ . .  
الدنيا كالنمام ، أجدر بالهم فيها أن يكون فرحاً بعدها .

ما أقل العالم وأقلنى فيه ! (١٢٢)

أحسنوا أملاءكم جماعة الملاء ، فسوف ينفد العدد ولو أنكم الرمال ، وتخبو النار ،  
ولو هجم لها على النجوم ، وتخف بكم النوب ولو أنكم الجبال حولها !

والدنيا غير وافية ، ليست الحياة فيها بصافية ، إن الكدر لكأس العيش

مزاج . (٤٣٦)

(ولكل خير بالشر انتساخ (٤٧٠.٢٩٤)  
(ما البقاء إلا طول شقاء، والحياة ظلمة ليس فيها إياة، ومن السعادة أن يموت  
القوم كراماً). (٤٤٣)

٣

من خالق الشر

لم يقف أبو العلاء في تأملاته عند رصد شرور الدنيا، بل مضى متأملاً يبحث  
وراء هذه الظواهر (عن خلق الشر وتعليل خلقه)، ويلقى آراءه على طريقة الشعراء.  
وخلق الشر مشكلة ذات أهمية وخطر، وأهميتها تأتي من اتصالها الوثيق،  
بالإرادة الإلهية ومدى خيريتها وشمولها.

من ضلع الشر؟

مسألة حيرت الناس من قديم، وبدأت فيها حلول تنحدر من أصل واحد هو  
تعظيم الله.

وكان أسبق هذه الحلول ظهوراً، فكرتين:

١ - ظهرت أولاهما عند الفرس القدماء، وكانت تتجه إلى تعظيم الله بتزييه  
عن خلق الشر، وإنما يخلق الشر خالق غيره. وهو مذهب الثنوية الذي راج  
في فارس والهند.

عرف هذا المذهب في عهد مبكر، وكان ديناً شعبياً اعتنقه الفرس من غير أن  
يعنوا بتحليله وتعليله، إنما كان شعوراً ساذجاً بأن للخير والشر مصدرين. فلما  
ظهرت الفلسفة أخذ الفرس يدافعون عن الثنوية ويجادلون بالحجة والبرهان. أحالوا



كلها إلى قوانين الطبيعة وهذه هي فكرة الأباقره . قالوا<sup>(١)</sup> : « إن الآلهة يعيشون بعيداً عن العالم في سلام وأمن وسعادة خالدة ، لا يزعجهم التفكير فينا ، ولا ترهقهم هموم دنيانا ، ولا تتفعل طبيعتهم الإلهية بغضب أو رضا ، لأن هذه العواطف ألوان من الضعف الإنساني ومظاهر للطبيعة البشرية ، وليس يجوز في حقهم أن تزعم أنهم يخلقون خيراً أو شراً ، أو يضيف إليهم عواطف السخط والغضب والرضا ، فنقول إنهم يرضون عنا حيناً فتستقيم أمورنا وتكثر خيراتنا ، ويفضون أحياناً فيثور بهم الحقد والسخط ويصبون على خلقهم ألواناً من الشر والعذاب ، حقداً عليهم وانتقاماً منهم » : « إن الآلهة متمتعة بالحياة الخالدة في سلام تام ، بعيدين عن مشاغل دنيانا ، برآء من الخطر والأحزان ، وليسوا في حاجة أبداً إلى أي شيء منا . لسنا نكسبهم بفضيلتنا ، ولسنا نثير سخطهم بأخطائنا . إنما الخير والشر وأمور الكون كلها خاضعة لنظام آلى ، لا دخل لإرادة خارجية فيه ، ومن الخرافة الزائفة التي أرهقت الإنسانية ، الظن بأن الظواهر الكونية من عمل الآلهة ، أو أن الدنيا محكومة بإرادتهم » .

وقصيدة لوكريس ( طبيعة الأشياء ) تفصل مذهب المدرسة أجمل تفصيل .

في البيئـة الإسلاميـة :

وفي البيئـة الإسلاميـة ، عرفت المذاهب الثلاثة ، ولكها ملونة بالصبغة الإسلاميـة

١ - فأما مذهب أبيقور فيظهر<sup>(٢)</sup> في مذهب الطبيعيين من الأشاعرة ، وجم

غير من الملاحدة الذين أنكروا الباري ووحدة الوجود .

وقال به بعض المعتزلة - وفيهم الجاحظ - حين أنكروا أن يخلق الله الشر

(١) دائرة المعارف الفرنسية مادة أبيقور .

(٢) Zeller—(Outlines of the History of Greek Philos. P. 237—squ)

(٣) محاضرات سانتيلانا ج ١ ص ١٨ وفي عبارته غموض .

وذهبوا إلى أن « الآلام والأمراض من فعل الطبيعة . » وقامت الخصومة بينهم وبين جمهرة المسلمين ، وإليك مثلاً من الجدل الإسلامي في تلك المسألة : « سئلوا<sup>(١)</sup> هل الله قادر على معارضة هذه الطبيعة المعذبة للطفل ، بقوة من عنده تعالى ، أو هو غير قادر ؟ فإن قالوا ، هو غير قادر ، فما في العالم أعجز ممن تغلبه طبيعة هو خلقها وطبعها ووضعها فيمن هي فيه ، وربما غلبها طيب ضعيف من خلقه ، بعقار ضعيف من خلقه . وإن قالوا هو قادر على صرف الطبيعة ، ولكنه لم يفعل ، أقرروا على ربهم بالظلم والعبث ، وبالضرورة ندرى أن من رأى طفلاً في نار أو ماء ، وهو قادر على استنقاذه بلامؤنة ولم يفعل ، فهو ظالم عابث . »

٢ - ومذهب الثنوية ، عرض في ثوب إسلامي على أيدي المعتزلة ، فهي لا تقول بالثنوية ، ولكنها تلتقي معها في القول بأن الله لا يفعل الشر .

أنكر المعتزلة<sup>(٢)</sup> أن يقال إن الله يفعل شراً ، لأنه تعالى لا يريد إلا مصلحة خلقه ، ونزهوا الله تعالى عن أن يضاف إليه شر وظلم ، وفعل هو كفر ومعصية ، وكان منهم من يقول<sup>(٣)</sup> : « إن الله تعالى لم يفعل شراً بوجه من الوجوه ، وإذا قلت إن الله فعل فعلاً هو شر على وجه من الوجوه ، فما أنكرتم أن يكون شراً . » ودليلهم النقلى : « ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك » - « وأنا لا ندرى أشر أريد بمن في الأرض ، أم أراد بهم ربهم رشداً » .

٣ - وفكرة التعميم : قال بها أهل السنة وأصحاب الحديث وأكثر الخوارج . إذ

(١) الفصل في الملل والنحل لابن حزم ج ٣ ص ١٢٠

(٢) الملل والنحل للشهرستاني (على هامش ابن حزم) ج ٢ ص ٥٥٠

(٣) مقالات الإسلاميين للأشعري ج ٢ ص ٥٢٧

يَتَمَتَّعُ عِنْدَهُمْ أَنْ يَقَعَ فِي مَلَكَةِ تَعَالَى مَا لَا يَرِيدُ . وَدَلِيلُهُمُ النُّقْلِيُّ : « مَا أَصَابَكُمْ مِنْ مَصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا . إِنْ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ »

### رَأَى أَبِي الْعَمَاءِ

هَذِهِ هِيَ خِلَاصَةُ الْأَرَاءِ فِي خَلْقِ الشَّرِّ ، فَأَيُّنَ يَقَعُ رَأْيُ أَبِي الْعَمَاءِ مِنْهَا ؟ . كَانَ يَذْهَبُ مَذْهَبَ الْقَائِلِينَ بِشُمُولِ إِرَادَةِ اللَّهِ فَهُوَ تَعَالَى خَالِقُ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ .

مِنْ وَسَخٍ صَاعٍ الْفَتَى رَبُّهُ فَلَا يَقُولَنَّ تَوَسَّخْتُ لِرِزْقِ ١٧٣/١

تَرُومَ تَهْذِيبَ هَذَا الْخَلْقِ مِنْ دَنْسِ وَاللَّهُ مَا شَاءَ لِلْأَقْوَامِ تَهْذِيبًا ١١٠/١

وَاللَّهُ يَقْدِرُ أَنْ يَغْنِيَّ بِرَبِّتِهِ مَنْ غَيْرَ سَقَمٍ وَلَكِنْ جُنْدَهُ الْعَلَلُ ١٨٤/٤

تَبَارَكَتَ يَا رَبَّ الْعَالَمَاتِ أَنْتَ صَغَفْتَهَا فَلَيْتَنِيكَ فِي أَرْزَائِهَا لَمْ تَبَارِكْ ١٥٨/٢  
وَقَالَ فِي الْفُصُولِ وَالغَايَاتِ :

أَنْعَمَ رَبَّنَا كُلَّ حِينٍ ، وَجَاءَ فَعَلَهُ بِالْبَرْحِينَ (الدَّوَامِي) . (١١)

غَفَرَانِكَ رَبَّنَا الْقَدِيمِ ، خَلَقْتَ الْخَيْرَ إِلَى جَنْبِ الضَّرِّ . (٢٢)

خَضَعْتَ قَحْطَانَ لَكَ وَمَعَدَ ، وَجَرَى بِقَدْرِكَ الدَّجَسَ وَالسَّعَدَ . (٢٩)

أَنَا إِلَى رَحْمَتِكَ فَقِيرٌ ، وَمَنْ الْغَنَى عِنْدَكَ ؟ يَنْبَغِي أَنْ يَدْعَى ذَلِكَ مَنْ يَقْدِرُ أَنْ يَنْفَعُ وَيَضُرَّ ، وَلَا يَقْدِرُ عَلَى الْمَنْفَعَةِ وَالضَّرْرِ سِوَاكَ . (٣١)

مَوْقِي الْمَلِكِ مُلْكَهُ ، قَاصِرُ الصَّعْلَوْنِكِ عَلَى عَدَمِهِ ، وَكَاسِي الْجَمِيلِ حَلَّةَ الْجَمَالِ ، هُوَ سَالِبُهَا الْقَبِيحِ ، فَبِيدَ اللَّهُ الْعَطِيَّةَ وَالْحَرْمَانَ . (٣٩)

وَالرِّزْقُ بِيَدِ اللَّهِ مَنْ أَرَادَ حَرَمَ ، وَمَنْ أَرَادَ أَكْرَمَ . (٣٣٢)

وَاللَّهُ خَالِقُ السَّهْدِ وَالرَّقَادِ (٤٩٤) . وَبِإِذْنِ اللَّهِ سَالَتِ الدَّمَاءُ . (٢٧٥)

إِنَّ الزَّعِيمَ بِالشَّقَاءِ وَالنَّعِيمَ ، حَكْمُ الْأَيُّخْدِ سِوَاهِ حَكِيمِ . (٢٩٤)

وربك يولد ويعتم، ويعزم من يشاء ويقم (٣١٣)

فهو خالق النفع والضرر (٣٥٣) وكلُّ بقدر الله كان. (٢٩٦)

وأملى أبو العلاء في رسالته الأولى إلى داعي الدعاة « يقول قائل : ( الله لا يفعل إلا خيراً ) أفهذه القضية كاذبة أم صادقة ؟ فإن قيل إنها صادقة رأينا الشرور غوالب وقد روي أن النبي (صلم) كان إذا أراد السفر قال : « اللهم إنا نعوذ بك من وعشاء السفر ، وكآبة المنقلب ، وسوء المنظر في الأهل والمال والولد » . أفهذه الأشياء التي تعوذ منها خيرات أم شرور ؟ فإن قال قائل هي مخوفة منكورة ، فقد أبطل القضية المتقدمة . وإن قال القضية منعكسة ، فقد لزمه أن يقول : إن الله سبحانه يفعل الخير والشر . فإن أبي ذلك ، رجع إلى ما يقوله المجوس من أن للعالم خالتين ، أحدهما بردان وهو فاعل الخير ، والآخر أهرمز وهو فاعل الشر ، ومعاذ الله أن تقول هذه المقالة » (١)

ثم قال أبو العلاء في مكان آخر من هذه الرسالة : « وللسائل أن يقول : إن كان الخير لا يريد ربنا عزت قدرته سواء ، فالشر لا يخلو من أحد أمرين ، إما أن يكون قد علم به ، وإما أن يكون غير عالم به ، ونعوذ بالله من هذه المقالة .

« فإن كان علماً به فلا يخلو من أحد أمرين : إما أن يكون مريداً له أو غير مريد ، فإن كان مريداً فكأنه الفاعل ، كما أن القائل يقول : قطع الأمير يد السارق ، فالأمير قطعها إلا أنه لم يل ذلك بنفسه . وإن كان غير مريد له ، فقد جاز عليه ما لا يجوز مثله على أمير ، له في الأرض نظراء كثير . لأنه إذا فعل في ولايته شيء لا يرضاه ، نكره أشد النكير » .

وهذا المعنى هو الذي نظمه أبو العلاء في اللزوميات فقال :

إذا قيل غال الدهر شيئاً فإنما يراد إليه الدهر ، والدهر خادم ٣٦١/١

\*\*\*



فأنت ترى أن أبا العلاء أنكرك قول المعتزلة في نفي فعل الشر عن الله ، ورأى  
فيه شبهاً بالثنوية المجوسية ، التي يستعبد بالله منها ،  
ورأيه صريح في أنه تعالى خالق للخير والشر ، عالم بهما ، مرید لهما .

٤

تعليل خلق الشر

والبحث في خلق الشر ، جر إلى مشكلة من أعقد المشكلات ، فقد اقتضى البحث  
في تعليل خلق الشر ، وأخذت المسألة وضعاً خطيراً هو :

(إذا كان الله قد أراد الشر ، فكيف أتجهت إرادته إلى الشر ، وهو - تعالى -  
خير محض؟)

وإن لم يكن الله قد أراد الشر ، فكيف وقع في ملكه ما لم يرده ، وهو المرید المختار؟  
والوضع الأول يضيف إرادة الشر إلى الله ويهتم بالتماس علة لذلك .  
والوضع الثاني يحد من قدرة الله ، ويجعل في الدنيا ما ليس من خلقه .

مسطرة قديمية

هذه المشكلة شغلت اليونان والعرب ، ولا تزال تشغل الفلاسفة المحدثين . على  
أن المسألة أقدم من هؤلاء جميعاً : لقد حيرت إبليس نفسه عند بدء الخليفة - فيما  
يروون - وقد أورد « الشهرستاني » في مقدمة كتابه الملل والنحل ، قصة تلك المناظرة  
التي قيل إنها قامت بين إبليس والملائكة ، ويعدها الشهرستاني أول شبهة وقعت  
في الخليفة .

قال<sup>(١)</sup> إبليس ، كما نقل عنه :

إني سلمت أن البارئ تعالى إلهي وإله الخلق ، عالم قادر ، ولا يسأل عن قدرته ومشيئته ، فإنه مهما أراد شيئاً قال له كن فيكون . وهو حكيم ، إلا أنه يُتوجه على مساق حكمته أسئلة . قالت الملائكة : ما هي ؟ ومم هي ؟ فمضى اللعين يسأل : « إنه علم قبل خلقي ، أي شيء يصدر عني ويحصل مني ، فلم خلقتي ؟ وما الحكمة في خلقه إياي ؟ وإذ قد فعل ، فلم طرقتني إلى آدم حتى دخلت الجنة ثانياً وغررته بوسوستي ، فأكل من الشجرة المنهى عنها وأخرجه من الجنة معي ؟ وما الحكمة في ذلك بعد أن لو منعني من دخول الجنة ، لاستراح مني آدم ؟ وإذ فعل وكانت الخصومة بيني وبين آدم ، فلم سلطني على أولاده حتى أراهم من حيث لا يرونني ، وتؤثر فيهم وسوستي ولا يؤثر في حولهم وقوتهم ، وما الحكمة في ذلك بعد أن لو خلقتهم على الفطرة دون من يختالهم عنها فيعيشون طاهرين سامعين مطيعين ؟ وإذ قد فعل ، فلم إذ استمهلتهم أمهاني . فقلت أنظرنني إلى يوم يبعثون » قال إنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم . وما الحكمة في ذلك بعد أن لو أهلكني في الحال ، استراح آدم والخلق مني وما بقي شر ما في العالم ؟ أليس بقاء العالم على نظام الخير ، خيراً من امتزاجه بالشر . ؟ »

قيل<sup>(٢)</sup> فأوحى الله تعالى إلى الملائكة عليهم السلام ، فقالوا له : « إنك في تسليمك الأول أني إلهك وإله الخلق ، غير صادق ولا مخلص ، إذ لو صدقت أني إله العالمين ، ما احتكمت عليّ بلم : فأنا الله الذي لا أسأل عما أفعل وأخلق مسئولون . »  
في البيئـة اليونانية :

بدأت الخصومة في البيئـة اليونانية بين الطبيعيين وخصومهم . الأولون يصرون على نفي تدخل الآلهة ، ويردون الأمر إلى قوانين الطبيعة ، ويخضعون الظواهر الكونية

(١) الملل والنحل للشهرستاني — على هامش الفصل لابن حزم — ج ١ ص ٩ .

(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ١٣

لنظام آلى لا دخل لإرادة خارجة فيه . ولكن أنصار شمول القدرة الإلهية يخصمونهم ويصرون على شمول القدرة ويردون إليها كل ظواهر الكون خيراً وشرها . أخذ الطبيعيون يهاجمون خصومهم فى عنف فيسألونهم ساخرين<sup>(١)</sup> : « ما بال آلهتكم تخلق العالم ثم تصب الويلات على ما تخلق ؟ ما بالها تلهو بسهامها فتخطىء الأشرار وتصيب الكرام ؟ ما بالها تسخط على العالم ، قتهدم ما بنته بنفسها ؟ ما بالها ترسل شواظ غضبها صواعق مدمرة وزلازل هدامة وبراكين ثائرة ، فتصيب حممها المعابد ، وكان جديراً بها أن تحمى هذه المعابد لأنها بيوتها ؟ »

إلا أن مدرسة سقراط ومن تبعها من القائلين بتدخل الآلهة لم تسكت عند إضافة خلق الشر إلى الآلهة ، وإنما أعلنت إيمانها بأن الله خير حكيم . ومضت تلتمس عللاً ترد إليها وجود الشر فى العالم .

واختلفوا فى التعليل :

١ - فذهب أفلاطون ومن تبعه إلى أن الله بنى العالم من المادة التى وجدها - وقد خلقه كاملاً بقدر ما تسمح له هذه المادة . فالتقص راجع إلى المادة وليس إلى الصانع .

ويشبهه<sup>(٢)</sup> قول أرسطو فى قدم المادة وله أنصار محدثون ، وخلاصة رأيهم أن الأرواح غير مخلوقة وإنما هى قديمة أبدية ، والله يجاهد فى تخليصها من الشر ، وهو على أى حال غير مسئول عن هذا الشر من قريب أو بعيد .

٢ - وذهب فريق إلى التأويل ، فراحوا يلتمسون علة طيبة يردون إليها كل ما يظهر لنا شراً ، وهم فى تأويلهم خاضعون لفكرة المنفعة الإنسانية ، فالله لا يخلق شراً إلا ويقصد به منفعة عامة لبنى الإنسان .

Lucretius - The Nature of things - Book II (١)

(٢) دائرة معارف الأخلاق والأديان (مادة الخير والشر)

وأظهر تأويلاتهم أن الحكمة الإلهية تبيح وجود الشر - لا لذات الشر - وإنما لأجل خير يقرن به . فمدرسة الإسكندرية تعلل خلق الشر بأنه يسبب خيراً كلياً «<sup>(١)</sup> ولا يقع شر جزئى فى العالم لا تقتضى الحكمة أن يوجد بسببه خير كلى . « فليس من الحكمة مثلاً ترك المطر الذى به حياة العالم ، لئلا تنهدم به دور معدودة ، أو يتألم به سائح فى البر والبحر . وقد اعتنق هذا المذهب ليبينيس فقرر : « أن<sup>(٢)</sup> الله لم يرد الشرور . وإنما سمح بوجودها ، وهو قد سمح بذلك لأنه أدرك من قبل أن هذا العالم مع ما فيه من شر ، خير على أى حال من أى عالم ممكن . »

٣ - وظهرت محاولة ثالثة فى تعليل خلق الشر ، وهو أن الخير والشر يختلفان بالإضافة إلى الله عنهما بالإضافة إلينا . ومن الذين قالوا بهذا فى صور مختلفة : برادلى<sup>(٣)</sup> وتاييلور<sup>(٤)</sup> . وقد صار هذا ، أسلوب المحدثين من رواد هذه الآفاق العليا . وخالصة الرأى أن هذه الأوضاع يقتصر تطبيقها على البشر ولا تجوز على الله . فنحن وضعناها فى حدود بشرتنا ، وهناك أفعال وظواهر ، تبدو لنا شراً ، ولكن لا يبعد أن تكون خيراً كاملاً ، لأن النظر الإلهى للخير والشر ، يختلف عن مقاييسنا وضوابطنا .

#### فى البيئة الإسلامية :

أخذ تعليل خلق الشر فى البيئة الإسلامية ، شكل جدال عنيف بين المعتزلة الذين نفوا فعل الشر عن الله ، وبين خصومهم . وكان الدين عنصراً أساسياً فى ذلك النضال . كان المعتزلة يقولون بالأصلح ، ويصررون على أن الله لا يخلق شراً ، فهو لم يخلق عبادة إلا لينفعهم . فكان على المعتزلة إذ قالوا ذلك ، أن يعللوا وجود الشر فى العالم

(١) محاضرات سانتيلانا ج ١ ص ١١١

(٢) دائرة المعارف الإنجليزية مادة - ليبينيس

(٣) F. H. Bradley - Appearance & Reality - London 1897

(٤) A. M. Taylor - Problem of Conduct - London 1901

وأن يجيبوا عن سؤال خصومهم : ( إن كان الله لا يريد الشر ، فكيف يوجد في ملكه ما لا يريد ؟ ) . ولم يكن موقف خصومهم أسهل من موقفهم . فقد كان عليهم - إذ قالوا إن الله فاعل الخير والشر - أن يجيبوا عن سؤال المعتزلة : ( وكيف تتجه إرادته تعالى إلى الشر؟ إنكم إذا ما أنكرتم أن يكون شريراً ) .

أما المعتزلة فاستعانوا على النضال بالتأويل . سئلوا<sup>(١)</sup> : من خلق الكفر والمعصية؟ قالوا : خلقها العباد . قيل : وما رأى في جهنم ، أو خلقها العباد؟ قالوا : لسنا نقول إنها شر؟ فقد أخافت كثيرين فصلحت أعمالهم .

قيل : والحيات والعقارب والهوام ، أتستقيم مع قولكم بالأصلح؟ . قالوا : لعلها تحشر يوم القيامة فتكون عذاباً على أهل جهنم من الكافرين والفجار من غير أن ينالها من ألم جهنم شيء ، كما لا ينال خزنة جهنم .

\*\*\*

أما خصومهم ، فرأوا في نفي خلق الشر عن الله تحديداً لإرادته تعالى ، ولكن كان على هؤلاء أن يعللوا وجود الشر في العالم .

١ - قال فريق منهم : «<sup>(٢)</sup> إن الشر خلقه الله فيجب أن ينسب إليه ، كما ينسب إليه خلق الخير . لكن ليس ينبغي أن يفهم هذا على الإطلاق ، وإنما على أنه تعالى خالق الخير لذات الخير ، وخالق الشر لأجل ما يقترن به من الخير » .

٢ - وقالت<sup>(٣)</sup> الصوفية : إن وجود الشر في العالم كان ضرورة لا بد منها لكي

(١) هذا النضال . مفصل في ( مقالات الإسلاميين الأشعري ) وفي ( الفصل لابن حزم )

(٢) الكشف عن مناهج الأدلة لابن رشد ص ١١٦

(٣) محاضرات الأستاذ سانتيلانا ج ١ ص ١٠٩ - ويعلق أستاذنا الجليل أمين الحولى على هذا قائلا : « لعل هذا في أصله ليس قول الصوفية ، بل هو قول الأفلاطونية الحديثة تأثرت به الصوفية . والتزعة الفلسفية بادية في شرح الفكرة - ١٠٩ . انظر قول مدرسة الإسكندرية ، وقد تمناه في ص ١١١ .

يوجد العالم ، فهو شر أجزى ليكون منه خير عام . فإذا قيل : ولم أوجدت العلة الأولى هذا العالم إذا كان لا بد فيه من عدم الكمال والشر ، قلنا إنه لما كان من المستحيل أن يوجد الإله علماً يساويه في الكمال ، فلا يخلو الأمر من حالين . إما أن لا يوجد العالم رأساً ، وإما أن يوجد على ما هو عليه من مداخلة الشر فيه . وظاهر أن وجود العالم أولى من عدم وجوده .

٣ — وفريق أنكروا على خصومهم ذلك المنطق الإنساني الذي يزعم أن خلق الله للشر يقتضى أن يسمى شريراً . قالوا<sup>(١)</sup> : « لقد وافقونا على أن الله خلق الحجر ولا يسمى خماراً ، وبنى السماء والأرض ولا يسمى بناء ، وسقانا الغيث ولا يسمى سقاء ولا ساقياً ، وخلق إبليس ومردة الشياطين ولا يسمى خبيثاً ، فأى فرق بين هذا وبين أن يخلق الشر ولا يسمى شريراً ؟ » .

هم إذا يرفضون أن يسمى الله شريراً لأنه خلق الشر ، وكان عليهم بعد ذلك أن يعللوا خلق الله للشر ، فاتكثوا على أصل لهم ثبتوا عنده ، ذلك هو أن الله لا يحكم عليه تعالى بالحكم الجارى على خلقه . ولا يجوز أن نقيس أفعاله بالمقاييس التي وضعها عقولنا ، فإن<sup>(٢)</sup> في هذا تشبيها مجرداً لله تعالى بخلقه : « ثم كيف<sup>(٣)</sup> يجوز الحكم عليه بقوانيننا وقد كان تعالى وحده ولا شيء موجود معه قبل انخلق ؟ ترى في أى شيء كانت صورة الخير خيراً وصورة الشر شراً ، حين لم يكن هناك عقل أصلاً ولا كانت هناك نفس عاقلة أو غير عاقلة ، فيقبح عندها التبيح ويحسن الحسن ؟ فبأى شيء قام تحسين الحسن وتقيح التبيح ؟ بطل إذاً أن تكون أفعال الله جارية على أحكام المربوبين ، وأن نطرد القوانين التي صنعتها عقولنا — وهي محدثة — في أفعال الله وهو تعالى لا يجوز عليه الحدوث » .

(١) الفصل في الملل والنحل لابن حزم ج ٣ ص ٧٣

(٢) المصدر نفسه ص ٧٣ / ٩٨

(٣) » » ص ١٠٣

أبو العلاء برد الأمر إلى مشيئة الله :

(وأبو العلاء كما رأيت خاصم المعتزلة في قولهم : إن الله لا يخلق شرأ . وصرح بأنه تعالى خالق الخير والشر . ولما عرض لتعليل خلق الشر ، لم يستطع أن يتأول الشر خيراً ، وإنما ذهب مع القائلين بأن الله لا يُحْكَمُ عليه ، بما يُحْكَمُ علينا به . وأنه تعالى خلق الشر لأنه أراد ذلك ، ونحن نجعل الحكمة فيه لأننا لا نملك إلا مقاييسنا الإنسانية التي صنعتها عقولنا المحدثة .)

رأى أبو العلاء في علاننا ألواناً من الشر عجز عن تأويلها ، ووقف أمامها حائراً يجهل الحكمة في خلقها .

قال في الزوميات :

والله يقدر أن يفنى بريته من غير سقم ، ولكن جندُه العلال ١٧٤/٢

ليبب القوم تألفه الرزايا ويأمر بالرشاد فلا يطاع  
فلا تأمل من الدنيا صلاحاً فذاك هو الذي لا يستطاع ٨٤/٢

والله إذ خلق المعادن عالم أن الحديد البيض منها تجعل  
سفك الدماء بها رجال أعصبوا بالخيل تلجم بالحديد وتنعل ١٨١/٢

وقد يُرزق المجدودُ أقوات أمة ويحرم قوتاً واحداً وهو أحوج ٢٠٤/١

وما زالت الأقدارُ تتركُ ذا النهى عديماً ، وتعطى منية النفس غيرها ٣٥٦/٢

والله ما اختار البقاء وطوله إلا لشر عباده إبليساً ٢٤/١  
وقال في الفصول والغايات :

رب فار من إبرة ذات الفقار ، أتيح له ناب الصل ٣٦٥

(لص قاطع طريق) ، فرع مناكب جبل يرقبُ وراد الماء - والله بمكانه عليم -

فرت رفقة من التجر في أعقابهم طالبُ رزق يقوم الليل ويصوم النهار ، فوثب الداعر

فضرب عنق جارمة عيال ، فما تطعم عيونهم من حثا . ١٧١

رُبَّ نَخِيلٍ جَعَلْتَهَا (يَارِب) فِي مُلْكٍ بَخِيلٍ ، الْفَقِيرُ عِنْدَهُ حَقِيرٌ ، لَوْ قَدَرَ لَمُنِعَ  
الصَّعْوُ (العصفور) مِنْ نَقْرِ الْعَوِ (الرطب) ، وَالْمَهَاتِفَ ذَا الشَّغْفِ مِنَ الْوُقُوفِ بِالسَّعْفِ ،  
وَصَانَ الْجَرِيدَ صَيَانَةَ الْخُودِ الْخَرِيدِ . يَطْعَمُ وَلَا يُطْعَمُ ، وَيَنْعَمُ وَهُوَ غَيْرُ مُنْعَمٍ . إِنْ  
كَرَّمَكْ لِعَظِيمٍ (٢٠)

رُبَّ هَجْمَةٍ وَهَيْبَتَهَا لَذِي نَفْسٍ وَجَمَّةٍ ، مَخْلُبُهُ دُونَ مَحْلَبِهِ ، وَأَبْنُهُ تَمْنَعُ مِنْ لَبْنِهِ (٢٠)  
رَبِّ لَا تَجْعَلْنِي رَابَ عُرُوجٍ ، جَعَلَهَا الْوَسْمَى كَالْبُرُوجِ ، خُلِقَتْ نَابٍ أَنْ يَحْمِلَ عَلَى  
النَّابِ ، وَرَزَقَكَ رَبِّقًا عَلَيْهِ مَدْرَارٌ . (٢٣)

يَا ذَنْ لَلَّهِ تَصُولُ الضُّبْعَانِ ، وَبِقَدْرَتِهِ أَقْبَلَ الْمُدَّ بَعْدَ الْأَمْدِ ، يَحْمِلُ ذَوَاتِ الرَّبْدِ  
بَيْنَ الْعَثَاءِ وَالزَّبْدِ ، كُلُّ حَامِلَةٍ سَمٌّ مُؤَبَّدٌ . (٢٣٦)

الْفَاضِلُ مُوجَّبٌ ، وَالْفَاجِرُ مُنْتَخَبٌ . (٤)

مَا أَكْثَرَ مَا تَلَقَى الْفَاضِلُ عَدِيمًا ! (٤٣٠)

وَاللَّهُ أَرْسَلَ الْمُحْنَ أَجُورًا لِلْمُتَعَبِدِينَ (١٧٥)

\*\*\*

ما حكمة خلق الشر؟ سؤال حير أبا العلاء وأرهقه . كان يتأمل فيرى الكون  
حافلا بألوان من الشر والأذى . وهو يؤمن بأن الله أراد هذه الشرور . إذ يتمتع في  
حقه تعالى أن يقع في ملكه ما لا يريد ، ولكن لم أراد الله الشر!  
لم يخلق الخلق ثم يسلمط بعضه على بعض ، وإنه لقادر على أن ينقذ القوى من  
الضعيف؟

لم يبتل بريته بالعلل والأسقام وإنه لقادر على أن يفنيهم من غير سقم  
ولا تعذيب؟ .

لم خلق الشياطين واختار لها طول البقاء ، وإنه لقادر على أن يرحم عباده فيفني  
إبليس وشيعته؟ .



لم خلق في الإنسان طبائع شريرة تقهره وتغلبه على أمره ، وإنه لقادر على أن يهدي عباده ويجعل رغبتهم زهداً وضلالهم هدى ؟  
لم تصب المحن على الصالحين ويدركهم الموت ، وكانوا أولى من إبليس بالبقاء الطويل ؟ .

لم يسوق الله الرزق مدراراً للأشرار البخلاء ، ويحرمه الأخيار ، وإنه لقادر على أن يجعل الغنى للكريم والفقر للبخيل ؟ .

أتعلم الأرض وهي أم خف زمان فما ازدهاها  
بأي جرم وأي حكم سُلط ليث على مهاها ؟  
وعُدِّرت حاجة بعسر على عليل قد اشتهاها ؟  
وظالم عنده كنوز من أم دفر ، ومن لهاها ؟ لز ١٤/٢

أسئلة عرضت لأبي العلاء فلم يعرف لها جواباً . عجز عن إدراك حكمة الله في خلق الشر ، ولم يستطع أن يطمئن إلى علة واضحة رد إليها ما يرى من أذى وشرم  
هنالك تراه يصرح بهذا العجز ، ويرفض أن نقيس أفعال الله بقوانيننا ، فهو تعالى خالق الشر ، لكنه غير عايب ولا شرير إنما هو عادل حكيم ، لا شبه له ولا نديد ،

قال في اللزوميات .

ما قيل في عظم المليك وعزه فالله أعظم في القياس وأكبر ٣٢٦/١  
لا ريب أن الله حق فلتعد باللوم أنفكم على مراتبها ١٤١/١  
فتبارك الله الذي هو قادر تعيا وتقصر دونه الأوصاف ١٠٣/٢

وقال في الفصول والغايات :

(٦١) هو تعالى فوق التشبيه والقياس

(٤٧) لا يعجزه ممنوع في القول

- والحكم لله في العاقبة والمبتدأ ، لا يرد عليه عجب ، وكيف يعجب من شئ ،  
خالق العجائب ومبتدع الآزال ؟ (١٩٦)
- لا امتراء في أن الله حكيم . (٤٧)
- جل القادر عن ارتياب . (٢٨)
- شرف عن الأ كفاء . (٢٦)
- ودونه مواقع الفكر . (٢٩)
- تعالى أن يدركه الواصفون . (٢٨٩)
- وكيف يوصف بشئ خالق الصفات ؟ (٨٨)
- سبحانك ما فاتك ، ولا أحاط بك علم ولا ظن ، خشعت لك الإنس والجن ،  
وحكمت على خلقك بالفناء . (١٦٧)

\*\*\*

وأبو العلاء هنا - في تعليل خلق الشر - يجنح إلى ما جنح إليه في تعليل خلق  
الكون والإنسان ، من إنكار العلة الغائية . فلسنا نعلم علة نرد إليها خلق الله للشر ،  
وإنما الذي يدريه أبو العلاء ، هو أن الله يفعل ما يفعل ويخلق ما يخلق ، لا لعلّة إلا  
أنه أراد ذلك . وهو تعالى الملك وله الحكم على خلقه ، ولا شئ لنا من الأمر .

قال في اللزوميات :

- تبارك رب الناس ليس لما أبى مريد ، ولا دون الذي شاء حابس ٥/٢
- قضى الله فينا بالذي هو كائن قتم ، وضاعت حكمة الحكماء
- وهل يأبق الإنسان من ملك ربه فيخرج من أرض له وسما ؟ ٦٣/١

وقال في الفصول والغايات :

أعدِلْ بالحَاكِمِ عَلَى خَلْقِهِ بِالْمُنِيَّةِ ، يَحِيدُونَ مِنْ خُطْبِ إِلَى سِوَاهِ . ١٦٩

ولو شاء لأتقذ من القوى الضعيف . ١٨٢/١٦٩

إن الله — وله علو المكان — جعل الشر غريزة في الحيوان ، ولو شاء تعالى جعل

زهداً رغبة الراغبين . ٢٠٦

إن الزعيم بالشقاء والنعيم ، حكم ألا يخلد سواه حكيم . ٢٩٤

( سبحانه ) ، لا يفعل إلا ما رضى وشاء ، وغير متعلق به الزيف والخطأ ولا شيء

من الدنيات . ٣٣١

\*\*\*

وأبو العلاء في رسالته<sup>(١)</sup> الأولى إلى داعي الدعوة ، يجمل رأيه في تعليل خلق الشر ، فيذكر أن العالم حافل بألوان من الشر ، لا يمكن أن تكون وجدت عبثاً ، وأن من هذه الشرور ما يصيب الإنسان ، ويستحيل تأويلها بالخير . قال رداً على من قالوا ( إن الله لا يخلق إلا خيراً ) : « لقد رأينا الشرور غوالب . وفي الكتاب الكريم ( وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله ، وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك ، قل كل من عند الله ، فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً ! ) . . . .

ولما توفي إبراهيم عليه السلام ، بكى عليه السلام . فقيل يا رسول الله ، أنت تنهاننا عن البكاء . فقال : « تدمع العين ، ويخشع القلب ، ولا نقول ما يسخط الرب . وإنا عليك يا إبراهيم لمحزونون . وإنا لله وإنا إليه راجعون » . أموته

(١) معجم الأدباء لياقوت ج ١ ص ١٩٧

يراه خيراً أم شراً .؟ ويقول القائل المجترى : أما كان من قتل الحسين وسم الحسن ، أخير هو أم شر ؟ إن قيل إنه خير ، فعلام نلعن القاتل في صبح ومساء ؟ . وكذلك الذين قُتلوا يوم أحد ، شأنهم مشكل ، والنظرُ في حديثهم يشكل ، أقتل حمزة حُسيب مما يحمد أم هو عبرة للعين ورمد ؟ والحديث المشهور ، إن الغزاة لما رجعوا إلى المدينة بكت النساء على قتلها ، فقال النبي (ص) : « لكن حمزة لا بواكي له ! ؟ » فصار النساء يبدان يبكاء حمزة ثم ينتقلن إلى من فارقهن . والبكاء إنما يحدث من الحزن ، وإن الأيام كثيرة المحن . »

ورأينا أبا العلاء بعد أن فرغ من عرض بعض الشرور والمتاعب التي لا سبيل إلى إنكارها ، يقرر علم الله بالشر ، وينكر أن يقال إنه غير مريد له .

وانتهى إلى رفض أقوال المتكلمين وإعلان العجز عن إدراك العلة خلقه تعالى وأفعاله قال : « هذه العقدة قد جهدت في حلها المتكلمون فلم يجدوا لها انحلالاً ، وأصبح مقالهم ضلالاً . وللبارى عزت قدرته أسرار وقف دونها الأبرار ؟ ولعل هذه الأشياء مخفأة إلى أن تقبض الحى وفاة . »

والمقصود : أن أبا العلاء كان دقيق الحس لما في الكون من شرور وما في الحياة من متاعب وآلام ، وقد أعجزته طبيعته وظروفه عن التفاؤل ، فرفض تأويلات من يردون الشر إلى الخير .

أما رأيه في خلق الشر فقد رأيت أنه خاصم المعتزلة ، في نفى خلق الشر عن الله ، ورأى في مقالهم شبهاً بالثنوية المجوسية ، وصرح بأنه تعالى خالق الخير والشر ، سبحانه لا يقع في ملكه ما لا يريد .

ولما عرض لتعليل إرادة الشر ، أعجزه إدراك حكمة الله في ذلك ، فذهب مع القائلين إن الله لا يحكم عليه بما يحكم علينا به ، وإنه تعالى خلق الشر لعله إلا أنه أراد ذلك ونحن نجعل الحكمة فيه ، لأننا لا نملك إلا مقاييسنا التي صنعتها عقولنا المحدثة ، وهو تعالى خالق حكيم قديم ، جل عن التشبيه والقياس . »

## أخطاء الإنسان

### مشكلة الجبر والاختيار

- ١ - حرية الإرادة
  - ٢ - بحث المشكلة في البيئة اليونانية
  - ٣ - بحث المشكلة في البيئة الإسلامية
  - ٤ - اضطراب أقوال أبي العلاء
- أ - قوله بالجبر - وقوله بالاختيار - وتردده
- ب - تردده في الثواب والعقاب
- ج - إيمانه بعدل الله

### حرية الإرادة :

الحيرة في الجبر والاختيار أمر قديم ، يقول الشهرستاني إنها أول شبهة وقعت في الخليفة ، وقد مرت بك في المقالة السابقة ، تلك<sup>(١)</sup> المناظرة التي روى أنها قامت بين إبليس والملائكة ، والتي يسأل إبليس فيها ، لم خلقه الله وإنه تعالى ليعلم أى شيء يصدر عنه ؟ ولم كلفه بطاعته ومعرفته ، وهو الذي خلقه على مقتضى إرادته ومشئته ؟ ولم طرقه إلى آدم في الجنة وسلطه على أولاده ، وهياً له القدرة على التأثير فيهم ؟

(١) الملل والنحل للشهرستاني (على هامش الفصل لابن حزم) ج ١ ص ٩٠ .

كان<sup>(١)</sup> البحث في حرية الإرادة مشكلة الأمس وهو مشكلة اليوم ، وقد يظل مشكلة الغد فليس للعلم فيه حتى اليوم كلمة فاصلة .

الفلاسفة حائرون : رجال الأخلاق منهم يناضلون عن مبدأ حرية الإرادة ليكون لهم منه متكاً حين يتحدثون عن الفضيلة والمثل ، وعن المسؤولية بوجه خاص . ورجال الفلسفة المادية الواقعية ، يقولون بالجبر ، ويردون أفعال الإنسان - ككل شيء في الكون - إلى قوانين الطبيعة التي تحكم العالم في رأيهم .

ورجال الدين كذلك مضطربون : يؤيدون الجبر حيناً اعترافاً بشمول القدرة الإلهية التي تثبت الأديان أنها تدبر العالم وتقوده ، فالله عالم بكل شيء وكل ما علم أنه سيقع ، لا بد واقع كما علم . وما علم أنه لا يقع فهو لا محالة غير واقع . فعمل الإنسان إنما يجري على وفق علم الله تعالى السابق وهو إذ ذاك مجبر لا مختار . لكنهم يرجعون فيجدون الإنسان محاسباً مسؤولاً على ما عمل ، فعلام الحساب إذا لم يكن حراً ؟ لا بد من القول باختيار ، لتستقيم أمور التكليف وإرسال الرسل والثواب والعقاب . وليسلم لهم مبدؤهم في عدل الله .

ونحن نحاول الآن أن نلم بمخلاصة الأقوال في هذه المشكلة .

#### ١ - في البيئنة اليونانية :

كان البحث فيها ينحو منحى فلسفياً أخلاقياً . وقد احتلت مسألة الإرادة مكاناً ظاهراً في مدرسة سقراط ، وكانت أظهر الأبحاث في فلسفتها الأخلاقية .

المدرسة تعلن إيمانها بحرية الإرادة ، فأفلاطون يقرر في (القوانين) « أن الله قد ترك إلى تصرف إرادتنا ، الأسباب التي تتعلق بها صفات كل منا . وإن كل إنسان هو كما يرضى أن يكون ، تبعاً للميول التي يترك نفسه لها » .

(١) كتاب الحبر (خط) للاستاذ أمين الحولى .

وأرسطو<sup>(١)</sup> يقرر الاختيار ويرى « أن الفضيلة والرذيلة ليستا مما أوتي الإنسان بالطبع ، فإن الطبع لم يؤت إلا الأصول . »

ولكن هذا الرأي لا يسلم للمدرسة ، فهي لا تبرأ من تناقض واضطراب ، سقراط وأفلاطون يعلنان حرية الإرادة ثم ينقضانها ويهدمانها . حين يقرران ، في إلحاح وتكرار ، وعلى صور شتى ، أن الخطيئة لا إرادية ، فلا أحد يأتي الشر بمحض اختياره ، ذلك لأن الإنسان لا يريد لنفسه شراً ، فإذا أذنب ، فإنما يكون ذلك على رغمه دائماً . وتسمع سقراط يعلم تلميذه (مينون الشاب) . « أن الفضيلة هبة محضه من عند الله » .

وقد لاحظ أرسطو اضطراب صاحبيه ، فرفض رأيهما في لا إرادية الإثم ، وقال بالحرية ، وأشهد عليها وجدان الإنسان الذي تجده في كثير من الأحوال علة ما يصدره من الأفعال . وأشهد عليها الذوق العام الذي يحترم بعض الأفعال ويحتقر بعضها . وأشهد عليها كذلك سنة المشرعين الذين يعاقبون أو يعفون تبعاً لإرادة المذنب فيما يفعل .

كذلك لاحظ « سنهليز »<sup>(٢)</sup> التناقض الذي وقع فيه سقراط وأفلاطون ، حين قررا حرية الإرادة ثم أكدا أن المرء لا يأتي الإثم مختاراً وإنما يأتيه مرغماً لجهله أو لسوء الاستعداد أو سوء التربية . حمل سنهليز على هذا التناقض والاضطراب . لكنه يتورط في إسرافه في الإيمان بحرية النفس وجبروتها . فيقع في صورة أخرى من الجبر الذي أنكره .<sup>(٣)</sup> إذ يقرر بشكل واضح أن الإنسان عبد شهوته وأنه يناضلها فيفشل . فكل الفرق بينه وبين سقراط وأفلاطون ، أنهما يريان الإنسان يفعل الشر مرغماً لجهله ، وهو يراه يأتي الإثم والخطيئة مدفوعاً بقوة قاهرة « تهزم عقله وتسكت صوت

(١) الأخلاق لأرسطو ( تعريب الأستاذ لطفى السيد باشا ) ص ٨٥

(٢) الصبر نفسه ج ١ ص ٤٤

(٣) " " " " ج ١ ص ٤٩

الضمير والحكمة وكل شيء . تلك هي الشهوة التي يناضلها الإنسان فيفشل . »

ترى مثل هذا الاضطراب والتناقض ، في المدرسة الرواقية ( القرن الرابع والثالث ق . م ) فتلاميذها يقررون أن الإنسان حر الإرادة مختار ، ويسرفون في الإشادة بتلك الحرية ، ولكنهم - مع تطرفهم في الحرية - يسمون بالقضاء والقدر ويقررون خضوع الإنسان في كل شيء للقوة الإلهية .

أما المدرسة الذرية - والأباقة بوجه خاص - فيقولون بالجبر - ويتمنعون الحرية ، ويعلمون في صراحة أن الإنسان مغلوب على أمره لأنه ككل شيء في الكون - خاضع لنظام آلي لا دخل للإرادة فيه ، محكوم بقوانين طبيعية لا تتخلف .

## ٢ - في البيئة الإسلامية :

اتجه البحث في المشكلة نحو المنحى الديني ، الذي يدور حول علاقة الإرادة الإنسانية بالقوة الإلهية التي بثت الإسلام - والأديان جميعا - أنها تدبر العالم وتقوده . وقد أخذت المسألة نقطة ابتداء عند الخلاف في خلق الله تعالى لأفعال خلقه ، ثم اتسعت وتشعبت ، حتى أخذت شكل جدل حاد ، وخصومة من أعنف الخصومات التي شهدتها البيئة الإسلامية . ذلك لأنها لم تعد قاصرة على خلق الله تعالى لأفعال خلقه ، أو خلق الناس لأفعالهم ، بل تفرعت منها مسائل شتى ، كل منها كان مثار الجدل والمناظرة . فتكلموا في الهدى والإضلال والتعديل والتجويز ، وإرادة الله كون الفسق والكفر ، والكلام في اللطف والأصلح .

ولنرجع إلى حيث بدءوا ، فنراهم يواجهون المشكلة داخل الدائرة الدينية ، وجدوا أن الأدلة العقلية - في حدود الدين - تتعارض ، إذ القول بحرية الإنسان يستلزم القول بأن هناك خالقا غير الله ، مع أنهم مجمعون على ألا خالق إلا هو . والقول بالجبر يستلزم



البحث في التكليف ويجعل السعي والجد ودفع الضرر، هراء باطلاً غير مُجد، وهو ما لا يعقله إنسان.

ونظروا في الأدلة النقلية السمعية، يبتغون فيها فيصلاً، فوجدوها كذلك متعارضة فاتسموا<sup>(١)</sup> شيعاً ثلاثاً :

١ - طائفة تقول بالجبر المطلق، وترى أن جميع أفعال العباد مخلوقة، خلقها الله عز وجل في الفاعلين لها. وأصحاب هذا القول هم أهل السنة كلهم والجهمية، وطوائف من الخوارج والمرجئة والشيعة.

٢ - طائفة تقول بأن أفعال العباد محدثة، فعلها فاعلوها ولم يخلقها الله عز وجل : « فالعبد<sup>(٢)</sup> قادر خالق لأفعاله مستحق على ما يفعله ثواباً وعقاباً » : وأصحاب هذا القول هم سائر المعتزلة، ومن وافقهم من الخوارج والمرجئة والشيعة.

٣ - طائفة تذهب بين هذين وسطاً، ويسمونها الشهرستاني<sup>(٣)</sup> الجبرية المتوسطة، وهي لا تقول بالجبر المطلق. ولا تقول بالاختيار المطلق، ولكنها تثبت للعبد قدرة غير مؤثرة.

وفي هذا المكان الوسط، وقف ابن حزم، يهاجم الجبرية والاختيارية جميعاً، ويفند حججهم في قسوة وعنف، وإنما لنا مشيئة، إلا أنها لا تكون إلا أن يشاء الله كونها.

واختاره ابن رشد وإن لم يقل بالكسب كالأشاعرة. وإنما ذهب إلى تقدير الجبر بالعوامل الخارجية، مضيئاً إليها الأحوال النفسية، فهو<sup>(٤)</sup> يرى أن الإنسان حر في نفسه، إلا أن حريته تلك محدودة بالأسباب الخارجية. فالإرادة هي شوق يثيره شيء

(١) الفصل في الملل والنحل لابن حزم ج ٣ ص ٥٤ ،

مقالات الإسلاميين للأشعري ج ١ ص ١٤٠ .

(٢) الملل والنحل للشهرستاني (على هامش الفصل) ج ١ ص ٥٥ .

(٣) » » » » » » » » » » » » » » » » ص ١٠٨ .

(٤) الكشف عن مناهج الأدلة لابن رشد ص ١٠٧ .

يعرض لنا من الأمور التي من خارج ، ومن ثم كانت إرادتنا محفوظة بالأمر التي من خارج ومربوبة بها « فكون الأشياء الموجودة عن إرادتنا ، يتم وجودها بالأمرين جميعاً ، أعني بإرادتنا وبالأسباب التي من خارج . . . . وهذا الارتباط بين أفعالنا والأسباب التي من خارج ، نجد مثله بين أفعالنا وبين الأسباب التي خلقها الله تعالى في داخل أبداننا » .

ولكل طائفة من الطوائف الثلاث أدلتها وبراهينها :  
فحجة<sup>(١)</sup> الإيجاب :

١ - أنه لما كان الله تعالى فعالاً وكان لا يشبهه شيء من خلقه ، وجب ألا يكون أحد فعالاً غيره .

٢ - أن الله عالم بكل شيء ، فعمل الإنسان يجري على وفق علم الله تعالى السابق ، وهو إذ ذاك مجبر لا مختار .

٣ - أن شمول القدرة الإلهية ، يقتضى ألا يقع في ملك الله إلا ما يريد .  
ومن أدلتهم النقلية :

« وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله »

« فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم »

« وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى »

« ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ؛ ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين » .

وتأولوا الآيات التي أضيف الفعل فيها إلى الإنسان ، فقالوا إنما هي كما تقول : مات زيد وإنما أماته الله تعالى .

(١) الفصل في الملل والنحل لابن حزم ج ٣ ص ٢٣٩ ، ٣٠٠

الملل والنحل للمهرستاني ج ١ ص ٥٨

وقال أصحاب الاختيار :

١ - القول بالجبر<sup>(١)</sup> يبطل التكليف وإلا فقد نسبتم إلى الله تكليف ما لا يستطيع . وزمكم أن تجيزوا تكليف المتعد أن يجرى وهذا ظلم وجور ، وهما منفيان عن الله تعالى .

ورد بأن هذا تشبيه لله بخلقه ، وهو تعالى يفعل ما يشاء لا يسأل عما يفعل .

٢ - تكليف ما لا يطاق ثم التعذيب عليه قبيح في العقول جملة ، فلا يحسن من الباري تعالى أصلاً .

ورد<sup>(٢)</sup> بأن الله فوق القياس وفوق أحكامنا ، وإن أحدنا ليقول مثلاً اعبدوني ، فينكر قوله . ويقول الله اعبدوني فيكون ذلك حسناً وحقاً ، وإنما قبح ذلك منا لأننا لا نستحقه ، وكذلك قبح منا تكليف ما لا يطاق والتعذيب عليه ، لأننا لا نستحق هذه الصفة .

٣ - إن كان الله<sup>(٣)</sup> خلق الكفر والمعاصي ، فهو إذن يغضب مما فعل وخلق ، ولا يرضى ما صنع .

ورد عليهم ، ولكنكم تعلمون أنه تعالى خلق إبليس وفرعون والأصنام والكفار . هذا نفس ما أنكرتم من أنه تعالى غضب من فعله وكره ما خلق .

٤ - إذا كان<sup>(٤)</sup> تعالى خلق الظلم والكفر وجب أن يسمى تعالى ظالماً . لأن من فعل شيئاً وجب أن ينسب إليه . ورد عليهم بأن الله تعالى يفعل الأشياء ولا تنسب إليه كخلق الحجر وإبليس ، وبناء السماء والأرض ( انظر رده في ص ١١٤ )

(١) الفصل في الملل والنحل لابن حزم ج ٣ ص ٢٥

(٢) المصدر نفسه ص ١١٢

(٣) » » ص ٦٩

(٤) » » ص ٧٣

٥ — إذا كان (١) فعلنا خلقاً لله ، فكيف يعذبنا على خلقه ؟

ورد عليهم بأنه تعالى لا يسأل عما يفعل ، ولو أخبرنا تعالى أنه يعذبنا على ما خلق في غيرنا لقلنا به ولصدقناه . كما نقر أنه يعذب أقواما على ما لم يفعلوه قط ولا أمروا به . لكن على ما يفعله غيرهم . قال تعالى :

« وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم . »

« إنى أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار . »

— « ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ، ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم —  
الأساء ما يزررون . »

ومن آيات الاختيار :

« وأما ثمود فهديناهم ، فاستحبوا العمى على الهدى »

« إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً »

\*\*\*

هذا شيء من النضال الذي قام بين المجبرة وخصومهم ، وبقى أن نسمع أقوال الطائفة الثالثة أصحاب المذهب الوسط أو الجبرية المتوسطة كما يسميهم الشهرستاني (٢)  
قالوا إن الحقيقة أن لنا مشيئة ، إلا أنها لا تكون إلا أن يشاء الله .

« لمن شاء منكم أن يستقيم ، وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين . »

وساق المجبرة إليهم أدلتهم العقلية والنقلية ، وكذلك فعل أصحاب الاختيار ، فقالوا إن الاختيار الذي توحد الله به ، هو أن يفعل ما يشاء وكيف شاء وإذا شاء . وأما الاختيار الذي أضافه الله تعالى إلى خلقه ، فهو ما خلق فيهم من الميل إلى شيء ما ، والإيثار له على غيره وقد ووجهوا بالاعتراضات التي ووجه بها المجبرة والاختيارية جميعاً ، ونوقشوا

(١) الفصل في الملل والنحل لابن حزم ج ٣ ص ٩١

(٢) مقالات الإسلاميين للاشمري ج ٣ ص ٢٣ — الملل والنحل للشهرستاني ج ١ ص ٥٥

في إرادة الله للفسق والكفر ، وفي التكليف والعدل والثواب ، ولكنهم اتخذوا لأنفسهم مبدأ يتكثرون عليه ويردون به على خصومهم .

ومبدوهم واضح ، فهم يقولون إن المعتزلة تورطت فيما زعمته من الاختيار ليسلم لها مبدؤها في عدل الله فيصح التكليف ، ويجوز الثواب والعقاب . وإن الجبرة نفت الاختيار ليسلم لها مبدؤها في شمول القدرة الإلهية ، والواقع أننا نخطيء في قياس أفعال الله بأحكام عقولنا ، إذ أن هذا تشبيه مجرد لله تعالى بخلقه .

« والتقول الصحيح هو أن العقل الصحيح يعرف بصحته ضرورة ، أن الله تعالى حاكم على كل ما دونه وأنه تعالى غير محكوم عليه ، ولا يلزم لأحد على الله تعالى حق ولا حجة والله تعالى على كل من دونه ، الحق الواجب والحجة البالغة .<sup>(١)</sup> »

<sup>(٢)</sup> وأبطالوا العلة الغائية فالله تعالى يفعل ما يفعل لالعادة إلا أنه شاء ذلك فليس لأحد أن يقول لم وكيف ؟ لم حبا فلاناً بالسعد ؟ ولم خلق إبليس ومردة الشياطين ؟ ولم لم يمنع قتل أنبيائه ؟ تعالى الله الذي « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون »

وهذا كما ترى جنوح مقنع إلى الجبر وانتهاء إليه . ويظهر هذا في قول ابن حزم « كل<sup>(٣)</sup> ما فعله الله من تكليف مالا يطاق ، وتعذيبه عليه ، وخلق الكفر والظلم في الكافر والظالم ثم تعذيبهما ، وخلق الكفر وغضبه منه ، كل ذلك من الله تعالى حكمة وعدل وحق ، ومن دونه تعالى سفه وظلم وباطل ، لا يسأل تعالى عما يفعل وهم يسألون » .

(١) الفصل لابن حزم ج ٣ ص ٩٨

(٢) « » ج ١ ص ١٢ — الملل والنحل للشهرستاني ج ١ ص ١٥ — مقالات الإسلاميين للاشعري ج ١ ص ٤٠

(٣) الفصل في الملل والنحل لابن حزم ج ٣ ص ٧١

أبو العلاء ومشكلة الجبر والاختيار :

والآن إلى أبي العلاء .

الفكرة الشائعة عنه أنه رجل جبرى ، وهى فكرة لها ما يؤيدها من أقوال  
أبي العلاء نفسه . فاللزوميات بوجه خاص حافة بالشعر الجبرى ، وقد أورد أستاذنا  
الدكتور طه حسين بك طائفة من هذا الشعر ورآها « كافية لإثبات الروح الجبرى  
لأبي العلاء واضحاً جلياً » . (١)

ومن الحق أن أبا العلاء يقول بالجبر ، ولكنه لا يثبت عليه . على أنا لا نتعجل  
القول ، بل نصحب أبا العلاء لنسمع أقواله فى الجبر والاختيار .

١ - قوله بالجبر :

أبو العلاء يقول بالجبر صراحة ، وإذا مضت تلتمس هذا ، رأيت فى كثير  
من قصائده وفصوله .

قال فى اللزوميات :

- حوتنا ضرور لا صلاح مثلها  
- وما فسدت أخلاقنا باختيارنا  
- ولست بفاتح للرزق بابا  
- ومن يظفر بأمر يبتغيه  
- ما باختيارى ميلادى ولا هرمى  
- تتخيرن الأمر كى تحظى به  
- تقفون والملك المسخر دائر  
فإن شدّ منا صالح فهو نادر  
ولكن بأمر سببته المقادر ٣١١/١  
إذا أيدى الحوادث أغلقتة  
فأقضية المهيمن وقتته ٤٠٢/٢  
ولا حياتى ، فهل لى بعد تخيير ٣٢٢/١  
هيات ، ليس على الزمان تخير ٣٢٥/١  
وتقدرون فتضحك الأقدار ٣٣٣/١

(١) تجديد ذكرى أبي العلاء ، ص ٢٨٢

لو ينطق السيف نادى ليس لى عمل إذا قضى مالك الأفلاك أنضانى  
وإن كهمت فأمر الله أكهمنى وإن مضيت فأمر الله أمضانى ٣٧٣/٣  
تبارك رب الناس ليس لما أبى مرید ، ولا دون الذى شاء حابس ٥/٢  
ما حُرکت قدم ولا بُسُطت يد إلا لها سبب من المقدار ٤٠٦/٢  
وقال فى الفصول والغايات :

لو ترك القطا ليلا لنام ، والأفر لما هام ، والعرفج لما اضطرم أشد اضطرام . (١٥)  
المرء يُقدر ولغيره الأمور . (٣٧٤) ، ولن تقضى أمراً إلا بالقضاء (٢٧١-٢٩٦)  
وإذا رأيت الملاً يبرمون أمراً ، قتل لعب الولدان خراج . (٢٩٧)  
وربك خص بالفضيلة من اختار . (١٨٢)

(يطعن الطاعن) والله مالك أيدى الطاعنين . (١٧٧-٢٣٧)  
دع الأقدار وما تريد فإنها لا تصرف على اختيار المخلوقين . (٣٦٩-١٧٤-٢٣٩)  
تعالى من خار لعباده وهم للخيرة كارهون . (١٧٤)  
وتخيّر العبد على مولاه شقاق . (٣٤٨)

(أنت ربنا) مجرى القدر على رغم الكارهين ، والخيرة لك لا للمختارين . (٢٣٩)  
وأبو العلاء يعد فى الجبر (فيقرر أن الشر غريزة فى الإنسان . وإذا فهو مغلوب  
على أمره ، يغلبه طبعه ، وتقهره غريزته . ولا يملك الخير لنفسه ، كما لا يملك دفع شرها  
فأى هكذا خلقت .

قال فى اللزوميات :

جسمى أنجاس فما سرنى أنى بمسك القول ضمخت  
من وسخ صاغ الفتى ربّه فلا يقولن توسخت ١٧٣/١

- وإن لأجسام الأنام غرائزاً إذا حركت للشر طالبه ليجأ ٢١٠/١  
فكيف لا تخبث النفس التي جعلت من جسمها ، في وعاء كله دنس ١١/٢  
يظهر الجسدَ المغرورُ صاحبه وإنما صيغ أقداراً وأنجاساً ٢٣/٢  
- نبعى الطهارة في الحياة وإنما أجسادنا حمل من الأنجاس ٤٠/٢  
نهانى عقلى عن أمور كثيرة وطبعى إليها بالغريزة جاذب ١٣١/١  
والشر في الجسد القديم غريزة في كل نفس منه عرق ضارب ٩٤/١  
إن الضلالة كالغريزة فيكم يأوى إليها كهلكم وفتاكم ٢٧٥/٢  
فلا تعذلينا ، كلنا ابن لثيمة وهل تعذب الأثمار إن لؤم الغرس ؟ ٤/٢  
مهجتي ضدد يحاربني أنا منى ، كيف أحترس ؟ ١٠/٢

وقال في الفصول والغايات :

إن الله - وله علو المكان -- جعل الشر غريزة في الحيوان . (٢١٩)

والشئ ، كما فطر حتى يأذن خالقه بالتغيير . (٣٣٩)

ولو شاء تعالى جعل زهداً رغبة الراغبين . (٢٠٦)

(ويبعد أكثر من ذلك ، فيعلن أن الإنسان قد يتألم لما يقترب من شرور  
وسيئات ، ويحاول مخلصاً أن يتجنبها ويفعل الخير ، فتصدده عن ذلك قوى قاهرة  
غلبة ، لا سبيل له إلى مقاومتها . يهيم بالخير فتأبى الأقدار عليه ذلك وتتصدى معترضة  
دون هذه الرغبة الكريمة .)



- يعلن أبو العلاء ذلك في مرارة وألم فيقول في اللزوميات :
- وإذا غدوتَ على القضاء مغالبا فأذاك تستمرى وأنفك تُرغم ٢٧٥/٢
- ارتاحت النفس بتطهيرها وربها قاض بتدنيستها ٤٢/٢
- لم يقدر الله تهدياً لعالمنا فلا ترومن للأقوام تهديا ١١٠/١
- أوصيت نفسي، وعن ود نصحت لها فما أجابت إلى نصحي وإيصائي ٦٦/١
- وكيف يقام في أمر مهم يُفعل والمقادير مقعدت؟ ١٦٣/١
- قضى الله فينا بالذي هو كأن قتم، وضاعت حكمة الحكماء
- وهل يأبق الإنسان من ملك ربه فيخرج من أرض له وسما؟ ٦٣/١
- وفي الفضول والغايات، من هذه التأملات كثير، (تري خلالها هزيمة العقل وفشل الجهد، أمام سطوة الغريزة وسيف المقادير) :
- إني لأزجي إلى الخير نفساً كالعود الرازم . (١٠٤)
- كم أذمرها حاضاً لها على فعل الخير وهي غير مصغية إلى طول الذمرات . (١١٦)
- رب نطف ( فاسد النية ) يُعطف إلى الخير ، فلا ينعطف ، وكيف ، ولم يأذن خالقه بالانعطف ؟ (١٩٠)
- أريد الخير لا يجيئني ، والغريزة عن الرشد تدبني . (٢١٦)
- وأى أسباب الخير علقت به ، وجدته على ذا التيات : (٢١٧)
- هل يعصمني الاجتهاد ، وقد سبق حكمه أني من أهل الخسار ؟ أو يضرني التقصير وقد نفذ علمه أني في درجة الأبرار ؟
- خلدني بالخطايا مملوء ، وأنا بها أبوء ، أحملها فلا أنوء ، وغير القدر هو المدروء ، لا يبعد عنى السوء . أهم بالخير وأهوء ، والأقدارُ دونه معترضات . (١٤٩)

٢ - قوله بالاضتيار .

سمعت أبا العلاء يقول بالجبر ويبيد فيه ، ولكنك تمضى في تتبع تأملاته فإذا هو لا يثبت عند القول بالجبر وإنما يناقض نفسه .

وأول ما يلفت النظر في ذلك إلحاحه الغريب في الوعظ والنصائح ، وهذا جنوح إلى الاعتراف بالاختيار والاجتهاد . وإلا فكيف يستقيم إلقاء النصيحة مع مغلوب على أمره جبل على الشر وأجبر عليه ؟ كيف يوصى بفعل الخير وتجنب الشر من يعلم أن الأمر رهن بمشيئة الله لا بإرادة العبد ؟

اللزوميات ، والفصول والغايات ، وملقى السبيل ، حافلة بالمواعظ والنصائح . وكثرتها تُشعرك أن أبا العلاء كاد يحترف الوعظ .

واقراً ثبت كتبه في ياقوت ، فسترى من بينها هذه الأسماء :

استغفر واستغفري - في الوعظ .

الأيك والغصون - في العظات وذم الدنيا .

تاج الحرة - في عظات النساء خاصة .

حماسة الراح - في ذم الخمر .

دعاء الأيام السبعة .

دعاء ساعة .

سيف الخطبة ، في الخطب والدعاء - وفيه خطب للجمع والعيدين والنسوف والاستسقاء .

عظات السور .

العظة والزهد .

سجع الحمام في الوعظ .

السجعات العشر - في الوعظ .

فته الواعظ .

المواعظ الست : في خطاب رجل ، واثنين ، وجماعة ذكور ، وامرأة ، واثنين وجماعة إناث .

ملقى السبيل - في الوعظ .

هو إذا واعظ يوصي الناس بعمل الخير واجتناب الشر ، ويدعو إلى صالح الأعمال ومكارم الأخلاق ، وهذا جنوح إلى الاعتراف بأن للإنسان قدرة على أن يفعل الخير ويتجنب الشر .

ب - وتراه إلى جانب إسرافه في الوعظ والدعوة إلى مكارم الأخلاق ، سرف في لوم المذنبين ويقسو في تعنيفهم ، وهذا جنوح إلى الاختيار ، لأن المحبر على الشر والخطيئة معذور ، وأولى بنا أن نشفق عليه بدلا من أن نقسو في لومه وتعنيفه .

قال في اللزوميات :

أرى الناس شرا من زمان حواهم	فهل وجدت للعالمين حقائق ؟
فقد كذبوا عن ساعة ودقيقة	وما كذبت ساعاتهم والدقائق ١١٧/٢
فؤادك خفاق ، وبرقك خافق	وأعياك في الدنيا خليل موافق
تخير ، فإما وحدة مثل ميتة	وإما جليس في الحياة مناقق ١١٨/٢
هل بغسل الناس عن وجهه الثرى مطر	فما بقوا ، لم يبارح وجهه دنس
والأرض ليس بمرجور طهارتها	إلا إذا زال عن آفاقها الأوس ! ١١٣/٢
أنسل إبليس أم حواء ويحكم	هذا الأنام ، ففي أفعالهم دلس ؟
إن يؤمنوا لا يؤدوا ، أو يكن لهم	عز يضيئوا ، وإن أعيامهم اختلسوا ١١١/٢

إذا حضرت عندي الجماعة أوحشت فما وحدتي إلا صحيفة إناسي  
طهارة مثلي في التباعد عنكم وقربكم يجني همومي وإدناسي ٢٦/٢  
هذا رجل يضيق بالناس ، ويقسو في لومهم وينكر ما يقترفون من آثام ، وكان  
جديرا به أن يعذرهم لأنه كرر - على صور شتى - أن المرء مغلوب على أمره ،  
يقترف الإثم مرغما ، وقد يحاول الخير فيصده عن ذلك قدر غالب ، وطبع قاهر .  
على أن أبا العلاء لا ينصح ويلوم فحسب ، ( وإنما يقول بالاختيار الصريح . )

قال في اللزوميات :

- فما أذنب الدهر الذي أنت لائم - ولكن بنو حواء جاروا وأذنبوا ٨٠/١

تأبى أن تجيء الخير يوما وأنت ليوم غفران تئب ؟ ٨٨/١

نقمت على الدنيا ولا ذنب أسلفت إليك ، فأنت الظالم المتكذب ٨٠/١

تقلدت المائم باختيار أوانس بالفريد مقلدات ١٦٣/١

وقال في الفصول والغايات :

كفرت البرية وربها حلیم . (٢٨)

١ مولانا ! أغيرنا فتغيرت لنا ؟ أم نزلت السخطة منك علينا ؟ بل نحن الجريمة

المسيئون ، ما زلنا عبید سوء ولا زلت أكرم المالکین . (٥٠)

لو هجر أب الجنایة ولد ، حرّم العنب لجريرة المدام . وهل لها من ذنب ؟ إنما  
الذنب لعاصر الجون ، ومستخرجها وردية اللون ، وحابسها في الدن ، ومنظرها برهة  
من الدهر ، وشاربها ورد العطشان وتفوق الرضيع ، فاجتنبوا ما يذهب العقول ، فيها  
عُرف الصواب . (٤٠)

وأى ذنب للدنيا لديك ، إنما الذنوب كلها لك ! (٥٣)  
لتسكن أفعالك لوجه الله ما استطعت ، وعزيز ذلك على سكان الأرض ، ولكن  
يوجد من وراء ذلك اجتهاد . (١٨٠)

٣ - نردوه واضطرابه

- وقد يختلط الأمر على أبي العلاء فلا يقول بجبر ولا باختيار ، وإنما يقف حائراً ،  
لا إلى هذا ولا إلى ذلك ، يجمع بين التقيضين في وقت واحد ، ويتحدث بكلام  
مبهم لا تدرى مؤداه . ففي اللزوميات يقول :

فأوسعُ بني حواء هجرًا فإنهم يسرون في نهج من الغدر لاحب

إذا ما أشار العقلُ بالرشد جرَّهم إلى الغي طبعٌ أخذه غيرُ صاحب ١٣١/١

تخالفت الأشياعُ في عقب الردى وتلك بحار ليس يُدركُ عبرُها

وقيل نفوسُ الناسُ تسطيعُ فعلها وقال رجال بل تبين جبرُها ١٣١/١

أرى شواهد جبرٍ لا أحققه كأن كلاً إلى ما ساء مجرور ٢٢٢/١

- كيف احتيالك والقضاء مدبر تجني الأذى ، وتقول إنك مجبر ؟ ٢٢٧/١

وجدت الفتى يرمى سواه بدائه ويشكو إليك الظلم وهو ظلوم !

فإن كان شيطانٌ له يستغزه فأيهما عند القياس تلوم ٢٦٣/٢

أرأيت كيف يوسع الناس لوما وقد جرهم طبعهم إلى الغي ؟

أرأيت كيف يردد قول المجبرة وخصومهم ثم لا يلقى لنفسه رأياً ؟

أرأيت كيف يعجب من احتيالك والقضاء مدبر ، ثم ينكر عليك أن تقول إنك مجبر ؟

أرأيت كيف يعجب من يشكو الظلم وهو ظلوم ؟ ثم يسأل من المعلوم إن كان

شيطان له يستغره للمعصية والظلم ؟ .

واسمع قوله في الفصول والغايات :

- ليس للسان ذنب ، إنما الذنب لمحرك اللسان ، كفارس طعن برمح فقتل غير مستحق للقتل ، فالجاني الفارس . والرُمحُ غنى عن الاعتذار . . .

وإذا سعت القدمُ إلى قببح ، فالجريمة لناقلها ، مثل رجل ركب فرساً فأخاف سييلاً ، فاستوجب العقوبة الرجلُ دون الجواد ، وإذا خانت اليدُ فالباسطُ لها الخبُّ الخثون . وإذا نظرتُ العين ، فتلك المصباحُ استعان بها السارق على اجتلاء بز وجهاز .  
(٣١٧)

هو هنا ينفى الذنب عن الجوارح ويبرئها من المسؤولية ، ويلقى العبء على محرك اللسان ، وناقل القدم ، وباسط اليد ، والناظر بالعين .

فاسمعه يقول في مكان آخر من الفصول والغايات :

الخيانة جنسان : خيانة الضمير ، فتلك لا يشعر بها غير الله ، والخيانة الظاهرة على أقسام : خانت العين بنظر واطلاع ، والأذن في إصغاء واستماع ، والقدم إذا نقلها إلى الإثم ساع ، وكل عضو أعانك على الخيانة فقد خان .  
(٣٩٩)

- رأيت كيف يضيف الخيانة إلى الجوارح ، وفي مكان آخر قد نفاها عنها ؟ ولكي يبعد شبهة المجاز في الإسناد ، يختم الفصل بقوله : « وكل عضو أعانك على الخيانة فقد خان » .

٤ - ما مرفق الرجل :

ذهب الأستاذ الدكتور طه حسين بك في ( ذكرى أبي العلاء ) إلى أنه كان (١)  
جبرياً إلى أبعد حدود الجبر .

ولكنه عاد ، فلاحظ تردد الشيخ وعدم ثباته على القول بالجبر الخالص ، فرأى  
الدكتور أنه كان يذهب إلى ما سماه ( الجبر الملطف ) . وقد فصله في كتابه ( مع  
أبي العلاء في سجنه ) . أورد قول أبي العلاء في الفصول والغايات : « ألا ترى الحجر  
الموضوع ، مر به العائر فأدمى الإبهام ؟ ولا ذنب للحجر ، لكن للواضع والعائرين : »  
وعلق الأستاذ على ذلك بقوله : « والمثل <sup>(١)</sup> الذي ضربه أبو العلاء في هذا الفصل  
لا يخلو من دلالة ، فهذا عائر قد عثر بحجر في طريقه فدميت أصبعه ، فأيهما المسئول عن  
هذا الشر ؟ ليس هو الحجر من غير شك ، ولكنه واضع الحجر في موضعه ، هذا الذي  
جعله عرضة لأن يؤذى من قد يمر فيعثر به . والعائر نفسه ، لأنه لم يتبين موضع قدمه .  
وما ينبغي أن تتقف عند المعنى القريب لهذه الجملة من حديث أبي العلاء ، فأبو العلاء  
أذكي وأعمق فلسفة من أن يقف عند هذا المعنى في تفكيكه ، فكن أنت من الذكاء  
ونفاذ البصيرة بحيث تستطيع أن تسمو معه إلى ما أراد . وأكبر الظن أن هذه الصورة  
المادية رمز لصور معنوية كثيرة ، فما يكون من شر إنما ينحل في حقيقة الأمر إلى  
نوعين من أنواع التبعة : أحدهما تبعة الذي هيأ أسباب هذا الشر وجعلها في مواضعها  
من حياة الناس ، بحيث يعثرون بها ويتورطون فيها ، فلو لم تنهيا هذه الأسباب لما عثر  
الناس ولا تورطوا . والنوع الثاني تبعة الناس الذين يرون أسباب الشر فلا يتجنبونها  
ولا يعدلون بأنفسهم عنها . . . ( وأيسر ما يستخلص من تحقيق هاتين التبعتين أن  
الإسنان ليس مسئولا كل السؤال عن سيئاته ، لأنه لم يبتكر أسبابها ، ولم يخلق  
دواعيها ، ولم ينصب أشواكها في طريقه . ولكنه في الوقت نفسه ليس معنى كل  
الإعفاء ، لأن له عقلا يهديه في هذا الطريق ويده على مواضع هذه الأشواك .  
فن الحق عليه أن يهتدى وهو ملوم إذا لم يفعل . )

« وإذا فهو الجبر الملتف - إن صح هذا التعبير - الجبر الذي يعذر الإنسان بعض العذر، ولكنه لا يعفيه من التبعات كلها. الجبر الذي يبيح لأبي العلاء أن يلوم الناس على آثامهم ويأمرهم بالخير، ويفرض عليه أن يحتاط لنفسه فيصطنع الخير ما وجد إلى ذلك سبيلا. وهذا الرأي من آراء أبي العلاء شائع في اللزوميات شيوعا شديدا على تفاوت في ذلك، فهو مرة يسرف في الجبر، ومرة يقتصد فيه. »

هذا رأى يصدق على الحياة العملية لأبي العلاء، فقد أراد لنفسه أشياء وأريدت له أشياء، أراد لنفسه العزلة والزهد والتقوى، ولكنه قد أريد على أن يفضل هذه الحياة، حين ألت عليه الحن وأكرهته الظروف على أن يسيء الظن بالدينا وبالناس فاعتزلهم طائعا مختارا.

وكنا نود لو أن هذا الرأي يسلم لأبي العلاء في تأملاته، لأنه يجلو موقفه. ولكننا نلاحظ:

١ - أن هذا الجبر الملتف - على فرض أنه قسم ثالث - لا يسلم لأبي العلاء، ذلك لأن الرجل لا يقول بالجبر الملتف وحده، ولا يثبت عند هذا الموقف المتوسط متردداً بين الجبر والاختيار، وإنما يقول بالجبر المشدد مرة، وبالاختيار المؤكد أخرى، وقد يتوقف في الأمر فلا يقول بجبر ولا باختيار، ولا بجبر ملتف، وإنما يقف حائرا، يردد في القول، فيجمع بين التقيضين، ويقول بالرأى ثم يعود فينتقضه.

عندنا أن أبا العلاء متناقض في مسألة الجبر والاختيار، فلننا نعرف له رأيا بعينه <sup>سلف</sup> ثبت عليه، وإنما نراه يبعد في الجبر حيناً، حتى ليصور الإنسان مجبولا على الشر مغلوبا على أمره، يحاول الخير فتعده قوى قاهرة غالبة لا سبيل له إلى مقاومتها.

ويجئ إلى الاختيار حيناً، فيقول بالاجتهاد، ويدعو إلى صالح الأعمال، ويقسو في لوم الناس ويضيق بآثامهم، وينفي الذنوب عن الدينا والقدر، ليثقل بها كاهل الإنسان.



وبتوسط متردداً بينهما حيناً ثالثاً كما رأينا في قصة الحجر والعاثر .  
وقد يتوقف في الأمر فلا يقول بجبر خالص ، ولا باختيار خالص ، ولا بجبر متوسط  
ملطف ، بل يقف حائراً متردداً .

(هو إذاً متناقض لم يثبت عند رأى بعينه ، فليس من الصواب أن نقول إنه  
جبرى ، أو اختياري ، أو متوسط ، أو متردد ؛ لأنه قال هذه جميعاً فاختلط أمره ،  
وتناقضت أقواله .)

\*\*\*

### التواب والعقاب :

(وقد اختلف قول أبي العلاء في التواب والعقاب ، تبعاً لاختلافه في الجبر والاختيار .  
يقول بالجبر ، فيحارب في التواب والعقاب . لم يثاب مجبور على الخير مساق إليه ؟  
وكيف يعاقب مجبور على الشر مُكره عليه ، لم يسع إليه ولم يرغب فيه ؟  
إن كان من قتل المحارب مجبراً يسطى عليه ، فأين يُبغى الثار ؟ لرا/٣٣٤  
لا تحمدن ولا تدمن امرأ فينا ، فغير مقصرٍ كمقصر ١/٣٩٨  
فإن كان شيطانٌ له يستفزه فأيهما عند القياس تلوم ؟ ٢/٢٦٣  
ويقول بالاختيار ، فيعوزه الاطمئنان إلى هذا القول ، ولكنه مع قلقه يفرع من  
العقاب ويجنح إلى تقرير المسؤولية .

قال في الفصول والغايات :

إني سأئك ( يارب ) هل أبت السيئات عندك موضعاً للحسنات ؟ (١٣٨)

اسودَّ عملك فما حزنت ، وحزنتك بيضُ الشعرات . (٩٤)

(وأنت ترى حيرته واضحة في ترده بين الأمل في المغفرة والفرع من العقاب .)

(هو حين يجنح إلى الجبر ، يأمل في المغفرة مهما اقتترف من الذنوب والآثام ، لأن عقاب الجبر على ما أريد له من سيئات ، ظلم بين .

قال في اللزوميات :

قالت معاشرُ ، كلُّ عاجزٍ ضرع ما للخلائق ، لا بظء ولا سرع  
مدبرون فلا عتب إذا خطئوا على المسيء ، ولا حمد إذا برعوا  
وقد وجدتُ لهذا القول في زمني شواهداً ، ونهاني دونه الورعُ ٧٩/٢

ليفعلُ الدهرُ ما يهيم به إن ظنوني بخالقي حسنه  
لا تياسُ النفسُ من تفضله ولو أقامت في النار ألف سنه ٣٥٨/٢  
أخشى عذابَ الله والله عادل وقد عشت عيش المستضام المعذب؟ ١٢٠/١

وقال في الفصول والغايات :

ما أحسنتُ فأطلب الجزاء ، لكني أسأت فرادى الغفران . ومن لي بالوقفة بين  
المزنتين لا أكرم ولا أهان ؟ ١٧٣

لا آيس من رحمة الله ولو نظمت ذنوباً مثل الجبال سوداً ، كأنهن بنات حمير ،  
( ابن حمير هو الليل المظلم ) . ووضعتهن في عنقي الضعيفه كما ينظم صغار اللؤلؤ فيما طال  
من العقود . ولو بنيت بيتاً من الجرائم أسود كبيت الشعر ، يلحق بأعنان السماء ،  
وتمتد أطنايه في السهل والجبل ، كامتداد جبال الشمس ، لهدمه عفو الله ١٧٩ - ١٨

وأسألك ( يارب ) عصمة من الذنوب ، فإن لم أكن أهلاً للعصمة ، فلتكن  
جرائمى معك لا مع عبادك ، فإنك الحليم الكريم ، وإنا معشر الإنس فينا سوء ظفر  
وقلة احتمال . ١٧٣

وقد عرض أبو العلاء مسألة المغفرة في ( رسالة الغفران ) عند ما ذكر قصة التوبة .

فهو يمضى بصاحبه ابن القارح فى الجنة يسأل بعض الشعراء بم غفر الله لهم ، فإذا المغفرة قريبة . بيت من الشعر ، كاف لأن يعنى الآثم العاصى من لفتح جهنم ويمضى به إلى نعيم الجنة .

اسمعه يتحدث على لسان ابن القارح ، ويعرض قصة عبيد : «<sup>(١)</sup> ثم ينصرف ( ابن القارح ) إلى عبيد ، فإذا هو قد أعطى بقاء التأييد . فيقول : السلام عليك يا أخا بنى أسد . فيقول : وعليك السلام - وأهل الجنة أذكاء - لعلك تريد أن تسألنى بم غفر لى ؟ » فيقول : أجل ، وإن فى ذلك لعجبا . فيقول عبيد : إنى دخلت الهاوية وكنت قلت فى أيام الحياة :

من يسأل الناس يجرموه وسائل الله لا يخيب

وسار هذا البيت فى آفاق البلاد ، فلم يزل ينشد ويخف عنى العذاب ، حتى أطلقت من القيود والأصفاد . ثم كرر إلى أن شملتنى الرحمة ببركة هذا البيت . وإن ربنا لغفور رحيم . قال أبو العلاء : « فإذا سمع الشيخ ما قال هذان الرجلان ( زهير وعبيد ) طمع فى سلامة كثير من أصناف الشعراء » .

ويمضى بصاحبه « فإذا<sup>(٢)</sup> هو بيت فى أقصى الجنة كأنه حفش أمة راعية ، وفيه رجل ليس عليه نور سكان الجنة . وعنده شجرة قيئة ( حقيرة ) ثمرها ليس بزك . فيقول : يا عبد الله لقد رضيت بحقير .

فيقول : والله ما وصلت إليه إلا بعد هياط ومياط ( أشد السوق فى الورد والصدر ) وعرق من شقاء . وشفاة من قریش وددت أنها لم تكن . . . فيقول : من أنت ؟ فيقول : أنا الخطيئة العبسى ، فيقول : بم وصلت إلى الشفاة ؟ فيقول : بالصدق فى قولى :

(١) رسالة الغفران ( طبعة هندية ) ص ٢٣

(٢) المصدر نفسه ص ٨٣

أبت شفتاي اليوم إلا تكلماً بهجر فلا أدري لمن أنا قائله !  
أرى لي وجهاً قبح الله خلقه فقبح من وجهه وقبح حامله !  
فيقول : ما بال قولك :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس  
لم يُغفر لك به ؟ فيقول : سبقني إلى معناه الصالحون ، ونظمته ولم أعمل به ،  
فخرمت الأجر عليه . «

على هذا النحو ، يمضي أبو العلاء في تصوير التوبة والمغفرة فيظهر لك الغفران  
أمراً هيناً قريب المنال .

لكنه لا يمضي على هذه الفكاهة المرة ، فرسالة الغفران لا تخلو من جد صارم  
حزين ، تحسه حين ترى أبا العلاء يمضي بصاحبه ( ابن القارح ) إلى شعراء آخرين  
لم يغفر لهم « فهم حطب جهنم ، كلامهم ويل وعويل ، يغمض أحدهم عينيه حتى  
لا ينظر إلى ما نزل به من العذاب ، فيفتحهما الزبانية بكلايب من نار » . يتأملهم  
أبو العلاء حزيناً متألماً ثم يصيح على لسان أحدهم ( أوس بن حجر ) وقد سئل عن  
آيات رُويت له وللنابغة « قد<sup>(١)</sup> بلغني أن نابغة بنى ذبيان في الجنة ، فأسأله عما  
بدا لك . فقلعه يخبرك ، فإنه أجدر أن يعي هذه الأشياء . فأما أنا فقد ذهلت :  
نار توقد ، وبنان يعقد ، إذا غلب على الظمأ رفع إلى شيء كالنهر ، فإذا اغترفت  
منه لأشرب ، وجدته سعيراً مضطرباً . ولقد دخل الجنة من هو شر مني ، ولكن  
المغفرة أرزاق ! كأنها الشب في الدار العاجلة ! » .

هذا الجد الصارم تحسه كذلك من أبي العلاء في اللزوميات والفصول والغايات .  
تراه يبعد في تأمله - حين يقوى جنوحه إلى الجبر ، فيدركه العجب والحزن ،  
وبصيح في ألم يشبه أن يكون اعتراضاً .

لِمَنْ تَوَاخَذَ بِالْجُرْمِ الَّتِي سَلَفَتْ وَمَا تَحْرُكُ حَتَّى حُرِّكَ الْجِرْسُ ١٢/٢

مَهَجْتِي ضَمْدَرٌ يَحَابِي أَنَا مَنِ كَيْفَ أَحْتَسِسُ ؟ ١٠/٢

مَنْ وَسَخَ صَاغَ الْفَتَى رَبَّهُ فَلَا يَقُولَنَّ تَوَسَّخْتَ ١٣٣/١

وَمَا فَسَدَتْ أَخْلَاقُنَا بِاخْتِيَارِنَا وَلَكِنْ بِأَمْرِ سَبَبْتِهِ الْمُقَادِرِ ٣١١/١

نَحْنُ شَتْنَا فَلَمْ يَكُنْ مَا أَرَدْنَا هُوَ وَتَمَّتْ لَهِ فِينَا الْمَشِيئَةُ ٤٣٣/١

وقال في الفصول والغايات :

وَبَسُّ الرَّبِّ رَبٌّ لَا يَعْذَرُ ، إِنْ غَفَلَ قَاتٍ ( خَادِمٌ ) فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ . ( ٣٠٤ )

( أبو العلاء — كما رأينا — طامع في عفو الله مهما كانت الذنوب والآثام . يرى

المغفرة قريبة وينكر المسؤولية والعقاب ، ما دامت أخلاقنا لم تفسد باختيارنا )

ولكنه لا يطمئن إلى هذا ، لأنه كما قدمنا لا يثبت على القول بالجبر — بل تدبره

لوثة الشك فيرتاب ، ويصيح في فرع رهيب :

وَرَاعِي لِلْحِسَابِ ذَكَرَ وَغَرَنِي أَنَّهُ بَعِيدٌ ٢٥٩/١

ذَكَرْتَنِي عَقُوبَةً مِنْ إلهِي فَاسْتَطِيرُ الْفُؤَادَ لِلتَّذْكَيرِ ٤١٨/١

وَالرَّمْلُ يُشْبَهُ فِي أَعْدَادِهِ خَطِيئِي فَمَا أَمُّ لَهُ يَوْمًا بِإِحْصَاءِ ٦٦/١

فَهَلْ عَانُوا فِي مَضْجَعِي الْجِرَائِمِي كِتَابٌ مِنْ زَنْجٍ ، تَرُوحُ ، وَنُوبِ

وَهَلْ يَجْعَلُ الْأَرْضَ الَّتِي أبيضُ لُونُهَا كَلُونِ الْحَرَارِ الْحُمِسِ ، لُونُ ذُنُوبِي ١٢٨/١

نَرْجُو السَّلَامَةَ فِي الْعَقْبِي وَمَا حَسَنَتْ أَعْمَالُنَا فِيرَجِي الْفَوْزُ وَالْغَرْفُ !

مَا بَانَ قَوْمٌ عَنِ الْأُولَى بِمَا جَمَعُوا مِنَ الْحَطَامِ ، وَلَكِنْ بِالذِّي اقْتَرَفُوا ٩٢/٢

إِنِّي حَتَّى رَأَيْتُ ذَنْبِي عَلَى قَلْبِي ، فَمَا أَنْفَكُ حَيْرَانًا ٣٥٧/٢

وقال في - الفصول والغايات :

لقد خفت النعمة من رب العظمة .

واجعل خوف الله نصب فكرك ، والموت غير خال من ذكرك ، اسود عملك فما

(٩٤)

حزنت ، وحزنتك بيض الشعرات .

ما أضيق على دنياي ! أخطأت خطأ لا أقول معه دراك ، والمتخلف مظنة من

(٥٢)

فوت الصحاب .

لا يخلو اليوم من اقرارف . إما ظاهر وإما خاف ، فالواجب أن أظل كناقف

(١٣٠)

الحنظل أو الباكى عند السمرات .

وإني سأئك : هل أبقت السيئات عندك موضعاً للحسنات ؟ (١٣٨)

غفران إلهنا مأمول ، ولكنك أيتها الحشاشة فرطت فأوبقت ، حتى خلفت

(٤٦)

وسبقت ، فانظري هل من متاب ؟

هل من راق لذى إیراق بات شاكياً ، من الخيفة باكياً ، يسأل ربه غفران

(١٣٩)

الكبائر . والله القابل توبة التائبين .

ويبعد أبو العلاء فيضيف إلى الجماد والنبات ، الخوف من العقاب ، ويقول بإمكان

العقاب معها . قال في الفصول والغايات :

نكرت القلب من خوفك ، فما سقى بياض بسويد ، وكأن بعض الشجر عصاك

فحمل ، فلما قارب الجمال أو كمل ، أرسلت سحباباً ذا عمد حمر ينفض على الثمر ، حصى

(٥١)

من جمده . . . . . لقد بات بحبيبة شر من حاب .

هكذا تردد أبو العلاء بين الأمل في المغفرة ، والخوف من العقاب ، وكان تردده كما

رأيت صدى لاضطرابه في أمر الجبر والاختيار .

عدل الله

بقى أن نسمع قول أبي العلاء في عدل الله . ولو أن أبا العلاء اطمأن إلى الاختيار كما فعل المعتزلة ، لأراح نفسه من العناء ، كما أراحوا أنفسهم وسلم لهم مبدؤهم في عدل الله .

ولكن أبا العلاء صرح بالجبر وأسرف فيه ، والقول بالجبر ، مع الاعتراف بالثواب والعقاب ، يبدو منافياً لعدل الله .

إن كان من فعل الجرائم مجبراً فعقابه ظلمٌ على ما يفعل  
والله إذ خلق المعادن عالمٌ أن الحداد البيض منها تجعل  
سَفَكَ الدماء بها رجالٌ أعصموا بالخيول تلجم بالحديد وتُنعَل لـ ٨١/٢  
فإن كان شيطان له يستفزه فأيهما عند القياس تلوم ؟ ٢٦٣/٢

وما كان المهيمن وهو عدل ليقصر حيلتي ويظيل لومي ٣١٢/٢  
إنما نذكر هنا أن أبا العلاء لم يطمئن إلى الجبر الاطمئنان الكافي ، وأياً كان رأيه واضطرابه في الجبر والاختيار ، وتردده بين الأمل في المغفرة والخوف من العقاب ، فإن الرجل ثبت عند التسليم لله والقول بعدله ، وتنزيهه تعالى عن الظلم والخطأ والنقصان رافضاً أن يقيس أفعاله تعالى بأحكامنا ، فهو تعالى لا يسأل عما يفعل .

لا ريب أن الله حق فلتعد باللوم أنفسكم على مراتبها لـ ١٤١/١

وقال في الفصول والغايات :

أعدل بالحاكم على خلقه بالمنية ، يحيدون من خطب إلى سواه . (١٦٩)

جل القادر عن ارتياب . (٣٨)

لا ريب في أن الله حكيم . (٤٨)

قحطان لك (يا رب) ومعد . وجرى بقدرك النجس والسعد ، وصدق منك الوعد ،  
لا تظلم أحداً ولا تعد ، كنت من قبل وتكون من بعد ، لا تفتقر في عزك إلى  
الحلفاء . (٣٠)

والرب يستجار ، ولا يخرج مما يقضيه الجمد ولا الحيوان ، ولا يفعل إلا ما رضى  
وشاء ، وغير متعلق به الزيف والخطأ ولا شيء من الدنيات . (٣٣١)

وأبو العلاء مخلص في هذا التمجيد ، لا يصدر فيه عن تقية أو تقليد ، وإنما كان  
يؤمن بأن الله خالق حاكم « لا يرد عليه عجب والحكم له » . لا تجوز عليه أحكامنا ،  
ولا يفعل إلا ما رضى وشاء ، لا حجة لمخلوق عليه ، « وله الحجة على كل مخلوق » .  
الفصول . (٣٠)



المرحلة الثالثة

من مراحل الحياة الإنسانية

الموت ومصير الإنسان

- ١ - سوء ظن أبي العلاء بالدنيا ورغبته في التخلص من محنة الحياة .
- ٢ - فزعه الرهيب من الموت وتشبثه بالحياة .
- ٣ - أسباب فزعه من الموت  
أ - لم يبرأ من حب الدنيا ؟  
ب - الجهل والخوف مما وراء الموت .  
ج - الموت هو المأساة الإنسانية الكبرى .

آن لنا أن نترك تلك الأبحاث العقلية ، بما تثير من مشكلات أتعبت أبا العلاء وأتعبتنا معه ، نتركها لنخلص إلى أبي العلاء وحده ، وننفذ إلى أعماق نفسه ، فنرى كم أحب الحياة ، وكم تشبث بها ، وكم تعب منها . وسنطيل الوقوف معه عند اللحظة الحاسمة التي ينطفئ فيها سراج العمر وتنتهي الحياة ، فقد أطال صاحبنا الوقوف عندها وتمثلها تمثلاً ملحاً ، وأحسها إحساساً قوياً .

سنرى أبا العلاء هنا في صراع رهيب بين حب الدنيا ومقمتها ، بين الفزع من الموت والترحيب به . سنرى نفسه ميداناً لألوان من العواطف : عنيفة ، متناقضة ، تتجاذبه وتنهكه وتعييه ، وهو منطوٍ على نفسه ، معتكف في دنياه ، يرصد هذه العواطف الجياشة المضطربة ، ويشهد هذا الصراع ويعانى أهواله .

سوء ظنه بالدنيا ورغبته في التخلص من محنة الحياة

كيف واجه أبو العلاء مأساة الموت؟

شاع في الناس أن أبا العلاء زاهد في الدنيا منصرف عنها ، راغب في الموت مترقب له . ومن الحق أن الرجل قد أسرف في ذم الدنيا ورأى الحياة كلها تعباً ، والتنازل جريمة والوجود شراً . وقد ألح في تنفير الناس من الدنيا وتذكيرهم بشرونها ومتاعها وغدرها . وحشهم على الصدود عنها والزهد فيها . وكان إحساسه بمتاع الحياة وضيقة بالدنيا مبكراً . ففي سقط الزند أبيات متشائمة قال بعضها في عهد مبكر ( انظر مرثيته<sup>(١)</sup> لأبيه )

ذمه للدنيا

قال أبو العلاء في سقط الزند :

تجربة الدنيا وأفعالها حثت أبا الزهد على زهده ٤/٢  
ضجعة الموت رقدة يستريح الـ جسم فيها والعيش مثل السهاد ٢١١/١  
تعبٌ كلها الحياة فما أعـ جب إلا من راغب في ازدياد  
إن حزناً في ساعة الموت أضعا ف سرور في ساعة الميلاد ٢١٠/١  
على أم دفر غضبة الله إنها لأجدرُ أتى أن تخون وأن تخنى ١٩٤/١

وقال في اللزوميات :

فلا تطلب الدنيا وإن كنت ناشئاً فإني عنها بالأخلاء أربأ  
وما تُوب الأيام إلا كتائبُ تبثُّ سرايا أو جيوشُ تعباً ٤٨/١

- خسئت يا أمنا الدنيا فأف لنا      بنو الخبيسة ، أوباش أخصاء  
يموج بحرك والأهواء غالبه      لراكبيه فهل للسفن إرساء ٥٤/١
- وليت وليداً مات ساعة وضعه      ولم يرتضع من أمه النفساء ٦٣/١
- قضى الله أن الآدمي معذب      إلى أن يقول العالمون به قضى  
فهنى ولاة الميت يوم رحيله      أصابوا تراثاً ، واستراح الذي مضى ٦٩/٢
- لا تلبس الدنيا فإن لباسها      سقم وعرّ الجسم من أتوابها ١٤٢/١  
دنياك دار إن يكن شهادها      عقلاء ، لا ييكوا على غيابها
- ما الظافرون بعزها ويسارها      إلا قريبو الحال من خيابها ١٤٣/١
- رغبنا في الحياة لفرط جهل      وفقد حياتنا حظاً رغب ٩٣/١
- يؤمل كل أن يعيش وإنما      تمارس أهوال الزمان إذا عشتا ١٧٥/١
- يخوفنا أهوال ما هو كأن      ويكفيه من أهواله ما تمارس ٩/٢

وقال في الفصول والغايات :

الدنيا دار حسرات (١٠٥) ودار شقاء (١٦٠) وهي زائلة زوال الظلال (١٧٦)  
والدهر يلعب بنا حالا بعد حال . (٢٩١)

والدنيا غير واقية، ليست الحياة فيها بصافية، إن الكدر لكأس العيش مزاج . (٢٩٥)  
غفرانك اللهم ! عرفت الدنيا لو نفعت المعرفة ، وعلمت أنها أخون من الورقاء ،

وشر العلم علم لا ينتفع به . (٣٣١)

ولو كنت مؤدياً لها لثقل على أمرها (٣٥٨)

الدنيا حية عرماً ، لمعة بيضاء ولمعة دهماء ، والأيام عوارم لا تترك لحي عراماً (٤٠٢)  
ما البقاء إلا طول شقاء ، والحياة ظلمة ليس فيها إياة ، ومن السعادة أن يموت  
القوم كراماً . (٤٤٣)

### إحساس بمناعب الشيخوخة

وكان أبو العلاء - (فوق إحساسه بمناعب الحياة - يحس متاعب الشيخوخة  
ويصورها تصويراً شعرياً) فيقول في اللزومات :

إذا ما أسن الشيخ أقصاه أهله      وجار عليه النجل والعبد والعرس  
وأكثر قولاً ، والصواب مثله ،      على فضله ، ألا يحسن له جرس ٣/٢  
لاخير للفم في بسنط الحياة له      حتى تساقط أنياب وأضراس ١٧/٢

وقال في الفصول والغايات :

يرتع الحى ويبتقل ، ويعنق في حياته ويرقل ، حتى إذا الأيام تصرمت ، وحقب  
مدته تجرمت ، وجاء الوقت ، وقع من أهله المقت . (٦)  
وليس للهيم من مُكرم . (١١٤)

من هلك وهو شاب ، ما شمت ولا شاب ، فإنه لو هرم لم ولم . والكبر بئس  
المسبر : ملاً الأنف ، وأخلى الأذن من الشنف ، وجعل بيض الثنايا سودا ، وأما كنها  
وهودا . (١٤٤)

أهل البيت بالوليد فرحون ، وهم بالشيخ متبرمون : كلام هذا يستظرف ، وكلام  
ذاك خرف . (٢٦٧)

وإذا فنى صباك فلا جنوبك تحمد ولا صباك . (٣٠٣)  
فيا حالية . . . . . إنك ولدت عاطلة سلتاء . وأشرك إن عمرت درد . ونعمة

جسمك تخدد ، ورياً فيك إلى ما تعاهين . . . . . يتبرم بك ولدك فبئس ما جازاك ،  
لقد حملت فوضعت ، وغذوت وأرضعت ، وسهرت لأجله والناس نيام ، وآثرته على  
نفسك في أشياء كثيرة فما حفظك ولا رعاك .

أمل ثوبٌ فنبذ — وهريم عود فترك بالمراح . (٣٨)

سرك بقاءه أهلك ! لو سلمت الحواسُ لحد البقاء الناس ، ولكن الموت أجلُ  
بدلف مغندين ، ونهابل من الكبر مهترات . (١٠٤)

ضيقه بمأساته ورغبة في التخلص من محنة الحياة :

هذه نظرة أبي العلاء إلى الدنيا ، وهذا تصويره لما وراء البقاء فيها من متاعب  
وشيوخوخة . فأما نظراته إلى عالمه الخاص وحياته المستقلة ، فقد سمعته في المقالة الثالثة<sup>(١)</sup>  
يحدثك عن إحساسه المر بمتاعبه وضيقه بمأساته ، وعرفت خطأ الذين زعموا أنه راض  
نفسه على الصبر والرضا والاستسلام .

تمثل هذا الرجل المتشائم المتعب يواجه مأساة الموت ، ألا تنتظر منه أن يهش له  
ويرحب به ويسعى إليه ويرغب فيه ؟ أجل . . . وقد فعل أبو العلاء . تمناه واشتهاه  
وسعى إليه ، ورأى فيه البرء من السقام ، والمهرب من المحنة ، والراحة من التعب .

قال في سقط الزند :

تعب كلها الحياة فما أعجب إلا من راغب في ازدياد  
ضجعة الموت رقدة يستريح الجسم فيها والعيش مثل السهاد ٢١١/١  
وقال في اللزوميات :

رب متى أرحل عن هذه الدنيا فإني قد أطلت المقام

(١) يرى لي أستاذي الجليل أمين الخولي ، أن أجمع تأملات أبي العلاء الخاصة بمأساته ، لتكون  
موضعا لتناول فني نفسي ، قد يفسر كثيراً من عقد نفسه ، بل يفسر كثيراً من تأملاته . وأرجو أن  
أفعل ذلك إن شاء الله .

- لم أدر ما نجى ولكنه في النحس مذ كان، جرى واستقام  
فلا صديق يترجى يدي ولا عدوى يتخشى انتقام  
والعيش سقم للفتى منصب والموت يأتي بشفاء السقام ٢٢٤/٢
- إذا لم يكن خلفي كبير يضيئه حماي ، ولا طفل ، فقيم حياتي ؟ ١٨٢/١
- إن يرحل الناس ولم أرتحل فعن قضاء لم يُفوض إلى  
خلفتُ من بعد رجال مضوا وذاك شرُّ لي ، وشر عليّ ٤٣٧/٢
- موتٌ يسيرٌ ، معه رحمة خير من اليسر وطول البقاء  
وقد بلونا العيش أطواره فما وجدنا فيه غير الشقاء ٦٨/١
- كأسُ المنية أولى بي وأروح لي من أن أكابد إثراء وإحواجا ١١٢/١
- وما العيش إلا علة برؤها الردى فحل سبيل ، أنصرف حياتي ! ١٨٢/١
- متى ينتضى الوقت والله قادر فنسكن في هذا التراب ونهدأ ؟ ٤٨/١
- أيفكنى هذا الحمام تفضلا فالعيش أوثقى وشد رباطاً ٧٠/٢
- دعا لي بالحياة أخو وداو رويدك ، إنما تدعو علياً  
وما كان البقاء لي اختياراً لو ان الأمر مردود إليا ٤٣٠/٢
- إذا غدوتُ ببطن الأرض مضطجعاً فتم أفتقد أوصابي وأمراضى ٦١/٢
- إذا طُفئتُ في الثرى أعينٌ فقد أمنتُ من عيٍّ أو رمد ٣٠٢/١

وقال في الفصول والغايات :

لا أعتدل أبداً ولا أستقيم ، مغبون في الدنيا غيبين . (٢٧٠)  
كم بت وظلت ، فقد سئمت الحياة وملت . كم أبليت من المرض فما بليت (٢٨٥)  
مولاي ! قد سئمت هذه الدار وأنا فيها بخير ، فانتقلني باختيارك إلى حيث تشاء ..  
وتخير العبد على مولاه شقاق . (٢٤٨)

واسمع أبا العلاء يردد زعم القائلين بالتناسخ فيرثي لشبيهه مما يكابد :  
وما أعود إلى الدنيا وقد زعموا أن الزمان بمثلي سوف يحكييني  
وارحمنا لشبيهي في حوادثه ينكيه ما كان في الأيام ينكييني لز ٢٧٤/٢  
ولعل الكثيرين لا يعرفون أن أبا العلاء قد حاول بالفعل أن يفر من الحياة ليضع  
حداً لما يكابده فيها من أهوال تقال . (ولكن كيف الفرار؟) ودَّ لو باعه أحد بحياته ميتة  
سرحا ، واستنزل لعنة الله على من ندم :

من باعني بحياتي ميتة سرحا بايعته ، وأهان الله من ندما لز ٢٨٧/٢  
ولكن أحداً لم يملك أن يعقد له هذه الصفقة ، (فالتمس المسكين مخرجاً بالانتحار ،  
وهم به فعلاً ثم عاقه الخوف والجبل بما وراء الموت).

وقد حدثنا عن هذه المحاولة في ثلاثة كتب له وصلت إلينا : في اللزوميات ،  
وفي الفصول والغايات ، وفي رسالة الغفران .

قال في اللزوميات :

لولم تكن طرق هذا الموت موحشة مخشية ، لا عترها القوم أفواجاً  
وكان من ألفت الدنيا عليه أذى يؤمها ، تاركاً للعيش أمواجاً  
كأس المنية أولى بي وأروح لي من أن أعالج إثراء وإحواجاً ٢١٢/١

\*\*\*

ولعل قائلًا يقول إن هذه الأبيات ليست صريحة الدلالة على أنه هم بالانتحار ،

فلا يبعد أنها خاطرة أمت به . ولكن لدينا ما هو صريح الدلالة على أنه همّ بالأمر ،  
لدينا قوله في رسالة الغفران :

« قد كدتُ أُلحق برهط العدم من غير الأسف ولا الندم ، ولكننا أُرهب قدومي  
على الجبار ، ولم أصلح نخلي بإبار . »  
٢٠٢/١

(وقوله في الفصول والغايات : « لو أمنت التبعة ، لجاز أن أمسك عن الطعام  
والشراب ، حتى أخلص من ضنك الحياة ، ولكن أُرهب غوائل السبيل ! » (٦٢٠)

\*\*\*

إلى هنا نرى الرجل وانحماً مفهوماً : متعب متشائم يأس ، ضاق بمحنته ، وضاق  
بشورور الدنيا ، فاشتبه الموت وتمناه .

وهذه الصورة التي عرضناها لأبي العلاء تلائم رأى الناس فيه وفكرتهم عنه .  
ولكننا نعرض عليك بعد هذا ، صورة أخرى لأبي العلاء .

## ٢

### صورة أخرى لأبي العلاء

فزع الرهيب من الموت — وتشبته بالحياة

رأينا أبا العلاء في المقالة السابقة ، يسرف في ذم الدنيا إسرافاً لا حد له ويلعنها في  
قسوة وإلحاح . رأيناه يئن من هول ما يكابد من متاعبه الخاصة ، ويفزع إلى الموت  
يلتمس فيه المخلص والمهرب .

والآن نزيح الستار عن جانب آخر من نفس أبي ، العلاء فإذا هو يبدو في صورة  
أخرى مختلفة كل الاختلاف عما رأيت وسمعت .



فزع من الموت :

هذا الرجل المتعب الشاكي المتشائم ، يفزع من الموت فزعاً رهيباً ، ويتمثله تمثلاً  
عنيفاً ملحاً لا ينفك عنه

فلنصغ الآن إلى هذه النعمة الجديدة ، تصدر عن ذلك الإنسان المضطرب الحائر .  
ولنرقبه وهو يعاني صراعه العنيف ، وعواطفه المتناقضة ، وإنا لو اجدون إن شاء الله  
ما يفسر اضطراب الرجل وتناقض عواطفه وأقواله .

\*\*\*

الموت يقين — يقين لا شك فيه ، وحق لا ريب فيه ولا ممرأة . بهذا كان يؤمن  
أبو العلاء . قال في الزوميات :

سنتبع آثار الذين تحملوا على ساقية من أعبد وإماء  
نهاب أموراً ، ثم نركب هولها على عنت ، من صاغرين قماء ٦٤/١  
وما نفس إلا يباعد مولداً ويدنى المنايا للنفوس فتقرب ٨٣/١  
وللموت كأس تكره النفس شربها ولا بد يوماً أن يكون لها شرباً ١٠٠/١  
مضى أناس وأصبحنا على ثقة أنا سنتبع ، فالأشجان تعتلج  
إن أدلجوا وتختلفنا وراءهم شيئاً يسيراً ، فإننا سوف ندلج ٢٠٧/١  
جميع الذي نحن فيه النفاق ونلحق بالذاهب الزائل ٢٤٤/٢  
أما اليقين فإننا سكن البلى ولنا هناك ، جماعة فراط ٦٧/٢  
أما الحقيقة فهي أنى ذاهب والله يعلم بالذي أنا لاقى ١٣٩/٢  
والموت أصدق حادث وأصحه وكأنه كذب يسر فينغم ٢٧٥/٢  
خلقنا لشيء غير باد وإنما نعيش قليلاً ، ثم يدركنا الهلك ١٤٢/٢

وقال في الفصول والغايات :

أضح وأمس ، وأيقن بالرمس ، نبأ غير لبس ، ما أشبه غداً بالأمس ! (٢٥٤)

وأعلم أن الملحد آخر منزلي . (٢٧٢)

سريا منسر فالقياس لا ينكسر ، إن المنايا عنك منقبات . (١٩٣)

أعظم بعزتك ( يارب ) . ذهب الأبد وأنت لا تحول ، لأعلم كنهك ولا أهوء وأوقن أنى في الغد أموت . (٢٧٤)

أمر الآخرة جد ، وأمر الدنيا جد ، وسيصرم الإنسان ويجد ، كما ذهب الأب والجد (٢٢٧)  
وكلنا إلى ذلك المنزل نؤوب . (٢٥٠)

### نحمد الرهيب للموت

( وقد فرغ أبو العلاء من هذا اليقين فزعاً رهيباً ، وتمثله تمثيلاً قوياً عنيماً ، ولم يكن ينفك عن تذكره وتذكير الناس به ) قال في اللزوميات :

وإن حبال العيش ماعلقتُ بها يد الحى ، إلا وهى تخشى انقضابها ١٠٢/١

والموت كأس تكره النفس شربها ولا بد يوماً أن يكون لها شرباً ١٠٠/١

وقال في ملقى السبيل :

مرّ أبى تابِعاً أباه ومُدّ وقت ، فكم أعيش ؟

تطيش نبل الرماة منا وأسهم الختف لا تطيش !

ولم يزل للهنون جيش تُفل من ذكره الجيوش

يحث بالنعش حاملوه وشد ما سارت النعوش

وقال في الفصول والغايات :

تجهز للظعن أيها المقيم ، إن أمامك بواكر الأحداج . (١٨٤)

يا ابن آدم ، علقته من الدنيا بأضعف مرس ، فهل لحشاشتك من حرس . فامهد  
لضجعتك يا صاح ! (٣٤٨)

وانظر على أى رحل تتركب ، فنفسك مرتحلة مع المرتحلات . (١٥٥)

أظننت الإقامة ؟ فكذب الظن ، ألا تأهب للرحلة فالمكر على جناب . (٤١)

وابك نفسك وأنت حى ، فكنا يلحق بالأمم المتقدّمات . (١٤٣)

وابك على نفسك بدموع أسراب . (٥٧)

وإذا اغتبطت ، فاذكر ما يطرق به الموت من السكرات . (١٠٤)

غدت المنية بنبل كالوابل ، وسهام ألطف من الأوهام . (٢٩)

واسمع أبا العلاء يتمثل الموت ويتفنن فى تمثله ، فهو مرة وحش يفترسنا ، وهو مرة  
سيف يقطعنا ، وهو مرة ثالثة أسر يأخذ بنواصينا ، ونحن معشر الضحايا الضعفاء  
نشهد هذا فى سوانا ومنتظر دورنا .

وما زالت الأيام وهى غوافل تسدد سهماً للمنية صائباً لـ ١٠٣/١

وتأكلنا أيامنا ، فكأنما تمر بنا الساعات وهى أسود ٢٤٣/١

والمنايا كالأسد تفترس الأحياء ، جميعاً ، ولا تعاف القليبا

تفرع الشامخ المنيف من الشمّ وتهوى فتستبيح القليبا ١١٥/١

تلقى المقادير فى آنافهم خطلاً يقــــدمنهم لمناياهم بأرسان ٣٧٠/٢

والخنف كالنائر العادى يصرعنا والأرض تأكل ، هلاكتنى الضبع !؟ ٨١/١

وقد بدا لأبى العلاء كأن هذا الغول الرهيب يطاردنا ويقف لنا بالمرصاد ، وهو  
يلح فى طلبنا ، لا يهدأ حتى يظفر بنا وإنه لظافر مهما أمعنا فى العدو ، أو اعتصمنا بالمعقل  
واللأمن . هو غالب ، قاهر ، باطش ، لامفر منه ولا عاصم ، ولا رقية ولا طب .

قال في سقط الزند :

يا دهر يا منجز إبعاده      ومخلف المأمول من وعده !  
تستأسر العقبان في جوها      وتنزل الأعصم من فنده  
كأننا في كفه ماله      ينفق ما يختار من نقده

وقال في ملقى السبيل :

يا ابن آدم ، كم تحرس وتحترس والموت أسد مفترس ؟

أيحترس المرء من حتفه      وما حاد عن يومه المحترس ؟  
هل الناس إلا نظير السوا      م ، وآجالهم أسد تفرس ؟  
يحُل الربي ، ويحُل الوهو      د ، ولا بد للربيع أن يندرس  
العاجلة سبيل منفوذة ، والأنفس بحق مأخوذة . لا الدرع تنفع ولا الخوذة .  
لاسقية أغنت ، ولا رقية      ولا تميات ولا عوذة !

\*\*\*

وقت عُدد لديه فمن دروع      وأسياف ينوء بها عديد  
بدا شخص المنون لناظريه      وقيل له : أتبدى أم تعيد ؟  
تفرقت الجنود فما حتمه      وأبطلت المواعد والوعود

وقال في الفصول والغايات :

أيها الوعل الوقل ، والطائر المستقل ، والمكثر والمقل ، والمسافر والمنتقل ،

(٥)

الا يعصمك معقل

إن النية أخذت الدرّة من الوالدة ، والدرّة من الوليد ، وهجمت الغاب على الضارية ،  
ونخدر على الجارية ، وأتت وجار الحشرة . . . فغالت الوحوش الرأعات . (٢٣٠)

يا ويح الإنس ، حملوا القنا للشر من الأشر . وإذا حضر القدرُ لم يغن القنا عن  
المشرعين ، والموتُ جامع بين الطفل والمهرم ، ولك يا غراب حباله عند الوكر ،  
ولو كان في أعلى نيق . (٢٥٩)

والقدرُ يضع المسدَّ في أعناق ليوث الأسد (١٦٣)

وقدرُ الله يفترس المفترسات . (١٦٨)

أيها المنتبذ ، كن في النيق أو الجر ( أعلى الجبل أو أصله ) ، لورقيت إلى السماء  
بِكْر ( جبل ) ، ما وجدت لك من مفر . (٣٥٣)

وإن تصبحوا وراء شق الثعلب ، فالقدر معكم . لا فرار من قضاء الله ، فاصبروا  
على ما حكم إنه واعي الكلمات . (١٢٦)

لا ينجي النفس اعتصامها ، يسلمها في الغد عصامها ، ولو كان عند الجوزاء مصامها (٢٧٤)  
إن الآجال كأنها الرجال ، بنت الظلل على القلل . ونظرت من يمر بالسبيل ،  
فما خفي عنها راكب ولا صاحب حذاء . (٢٤٣)

وقال في اللزوميات :

كن حيث شئت بلجة أو ربوة أو وهدة ، سينالك التيار ٣٢٩/١

ودرعك إن وقتك سهام قوم فما هي من ردى يوم وقاء ٥٤/١

فارقبي يا عصماء يوماً ولو أنك في رأس شاهق ، عصماء ٥٨/١

إن دنا من فارسٍ أجلُّ حارَّ لا يجرى به الفرس

كل من حانت منيته لم يدافع دونه حرس ١٠/٢

أظعن أنت ، أم راس على مضض حتى تخونك من دنياك أمراس ؟

هل تمنعك بيض أو متقفة أو ينجينك أجمال وأفراس ؟ ١٧/٢

ودرع الفتى في حكمه ، درع غادة وأبيات كسرى من بيوت العناكب ١٢٣/١

- تبعنا في كل نقب ومخرم منايا لها من جنسها نقباء ٤٥/١
- إذا كان القضاء يجيء حتما فما هذى المغافر والدروع ؟ ٧٤/٢
- هذى القضايا فمن يطاولها؟ وهي المنايا فمن يخاشنها؟  
لم يثن عن فارس وحيرها دروعها الموت ، أو جواشنها  
ولا قصور لها مشيدة قد موهت عسجداً رواشنها ٣٣٨
- والموت طب ليس يبرئه الحكيم وإن تطب ١٥١/١
- بكر الطيب على الدواء ، وللردى كأس تم صحاحها ومراضها ٦٠/٢
- ويدعو الطيب المرء وافته حينه رويدك ! إن الأمر جل عن الطب ١٢٠/١
- كل علم الطب عن مرض الموت ، وقد ناب فيه كل مناب ١٤٧/١
- رقنتي الرقيقات وحُم يومي ففادرتني كأني ما رقيت ١٦٩/١
- شكا الأذى فسهرت الليل وابتكرت به الفتاة إلى شمطاء ترقيه  
وأمة تسأل العراف قاضية عنه النذور ، لعل الله يبقيه  
وأنت أرشد منها حين تحمله إلى الطيب ، يداويه ويسقيه  
ولو رقي الطفل عيسى أو أعيد له بقراط ، ما كان من موت يوقيه ٤١٢/٢

نبهة بالحياة :

أرأيت كيف كان فزع أبي العلاء من الموت ، وكيف كان تمثله له ، وإحساسه بمطاردته لنا ، وإلحاحه في طلبنا ؟ ولكنك لم تسمع بعد أروع وأعنف ما قال أبو العلاء في الفزع من الموت ؛ سمعته يتناول المسألة تناولاً عاماً ، ولم تسمعه يتحدث عن رعبه وارتياحه من الموت .

إن الناس قد عرفوا أبا العلاء زاهداً في الدنيا كارهاً لها ، مرحباً بالموت راجياً له ،  
ولكن الكثيرين لم يعرفوه متشبثاً بالحياة فزعاً من الموت ؛ فاسمعه الآن يعرض نفسه  
ويحدث عما يجد ، وهو يرقب الموت يقول سواه ، وينتظر دوره خائفاً متشبثاً بالحياة :

أروم خلاصاً من قضاء مسلط على ، توخى قاهر الناس بالقهر لـ/١٢٢

لو كانت الريح تحتى ما نجوتُ بها فكيف أنجوبذات الشد والحضر؟ لـ/١٣٨٠

ولم أرد المنية باختيارى ولكن أوشتك الفتيان سحبي

ولو خيبت لم أترك محلى فأسكن فى مضيق بعد رحب لـ/١٣٢

وحبائل الدنيا تزيد على الحصا وأقل أنفاسى أدق حبائلى لـ/٢٢٨

وكيف أفضى ساعة بمسرة وأعلم أن الموت من غرملئى؟ لـ/١٦٤

أعلل مهجتى ويصيح دهرى ألا تغدو ، فقد ذهب الرفاق ؟ لـ/١٢٢

يمز الحول بعد الحول عنى وتلك مصارع الأقوام حولى

كأنى بالألى حفروا لجارى وقد أخذوا المحافر وانتحوا لى لـ/٢٣١

وقال فى الفصول والغايات :

(٢٣٣)

كرهتُ المنية وأيتها .

كم أغدر وأنكث ، أمل أنتى أمكث ، والمنية آخذة بالناصية أخذ الآسر

(٢٤١)

بناصية الأسير .

شغلنى عن النسب ، وقول فى النسب ، أنى أسلك من الحمام نيسباً ، أذهبَ النوم

وأطال الأرق ، وأقلَّ رغبتى فى الشرف ، أنى لا أجد عن ذلك مذهباً . . .

(٤٢٢)

جلّ البارئ ! هل تحمل هذه النكبة منكباً أضاخ ؟ ( جيل )

(٣٠٩)

على للمنايا دين !

كأنى قتلتُ للمنايا أهلاً ، فهي تنقب عنى حزناً وسهلاً ، تطلب عندى  
الترات !

(١٠٥)

أطلب من المنايا حزراً ، هل أجد عنها معترراً ؟

(٣١٠)

لو لبست درعاً أريد للمنايا دفعاً ، لأزارتنى رؤوس الأرقام ، وأنا فى مثل برودها  
من الحديد الواقم !

(٢٠٩)

وقعت فى الحباله فليس إلا التسليم ؟ وكيف حال قنيص أخذ معه أمثال كثيرة ،  
فنظر إلى الأمثال تعبت ، وقد علم أنه سيعيد المدينة له معيد ؟

(٢٩٥)

إنما أنا فرير فى ربقى ، قد أعدت له المدينة ، يُنتظر به أمرُ الملك ، فتجرى الشفرة  
على الأوداج .

(٢٨٣)

\*\*\*

ويشند فرع أبى العلاء من الموت وتشبهه بالحياة ، فيرتعد ويئن ، وتصدر عنه  
الكلمات شاكية صارخة بكاءة ، تذكرك بنذب النائمات ، وأنين الشكلى ،  
ونواح الباقيات .

أعِنْ باكياً لَجْ فى حزنه وسل ضاحك القوم : مم ابتهج ؟ لز/١٢٣

وإن كنتِ شاديةً فاصمتى وإن كنتِ باكيةً فاصدى ١/٣٣٥

يُهبال التراب على من ثوى فآه من النبأ الهائل ! ٢/٢٤٤  
وقال فى الفصول والغايات :

آه من ماء لا يسوغ ، ونفس لا تسمح به الأنوف ، وأنا ملقى أفوق - ذلك مسلك  
مسلك ، تعبس به عند الهلوك .

(٢٠٥)

ما يقول الخلخال فى رجل الكاعب ... إنه يحلف أن الحالية ستعطل ، وأخذلة ...  
سترم ، والناعمة ستبأثر التراب !

(٣٢٨)



أتدرى ما يقول المزهري أيها الطرب الجذلان؟ ستذوي الروضة، وترم القينة،  
(١٨) ويموت الشرب، وتصبح الديار آيات.

يا سوار الكاعب كم رأيت ذهبك من عين؟ متى عهدك بمعذتك؟ لقد بقيت  
وفني مدخروك! يا ضاحك لتبكين، ويا منزل لتوحشن، ويا شمل إنك  
(٨٧) رهين بشتات.

أه من شمل شت، وجبل منبت، لا يصله الواصلون.  
أيها النفس المجيشة مهلاً! قرب ممانك فلا تقولى كلاً! بليت وحسرتك  
(٣٩٤) لا تبلى.

ثم اسمع هذا الحوار المر العجيب:

« يا جُواب الأرض، هل مررتم بقطر لا يصبوب فيه القطر؟ نعم، في الأرض  
بلاد لا تجودها الأمطار.

« فهل أحسستم بعطرة ليست بذات مقطرة؟ أجل، إن كل روضة كذلك.

« فهل سمعتم بمكان ليس فيه للموت استمكان؟ هيهات هيهات!! إن الموت

(القصود ٢١)

نزل على الجبل والبراث».

## أسباب فزعه من الموت

- ١ — لم يبرأ من حب الدنيا ؟
- ٢ — الخوف والجهل بما وراء الموت .
- ٣ — الموت هو المأساة الإنسانية الكبرى .

تقف هنا لتسأل فيم يفزع أبو العلاء من الموت ؟ أليس متعباً والموت راحة ؟ ألم يضيق بمحنة الحياة ويعتبرها جناية جناها عليها أبواه ؟ ألم يصرخ ويئن من هول ما يكابد في حياته ؟ ثم ماذا وراء البقاء ، غير الشقاء والشيخوخة والملل ؟ لم يتشبث بالحياة مثل هذا المتعب المتشائم ؟

ما أسهل أن يقال إن أبا العلاء يترجم في الحالين عن حالة نفسية ! فهو يضيق بالحياة حين تلح عليه الهوموم ، وهو يفزع من الموت حين يهدأ ويهناً . ذلك تعليل لاضطرابه وتناقضه يسيعه علم النفس ، ويؤيده الواقع المشاهد . فكل منا تمر به هذه الحالات ؛ يحزن قسوة الدنيا في وجهه ويود لو يخلصه الموت ، ويفرح فيقبل على الدنيا ويشتهي طول العمر .

ما أسهل أن يقال ذلك في أبي العلاء ! ولكنه قول يصدر عن الفهم اليسير والنظرة العاجلة . فأما إذا أبعدت في الفهم وأمعنت النظر ، فسترى أن أبا العلاء لا يفزع من الموت حين تقبل عليه الدنيا ويهناً بالحياة . ومتى كان المسكين راضياً عن حياته هنئاً بها ؟ ستري أنه يجزع من الموت وهو ضيق بحياته ، دقيق الحس للمأساة ، متنبه لآلامه ومتاعبه .

نحن في حاجة إذاً إلى أن نلتمس أسباباً تفسر لنا تناقضه واضطرابه ، وتعلل لنا جزعه الصارخ من الموت ، مع ضيقه بالحياة ، وضجره منها ، وتنبهه لآلامه ومتاعبه .

١ — حب الدنيا :

السبب الأول لفرع أبي العلاء من الموت وتشبته بالحياة ، أنه لم يبرأ قط من حب الدنيا .

قائلة غريبة تبدو شاذة مع ما اشتهر به أبو العلاء من مقت الدنيا ، وزهده فيها ، وانصرافه عنها . ولكنها على غرابتها حقيقة واقعة ، خفيت على الناس دهرًا طويلاً ، لأنهم خدعوا بوهم مكذوب ، هو زهد أبي العلاء في الحياة وانتصاره على الدنيا . ولكن الناس معذورون ، فهذا الوهم قد خُدع به أبو العلاء حيناً من الدهر ، والتمس فيه السلوى والعزاء .

\*\*\*

كان أبو العلاء كما تعلم موفور الحظ من متاعب الدنيا ، وقد حاول أول الأمر أن يتناسى محنته ، فواجه الدنيا متكفماً الجرأة والشجاعة . وخرج إليها يتحداها ويفرض نفسه عليها ويستصغر ما يصيبه منها . وقد عرفنا في المقالة الثالثة كيف سخرت الدنيا بهذا التحدي ، ورأيناه ينسحب إلى قريته ويأوى إلى عزلته حزيناً مهموماً .

هذا شيء ، فصلناه من قبل ولن نعيد الحديث فيه . إنما الحديث عن تلك اللحظة الحاسمة التي اعتزل فيها أبو العلاء ، والتي كثرت فيها الأقاويل .

هل فرغ أبو العلاء في هذه اللحظة من الدنيا وانصرف عنها ؟ قال ناس أجل ! لقد انتصر على الدنيا وداسها بقدميه . تجمت له فسخر بها ، وأعرض عنها وعاف ملذاتها جميعاً ، فكان أن انقادت الدنيا إليه .

قال اليميني عن رجوعه من بغداد :

« ولا بد<sup>(١)</sup> أن تطلع نفسه وفيه بقية من حب الدنيا . . . ولكنه لما روض نفسه

(١) « أبو العلاء وما إليه » ص ١٧٤

وقنعها على الكفاف ، عاد شماسها انقياداً ، وألقت إليه مقادراً .

انقادت إليه الدنيا ؟ متى كان ذلك وكيف كان ؟ ألا إنه لوهم مكذوب ، خدع به الناس ، (وخدع به الرجل نفسه) ؛ فكتب إلى خاله يقول : إن أهل بغداد لم يسمعوا بعزمه على السفر ، حتى ارتاعوا له ، وألحوا في نهيه عنه ، وبدلوا له الأموال ، ورغبوه في ألوان النعمة فأبى ذلك كله ، وكان نفسه انصرفت عن الدنيا أتم الانصراف .

ويصور أستاذنا الدكتور طه حسين بك هذا الوهم الذي ألم بخاطر أبي العلاء ، فيقول على لسانه حين لزم بيته سنة ٤٠٠ :

« مالي <sup>(١)</sup> ولدنيا ، لقد أتيتها كارهاً ، وعاشرتها كارهاً ، ولأخرجن منها كارهاً ، ولقد ذقت من لذاتها ما لم أرج ، واحتملت من آلامها ما لم أحسب ؛ فإذا اللذة إلى ألم ، وإذا السعادة إلى شقاء ، وإذا الأمل إلى يأس ، والرجاء إلى قنوط ، إنى لأحق إن لم أطرحتها قبل أن تطرحني ، وأزدرها قبل أن تزدريني ، وأملأ قلبي عن لذاتها بالعزاء النافع والصبر الجميل ! » .

هذا ما طاف بوهم أبي العلاء حين لزم بيته ، فهل تحقق له وأفلح فيه ؟ هل انصرف عن الدنيا أتم انصراف ؟ هل قوى على ازدرائها ، وملاً قلبه بالعزاء النافع والصبر الجميل ؟

(كلاً ! لم ينتصر إلا على ملذاتها التافية ، زهد في الطعام والشراب وصحبة الناس . لكن زهده لم يكن إلا اعترافاً مرّاً رهيباً بتفاهة هذه الملذات إلى جانب ما كان يرجو ويطمع .

كان يرجو أن يحشد له كل نعيم الحياة ، فأعجزه قصور المادة وعجز الكيان . وبقيت له بعض ملذات مادية تافية ، عرضتها عليه الدنيا في إشفاق ، كما يعرض المحسن قرشاً على فقير .

ما أتفه ما تتصدق به الدنيا عليه ، إلى جانب ما كان يرجو ويطمع !  
(فكر في الأمر ، ثم انتهى إلى الرضى والتعفف) . مثله مثل رجل ممتاز هياته ملكاته  
إلى الظفر في حلبة السباق ، ثم قصرت به قواه عن بلوغ الغاية فانسحب . ومن قبل  
قال الأمير أبو فراس :

وإنا لقوم لا توسط بيننا لنا الصدر دون العالمين أو القبر  
أراد أبو العلاء لنفسه أمراً ، وأراد له القضاء أمراً ، فكان ما أراد القضاء .  
خلقه الله لأمر حاول سواه فعجز . فماذا يفعل ؟ هل يأبى من ملك ربه فيخرج من  
أرض له وسماه ؟ ليته يستطيع ! ولكن بشريته تخذله ، فما كان منه إلا أن انطوى  
على نفسه يرصد أحزانها ، متكلفاً الصبر ، فظن الناس به الزهد .

وقال الفارسون حليف زهد وأخطأت الظنون بما فرسته  
ورضت صعاب آمالي فكانت خيولاً في مراتعها شمسه  
ولم أعرض عن اللذات إلا لأن خيارها عنى خسنه لزر ٢/٣٥٣

طال صبرى ، فقل أكنم شعباً ن وإنى لمنطو طيمان ٢/٣٩٣  
(حاول الرجل أن يصارع القدر ويظفر بما أراد لنفسه ، فألقى القدر غالباً قاهراً  
لا يعاند . عاد إلى نفسه يقاوم ما فيها من حب الحياة ، ويجاهد أن يروضها على  
الرضا والصبر والاستسلام ، فما استطاع . وهو يصور لنا ذلك الصراع المزدوج ! صراعه  
مع الدنيا ومع نفسه ، ويصور فشله فيه تصويراً رهيباً ، يثير الحزن والألم ، ويبعث  
على الإشفاق والرتاء) .

كتب إلى خاله أبي القاسم عند خروجه من العراق :

« ولما فاتنى المقام بحيث اخترت أجمعت على انفراد . »

وكتب إلى أهل البصرة :

« فشاهدت ( في بغداد ) أنفس مكان لم يسعف الزمن بإقامتي فيه ، والجاهل  
مغالب القدر . »

وقال في اللزوميات :

صحت عيشاً أعانيه ويغلبني مثل الوليد يقود المصعبَ السدما  
وقد مللت زماناً شره هب إذا دنا نخبو ، عاد فاحتما ٢٨/٢

تنازعتني إلى الشهوات نفسي فلا أنا منجح أبداً ، ولا هي ! ٤٢٢/٢

أريد ليلان العيش في دار شقوة وتأبى الليالي غير بئحل وليان  
ويعجبني شيئان : خفض وصحة ولكن ريب الدهر غير شيان  
وما جبل الريان عندي بطائل ولا أنا من خود الحسان بريان  
أريد عليات المراتب صلالة وخرط قتاد الليل دون عليان ٣٦٣/٢

تضاعف هي أن أتني منيتي ولم تقض حاجي بالمطايا الرواقص  
وما على إن عشت فيه بزائد ولا هو إن أقيت منه بناقص ٥٧/٢

إله الأنام ورب الغمام لنا الفقر دونك ، والمملك لك  
إذا أنا لم أغن في لذة أسفت ، وضاق على الفلك ١٦٨/٢

أريد الإناخة في منزل وقد حُدت لسواه جمالي  
فمن مخبري أغريق البحر ألقى الردي ، أم دفين الوصال ؟  
هويت انفرادي كما يخف عن أعاشر ثقل احتمال  
أما لي فيما أرى راحة مدى الدهر من هذيان الأمالي ؟ ٢٤٣/٢

وقال في الفصول والغايات :

إنما أنا كرجل مُبلى بالصدى ، لا يجد ورداً ولا مورداً ، فهو ظمآنُ أبداً : إن ورد  
غروفاً (بئراً يعترف منها باليد) وجده مضموقاً (كثيراً ورأده) ، وإن صادف تزوّجاً  
(بئراً يجلب ماؤها) ، أعوزته الآلة والمعين . (٢١٦)

أرتفع والقدر يكبني — يألبنى دائماً ويلبني . كم أستنسر وأنا من البغاث ! (٢١٦)  
وإن الله خلقني لأمر ، حاولت سواه فألقت المبهم بغير انفراج . وفظام ابن عامين  
أيسر من فظام ابن الأعوام . . وأعيأ تأديب الهرم على الأدباء . (٢٣١)

قد فررتُ من قدر الله ، فإذا هو أخو الحياة . هل أطأ على غير الأرض أو أبرز  
من تحت السماء ؟ (٢٥١)

ودّ لو يستطيع ، ولكن بشريته خذلته .

ويزعم بعضُ الناس بعد ذلك ، أنه انتصر على الدنيا وسخر بها ، « فعاد شماسها  
انقياداً ، وألقت إليه مقادراً !

ألا إنه لوهم تشبث به الرجل ، وأمل طاف به في أحلام اليقظة ورؤى المنام ، وتمثله حقاً  
فمضى يسخر بالدنيا .

ولكن الحقيقة تعرّت باطشةً رهيبة :

فإذا الوهم مكذوب ، وإذا الأمل سراب !

لم يسئلُ الرجل عن حب الدنيا ، ولم يبرأ من هواها ، ولم ينتصر عليها ، بل خرج  
من النضال وإن قلبه لينوء بحب الدنيا والحنين إليها ، وإن كيانه ليرزح تحت هوى  
مُلحٍ ثقيل الوطأة .

أحبها بقدر ما كرهها ! وكان قصوره عن الالتصـار عليها يزيد حبه ضراماً .  
وكانت وطأة الحرمان تزيد حنينه عنفاً وسعيراً .

عرفها غادرة ، خادعة ، قاسية .

ولكنه برغم ذلك أحبها . أحبها وإن كرهها ، وقتن بها وإن اصطنع الصد عنها .  
وحن إليها ، وإن زهد فيما أباحت له من تافه الملهذات .

كان يريد أن ينتصر عليها . . . أن يملكها ، ويحتوي كل مجدها ونعيمها . . .  
ولكن بشريته تخذله ، ومادته لا تسعفه . بخار بالشكوى . . . وصاح بها أنه  
يمقتها ويكرهها ويزدريها ، لكنه مع ذلك ظل يهواها .

أظن ذلك حديث خيال وصنعة كلام ؟ إذا فاسمع أبا العلاء يحدث عن حبه للعالمية  
ويثنى مما يكابد من هواها ، ترنا غير مسرفين ولا خائلين . قال في سقط الزند :

وجدنا أذى الدنيا لذيداً كأنما جنى النحل أصناف الشقاء الذي تجني  
فأرغبت في الموت كدراً مسيرها إلى الورد خمس ، ثم يشرب من أجن  
يصادفن صقراً كل يوم وليلة ويلقين شراً من مخالبه الحجن  
ولا قلقات الليل باتت كأنها من الأين والإدلاج ، بعض القنا اللدن  
وخوف الردي آوى إلى الكهف أهله وكلف نوحاً وابنه عمل السفن  
وما استعذبتهُ روح موسى وآدم وقد وعدا من بعده جنتي عدن ١٩٦/١

وأمل في رسالته إلى أبي نصر بن يوسف ، حين استدعاه إلى حضرة الأمير  
عزيز الدولة :

« وإن العامة رأتنى مضطراً إلى القناعة فقالت زاهد . وأنا في حب الدنيا جاهد » (١)

وقال في اللزوميات :

نحن البرية أمسى كلنا دنفاً بحب دنياه ، حباً فوق ما يجب ٨٥/١  
وكلمكم يبدى لدنياه بغضة على أنه يخفى بها كمد الصب ١٢٠/١  
لو أن عشقتك للعالمية له شبحٌ أبديته ، ملأت السهل والجبال ١٩٣/٢



والنفسُ آفةُ الحياة فدمعها يجرى لذكر فراقها ، مُنهله ١٨٣/٢  
أشربتُ حُبَّكَ لا ينفيه عن جسدي سوى ثرعى لدماءِ الإنس شراب ١٣٣/١  
وصدقتُ هذا العيشَ في حبي له واغترني بخداعه وكذابه  
عذبٌ يعذبني البقاء ، وللردى يوم يخلصُ من فنون عذابه ١٣٩/١  
شقينَا بدنيانا على طول ودها فدونك مارستها حياتك واشقتها  
ولا تظهرنَّ الزهدَ فيها فكُلنا شهيد بأن القلب يضمِر عشقتها ١٢٩/٢  
وقال في الفصول والغايات :

ونفسنا بالحياة شحاح . (٢٤٣)  
لم أركال الدنيا عجوزاً قد اشتهر خبرها بقتل الأزواج ، وهي على ما اشتهر كثيرة الخطاب (٧٣)  
أيتها الدنيا البالية ، ما أحسن ما حلثك الحالية . . . والنفسُ عنك غير سالية ! (١٤٩)  
بي طَب فإين أستطب ؟ أنا تحت حُب الدنيا مُحِب (رازح) ، أثقلني فأنا مُكَب (٢٤٠)  
قلتني دنيای فما قليتها . . . قد كرهتُ المنية وأيتها . (٢٣٣)  
زويت عنى الدنيا فأسفت ، وأشفقت لذلك وخفت ، وأحبت لها وشنفت ، ولو  
أنصفت لعنت ما أستوبله ( ما أجده وبيلا ) ، فما نثفت ( ما أصبت شيئاً منه ) (٣٤٨)  
(مولای) لا أأکتک ما أنت به عليم ، إن أسقى على الدنيا لطويل ! (٢٤٣)  
أحب الدنيا كأنها تحبني ، والغريزة عن الرشد تذبني . (٢١٥)  
رضيت بالحضض على مضض . (٢٣٦)  
أحب الدنيا وآلتها ليست في ، وقد يئستُ من بلوغها واليأس مريح ، فإلام التشوف  
والضلال ؟ ولو كنت مؤدياً لها لثقل على أمرها . (٣٥٨)

\*\*\*

(هذا أنين النفس المحرومة ، وتأوه القلب المكروب). هذه شكاة الرجل الذى

أحب الدنيا ، ثم تكلف الصدود عنها ، (وجرى في وهمه أنه تسلى .  
قال في اللزوميات .

أيها الدنيا لحاك الله من ربه دل  
ما تسلى خلدى عنك وإن ظن التسلى

\*\*\*

٢ - مهرد وضوف مما وراء الموت :

رأيت أبا العلاء لم يبرأ من حب الدنيا ، وأن هذا الحب كان يربطه إلى الحياة  
ويغريه بالتشبث بها . ولعل هذا كان يكفيننا في تعليل جزعه الصارخ من الموت  
لو أن أبا العلاء كان سعيداً راضياً . ولكننا عرفناه متشامماً ، ضيق الصدر بهوموه ،  
يأئساً من بلوغ ما يشتهي . ومثله جدير بأن يسكن إلى الموت ، ليخلص مما يكابده من  
متاعب الحياة ، وأهوال الصراع بينه وبين الدنيا .

مثله جدير بأن يرجو المفر من محنة الحياة ، ولكن إلى أين ؟

إنه لا يعرف ماذا وراء الموت ، ولا يدري ما يلقاه هناك .

لقد عاش في ظلام ، وهو يجزع ويرتاع كلما فكر في الجاهل المظلمة التي يقذف به  
إليها حين يموت .

الموت راحة ؟ من يضمن له ذلك ؟

وإن يكن في موتنا راحة فالفرج الوارد مننا قريب لـ ١٥٥/١  
لو اطمأن أبو العلاء إلى ذلك ، لوضع حداً لما يكابده ، ولنزع إليه يدفن فيه  
آلامه ومتاعبه وحبه اليأس ، وآماله المحطمة ، وأشواقه المكبوتة !  
ولكن هيهات ! الخوف يربعه ، والجهل والشك يرهقانه .

قال في سقط الزند :

جهلنا فلم نعلم على الحرص ما الذى يُراد بنا ، والعالم لله ذى المن

إذا غُيب المرء استمر حديثه ولم تخبر الأفكار عنه بما يعنى ١٩٥/١

\*\*\*

وقال فى اللزوميات :

وان أعفَ بعد الموت مما يرينى فاحظى الأدنى، ولا يدي الخسرى ١٧٩/١

آه لضعفى كيف بى هابطاً فى الواد ، أو مرتقياً فى العقاب ١٥٦/١

فمالى أخاف طريق الردى وذلك خير طريق سـُـلك ؟

يريحك من عيشة مرة ومالٍ أضيع ، ومالٍ ملك ١٦٩/٢

لعل الموتَ خير للبرايا وإن خافوا الردى وتهيبوه ٤٠٣/٢

أوجالُ نفسى فى الأولى مضاعفةً ولا أزال من الأخرى على وجل ! ٢٢٠/٢

وقال فى الفصول والغايات :

والطفُ مولاي بضعفك إذا اقترى ، ونزل إلى بطن الأرض عن القرى ،  
ضيفك ولكل ضيف قرى ، بما أجدرك بالرفقة وما أحرى ! (٤٩)

الدنيا فانية ، والنفس لا تأمن التبعات .

ويلم القبر مسكناً لا ترفع له الجدران . (١٤٤)

ويجى إذا الوقت نغد ، ونزل حمى فأفد ، وقوى نهوضى ورفد ، وكأنه

قد غلّ وصفد . . . . . (٨١)

حداً لك إلهى ، لا أعلم وقت إسكانك لى فى دار البلاء ، وقد عشت فيها ماشئت ،

وأعيش فيها ما تشاء ! وأنا شاك إليك أثقال الزمن ، فإذا قضيت عنها الرحلة

فأعنى على تلك الغصص والعمرات ، فإنى منها فرق ، وبنى من الحياة ملل . (١٩٦)

\*\*\*

وقد مرّ بك ، أن الرجل همّ بالتخلص من محنة الحياة ، فردّه عن ذلك خوفه وجهله

بما وراء الموت .

قال في اللزوميات : ✕

لولا خشية المنقلب لكنت أحد الفائزين .  
لو لم تكن طرق هذا الموت موحشة مخشية لاعتراها القوم أفواجاً  
كأس المنية أولى بي وأروح لي من أن أكابد إثراء وإحواجاً ٢٠٢/١  
وقال في الفصول والغايات :

لولا خشية المنقلب لكنت أحد الفائزين . (٢٨٠)  
وقد سئمتُ الحياة ، وأخاف أن أنقل فأقدم إلى ما حزن وساء ! (٢٣١)  
لو أمنت التبعة لجاز أن أمسك عن الطعام والشراب ، حتى أخلص من ضنك  
الحياة ، ولكن أرهب غوائل السبيل . (٣٦٠)  
وقال في رسالة الغفران :

« قد كدت<sup>(١)</sup> ألحق برهط العدم من غير الأسف ولا الندم ولكننا أرهب قدومي  
على الجبار ، ولم أصلح نخلي بإبار »  
هذه كلمة تقولها مسرعين ، فالحديث عنها يأتي مفصلاً في المقالة التالية حيث نصغى  
إلى تأملات أبي العلاء في مصير الإنسان .

\*\*\*

٣ - الموت مأساة الانسانية الكبرى :

فزع أبو العلاء من الموت ، لأنه كما رأينا لم يبرأ من حب الحياة ، وكان — فوق  
ذلك — يجهل ما وراء الموت . وبقى سبب ثالث نضيفه إلى هذين . وهو سبب  
لا يتصل بالحياة الخاصة بأبي العلاء وحده ، وإنما يتصل بالإنسانية جميعاً — فقد كان ،  
بصرف النظر عن مأساته ( يرى الموت مأساة البشر . لقد دُفعوا إلى الحياة  
مجبزين ، وهم ينزعون عنها مكرهين ، على ما رُكب فيهم من حب لها وتعلق بها )  
الموت مأساة ، وقد أطال أبو العلاء الوقوف عندها ، ومضى يهتف في حزن ومرارة :

غير مجدد في ملتي واعتقادي نوحُ باك ولا ترنم شهاد  
وشبيه صوت النعي إذا قيس بصوت البشير في كل ناد <sup>سقط</sup>  
٢٠٨/١

يا دهر يا منجز إبعاده ومخلف المأمول من وعده  
تستأثر العقبان في جوها وتنزل الأعمى من فنده  
أرى ذوى الفضل وأضدادهم يجمعهم سـيـلك في مده  
.....

وحالة البـاكى لآبائه كحالة البـاكى على ولده  
(١) ما رغبة الحى بأبنائه عما جنى الموت على جده! سقط ٢/٤

\*\*\*

وكتب يعزى خاله أبا القاسم في وفاة أخيه أبي بكر:

«<sup>(٢)</sup> والقدر غالب أبي . فالعياذ بالله أن تقول كما قال المحاربي :

اهتز عرش الله ذى الجلال لموت خالى ، يوم مات خالى !  
« ولكن إنا لله وإنا إليه راجعون ، كل من عليها فان وإنما ابن آدم شبح منقول .  
تعالى الله قادراً ، ما ترك واقياً ولا غادراً ، إلا جرعه كؤوس المنية » .

وكتب إلى ابن القارح : « وأما من فقد من الأصدقاء لما دخل حلب ، فتلك عادة  
الزمن ، يبدل من الأبيات المسكونة قبوراً ، وإن رمس الهالك لبيت الحق »  
وقال في ملقى السبيل :

من أعظم الحدث سكنى الحدث :

يدوم القديم إليه السماء ويفنى بأقداره ما حدث

(١) قال أبو نواس : ألا يا ابن الذين فتوا وبادوا أما والله ما بادوا لتبنيق  
وقال المتنبي : نحن بنو الموت فما بالناس نفاق مالا يد من شربه !

(٢) رسائل أبي العلاء (مرجليوت) الرسالة الثلاثون ص ٩٢

وما أرغَبَ المرءَ في عيشه ولكن قصاره سكتى الجدث !  
وقال في اللزوميات :

قد صحبنا الزمان بالرغم منا وهو يردى كما علمت الصحابا  
وحلنا المضيق ثم أتينا الرحب لودام تركنا والرحابا  
وضحكنا وليس ما يوجب الضحك ، بل ما يهيج اتحبابا ١١٣/١  
رأيت قضاء الله أوجب خلقه وعاد عليهم في تصرفه سلباً ٩٩/١  
سألت رجلاً عن معد ورهطه وعن سباً ، ما كان يسبى ويسبأ  
فقالوا هي الأيام ، لم يخل صرفها مليكا يفدى ، أو تقيماً ينبأ ٤٨/١  
قام بنو القوم في أماكنهم وغيت في التراب آباء  
وزال عز الأمير وافترت أجاؤه عنه والأحباء ٥٧/١  
ومدّ وقتي مثل القصر غايته وفي التراب تساوى الدرّ والبرد ٢٤٥/١  
وكم وطئت أقدامنا في ترابها جبين أخى كبر وهامة أبلج ٢١٤/١  
فقير كل من في الأر ض إن العبد لا يملك ١٦٤/٢  
ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة وحق لسكان البسيطة أن يبكوا  
يحطمنا ريب الزمان كأننا زجاج ، ولكن لا يعاد لنا سبك ١٤٣/٢  
وقال في الفصول والغايات :

بكى عمرو عمرة ، وكم في الأرض من عمور وعمرات . (١٠٢)

الموت أعظم الحدث ، والجدث لا يأنس بالجدث ، ألحقت المنون جديداً برث . (٦)

سل كندة عن آكل المرار ، وفزارة عن آل بدر ، واستخبر في حمير عن ذى

نواس ، وقل يادارم أين زرارة ، وياحنظلة ما فعل آل شهاب ؟ (٧٧-١٩-١٠١)

أين صاحبة جذيمة ومنزلها . . . . أين مotech العطية ومجزلها ؟ أكلتهم الأيام  
أكل الثمرات . (٩٦)

لا ليث بعثر ، ولا مثير العثير ، ولا من على الملك عُثر ، يبقى منه أثر . (١٠٣)  
إن منازل طسم وأميم ، طالما صهلت فيها الخيل ، وكثر الرغاء ، وأمها للنفع  
القاصدون ، فانظر هل ترى في ديار القوم أميا ؟

فنى الواتر والموتور وعند الله علم الذاهبين . (١٩٠)

رُب حى أشرى ، كأنهم ليوث الشرى ، قروا الأضياف ذرى . . . . . جاءتهم  
المنايا تترى ، فزجوا بالثرى ، أصبح فيهم الزمن قد عاث . (٢٢٥)

نُصر قوم وخذل آخرون ، فما بقى الغالب ولا المغلوب . (٢٧٦)

إن الجبارة رامت الخلود ، فإذا هو لا يمكن ولا استطاع ، ولا يخلد إلا جبار  
السماوات . فبدلوا سام الذهب فدية من العطب ، فقال لهم القدر : تجرعوا سماما ! (٤٤٢)

\*\*\*

ويشدد إحساس أبى العلاء بمأساة الموت وتنبه لها ، فيرثى لنا معشر البشر  
الضعاف الفانين : يهددنا الموت فى كل حين ، فيهدم ما نبني ويقوض ما نقيم ،  
(فإذا الأمير كصعلوك قومه وإذا الغالب كالمغلوب) كلنا ضعاف أذلاء ، قصرنا التراب .  
كل نار لنا تخمد ، وكل بناء يتقوض ، وكل عامر يخرب ، وكل حى إلى ممات .

قال فى سقط الزند :

كل بيت للهدم ما تبنتى الور قاء ، والسيد الرفيع العباد ٢٠٨/١

وقال فى ملقى السبيل :

بكى على الميت مواخ ، كأن أجله فى تراخ ، فلتنه الباكية عن الصراخ :

بكى عليه ، فهل تراه فى أجل دائم التراخى ؟

وقال فى اللزوميات :

كم عفة ما عف عنها الردى وم ديار لأناس عفت

التفت الآمال منا بها وقد مضى آمليها ، ما التفت ١٩٧/١  
المشيدات التي رفعت أربع من أهلها درس ١٠/٢  
فلا تغرنك شم من جبالهم وعزة في زمان الملك قعساء  
نالوا قليلا من اللذات وارتحلوا برغهم ، فإذا النعاء بأساء ٤٨/١  
حياتك هجعة : سهد ونوم ورؤيا هاجع ما أنقته ٤٠٤/٢  
قدمنا والقوابل ضاحكات وسرنا ، والمدامع ينبجسنة  
وقد زعم الزواعم وافكرنا فويح للخواطر ما هجسنة !  
ومن يتأمل الأيام تسهل عليه النائبات وإن بجسنة  
وهان على الفراقد والثريا شخوص في مضاجعها درسنة ٢٥١/٢  
وقال في الفصول والغايات :

لمن أهضام توقد بالأهضام ، وأوضام تجعل على الرضام ؟ . . . . إن ذلك لقوم  
بأئدين ، ويبقى الله خالق العالمين .

كل مشمخر سوف ينهدم ويخر ، فياويح المشيدين ! وكل أهل يصبح ،  
وهو قفار .

وسوف ينفد العدد ولو أنكم الرمال ، وتخبو النار ولو هم لها على النجوم . (٤٣٦)  
ألم تر ناراً بالأمس متأججة ، ومررت بها اليوم هابية ، كأنها لم تُغد ضراما ؟ (٤٤٢)  
وإذا الليل طلى قار الأرض فابرز لحدق النجوم ، واسأل الأسد كم فني تحته من  
أسد ، والنعام كم طلعت على ظليم ، يخبرنك بالبحرين . (٣٣٨)

لا يعجبك جم رماد ، وبيت مرتفع العاد ، ونار دائمة الانقاد ، تسطع بجبل  
أو واد .



واسمعه يسخر بمشاغلنا ومتاعبنا وغرورنا وآمالنا . اسمعه يشفق علينا : نطمع ونؤمل  
ونبني كأننا مخلدون ، وإنما نحن على سفر أو عابرو سبيل .  
قال في سقط الزند :

لو عرف الإنسان مقداره لم يفخر المولى على عبده  
والواحد المفرد ، في حتفه كالحاشد المكثّر من حشده  
ولا يبالي الميت في قبره بذمه شُيع ، أم حمده  
أمس الذي مر على قبره يعجز أهل الأرض عن رده ٥/٢  
وقال في ملقى السبيل :

المرء نُهي فما انتهى ، مازال في العاجلة يزدهى ، ان قيل ما أحسن وما أبهى !  
فأين صاحبك لما وهى ، وطالما نعيم ولها ، ونال في العمر ما اشتهى ، دهاه  
الزمن فيمن دهى :

المرء معتوب على فعله كم سمع النهى فالأ انتهى ؟  
زايله اللهم وزار السبلى وطالما عاينتَه مُزدهى  
باهى زماناً بالذى ناله ثم آتى الموت فأين البهى ؟  
وهت عقود ، كان في عصره أحكمها ، لا عاقد ما وهى  
كان يرى في غزل دائماً ما بين غزلاف له أو مهى  
دهاه بالمقدار لم يدفع الخطب عن مهجته إذ دهى  
وقال في اللزوميات :

لا تعبطوا رجلا على ما ناله إن بات قد ساد الرجال ، ولم يسد  
فحوادث الأيام غير توارك نسر النجوم ، ولا السماء ، ولا الأسد ٢٩٩/١  
إن المواهب كلها عارية ومن السفاهة غبطة بعاتها ٦٧/١

- تبنى المنازلَ أعماراً مهدمة من الزمان بأنفاس وساعات ١٨٥/١  
وما تريد بدار لست مالِكها تقيم فيها قليلاً ، ثم تنطلق ؟ ١٢١/١  
والموت يسلب مافي الأنف من شَمَم تحت التراب، ومافي الخلد من صعر ٣٨٤/٢  
وكم نزل القليل عن منبر فعاد إلى عنصر في الثرى  
وأخرج من ملكه عارياً وخلف مملكةً بالعمرا ٣٧٤/١  
أُذْهَبَ دار بالنضار وربها يُخلفها عما قليل ويذهب ؟ ٨٣/١  
وإنك لا باك عليك مهند ولا مظهر حزناً ، جوادٌ مطهم  
يساوى ملك الحى ، صعلوك قومه وتسعى له الأرضُ الزرودُ، فتلهم ٢٥٥/٢  
ومن العجائب أننا ببجالة نبنى ، وكل بناء قوم يُهدم ٢٧٢/٢  
إذا لم تكن دنياك دار إقامة فما لك تبنيها بناء مقيم ؟ ٢٩٩/٢  
لا يعجبني الفتى بفضل فإنه مقتضى بوعد  
يقول جاوزت في المعالى آل سعيد وآل سعد  
فليس فوقى وليس مثلى وليس قبلى وليس بعدى  
والده خصه بعُدوى من موته ، والحمام يعدى ٢٩٠/١  
- تنافس قوم على رتبة كأن الزمان يديم الرتب ! ١٥٦/١  
- وحسب الفتى أنه مائت وهل يعرف الشرف الميت ! ١٨٢/١

وقال في الفصول والغايات :

يا راعى الضائنة ، ارتع في الينمة ( العشبة الطيبة ) كيف شئت ، واصطف لنفسك  
ما أحببت من الرخال ( إناث الضأن ) ، إن لك وقتاً يلييك عن الشاء والرباب . ( ٤٢ )

أسيت على انفلات الأعمار ، فما فعل أهل الديار ؟ القليل يكفيك ، وربك عن  
وجه الأرض ينفيك ، فالرغام بمعطسك وفيك . (٣٠٠)

أيها المسيم ، إن حظك لتسيم ، إما الشخت وإما الجسيم ، هل زاد رسمك الرسم ؟  
تغتبط بلقاح السوام ؟ إنك لا تعلم لمن التاج ! (٣١٠)

المرء يقدر ولغيره الأمور ، يحسب أنه يملك ويحوز ، كذب ! لله النفوس . (٣٧٤)  
يا نهم ، إن ما تلتهم لقليل ، ينسا ملك ينير ، عرض له التغيير ، فحمد حمدة  
لهب أجاج . (٢٩٤)

كيف يتكبر من في الغد يقبر ؟  
وانخذ المتصعر ، سيوضع في الأرض في أخدود . (٢٨٠)

أخذ ربنا بفضل ، وفرح الوارث لجهله . . . . . حبذا التراث لولا فرط ذله ، من لك  
بأخيك كله ؟ نسخ يومك بمثله . (١٠٧)

نصر قوم وخذل آخرون ، فما بقي الغالب ولا المغلوب . (٢٧٥)  
شغل الأدميون بيناء بيت شعر وبيت شعر وجدار من مدر . فبيوتهم في الأجلة  
كبيوت العناكب ، واهية الرواق والكفاء . (٢٨)

نحن على الدنيا نقترع ، تنسايف ونصطرع ، والقدر لنا مضرع . (٢٤٥)  
الله الكامل ، والنقص لجمعنا شامل ، فماذا يؤمل الآمل ؟ أليس قصره الذهب ؟ (٣٨)  
يهوى المرء في الممالك ولا يببالغ هواه . . . . . كل مشمخر ، ينهدم ويختر ، فياويح  
المشيدين . (٢٥٠)

ما تصنع أيها الإنسان بالسنان ؟ إنك لمعتر بالعرار ( حد الرمح ) ، كفت المنية  
ثأراً ما أراد ! (٨٢)

\*\*\*

تلك هي المأساة الإنسانية الكبرى كما عرضها أبو العلاء ، وإنك لتحسن في أقواله  
مرارة لاذعة وحرزناً أليماً ، ورتاء للإنسانية ، وقد كان يرى في الموت الموعدة البالغة

الكبرى ، كما كان يرى فيه المأساة الكبرى . وتجاذبه هذان المعينان ، فوعظ بالموت حيناً وأطال ، وخاف من الموت كثيراً وأشفق .

قال في ملقى السبيل :

غرثك ما يخذع من زخرف الدنيا فزاد الحرص والطمع  
علمت أن الدهر في صرفه مفرق عنك الذي تجمع  
سمعت بالخطب وعائنة هل كف ما تبصر أو تسمع ؟  
وقال في سقط الزند :

لو عرف الإنسان مقداره لم يفخر المولى على عبده ٥/٢  
وفي اللزوميات :

نام في قبره ووؤسـد يمنا ه فخلناه قام فينا خطيباً  
للمنـايا حواطب لاتبالي أهشيا جرت لها ، أم رطيباً ١١٤/١

قام للأيام في أذنى واعظ من شأنه الخرس :  
ليس يبقـى فرع نابتة أصلها في الموت معترس ١٠/٢

تحدث هذه الأيام جهراً ويُحسب أن ما نطقت هيس  
تعالى الله أين ملوك نلم لقد خمدوا ، فما لهم حسيس ١٨/٢

يجاور قوماً أجادوا العظات وما فيهم أحـد نابس ٢١/٢

أراك حسبت النجم ليس بواعظ لبيباً ، وخت البدر لا يتكلم  
بلى قد أتانا : أن ما كان زائل ولكننا في عالم ليس يعلم ٥٤/٢

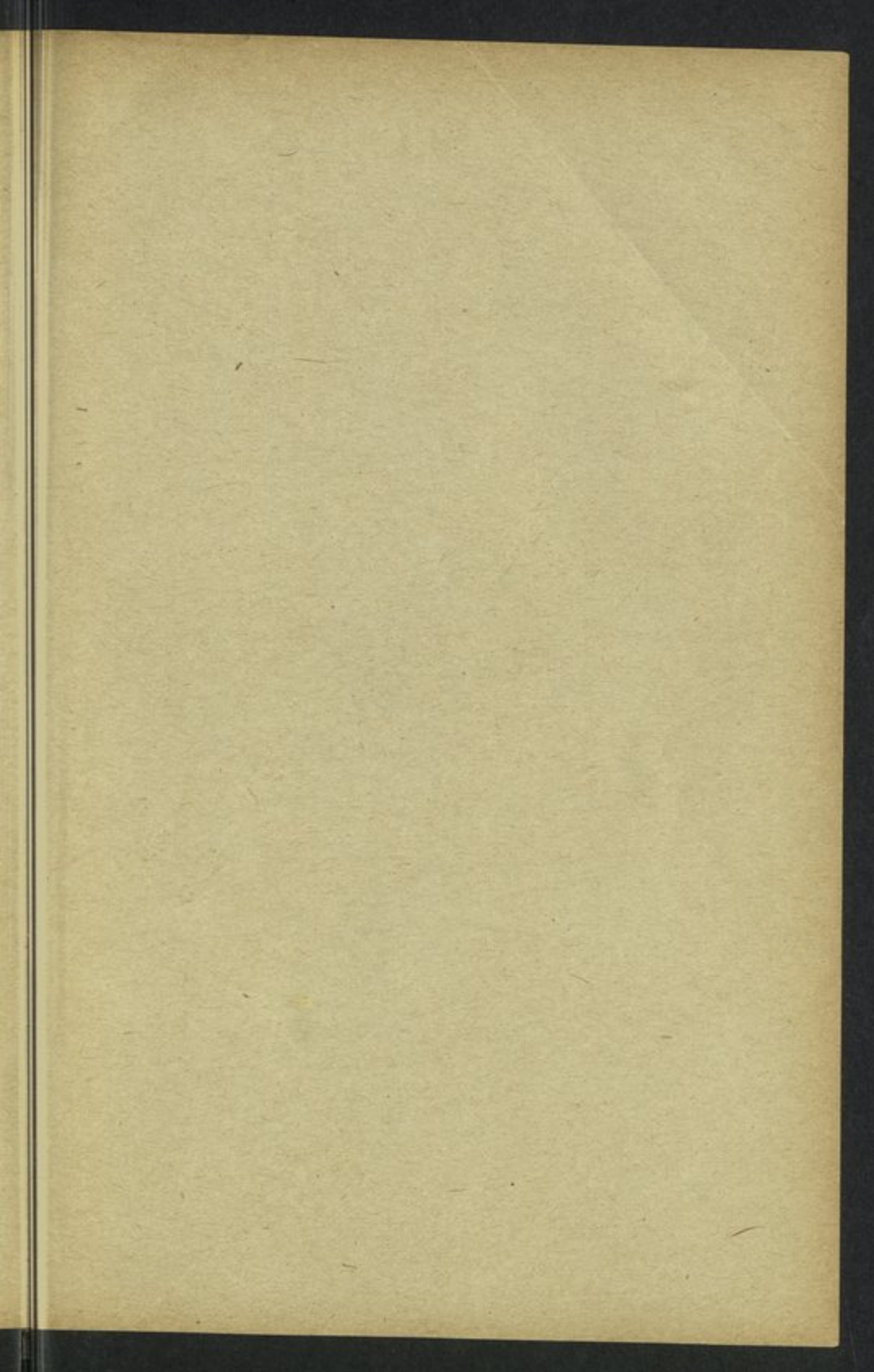
ألم تر أيام الفتى في عظامه بهمس تناجى ، أو أدق من الهمس  
توخت عوارى الملوك بردها جهاراً ، وآثار الأكارم بالطمس ٢٥/٢

وقال في الفصول والغايات .

لو أنصفت يا ابن آدم ، ولمن تنصف ؟ لأعز الناس عندك — أعنى نفسك —  
إذن لانزجر قلبك ، وقصر أملك ، وشغلك الحق عن الأباطيل ، وعددت في ترنم  
النوادر ترجيع القينات .  
(١٩)

إن في آثار الأولين لمعتبراً ، فلتعظك منازل القوم الذاهبين . . . لا تسمع الأذن  
لهم نتيماً . . . . .

رحم الله امرأ وعظه سواه : ألا يعظك الشقى أيها السعيد ؟ ضرب لك أمداً طال  
عليك ، وقريب عند الله ذلك البعيد .  
(٢٩٤)



المرحلة الأخيرة من مراحل الانسائه

مصير الإنسان

ما وراء الموت

- ١ - تبلى أجسادنا ، وتنتهك رممنا ، وننسى فلا صديق .
- ٢ - توقف العقل عن إبداء الرأي فيما وراء ذلك .
- ٣ - قدرة الله على الحشر والبعث .
- ٤ - حيرة أبي العلاء ، بين توقف العقل وإعجاز القدرة .
- ٥ - الحيراليقين عند الموت ، ولكنهم لا يهودون ولا يتكلمون !

صبحنا أبا العلاء وهو يرصد مراحل الحياة الإنسانية : مرحلة الوجود ، ومرحلة الحياة ، ومرحلة الموت . ونحن الآن نصعبه في المرحلة الأخيرة من مراحل الطريق ، ونرقبه وهو يقف أمام الستار الكثيف الذي يسدل على الإنسان بعد أن يموت .

ما وراء الموت ؟

وراءه كثير . عرف أبو العلاء أشياء وآمن بها ، وغابت عنه أشياء ، فلم يستطع أن يميز عنها الحجب والأستار ، رغم ما بذل من جهد أليم .

(أما الذي عرفه أبو العلاء ، فهو أننا نودع الأرض ، فنبلَى وننسى ؛ تأكلنا الأرض وتنتهك رممنا ، وننسى فلا صديق .)

هذا ما كان يؤمن به أبو العلاء ، ويعلنه في لهجة مرة ذات وقع مؤثر حزين . وتأملات أبي العلاء فيما وراء الموت رائعة مؤثرة ، وروعيتها تأتيها مما مترجم عنه ، من

حزن صادق لمأساة الإنسان ، وورثاء مؤثر لها ، وإشفاق أليم على هذا المخلوق الذي يُنتزع من الحياة ، ويقذف به إلى مجاهل الموت . (هذه التأملات تشبه أن تكون مرثية الإنسانية) ونحن نصمت الآن ، لنسمع أبا العلاء ينشد مرثيته الرائعة الباكية من أغوار الماضي البعيد .

بلى الأضداد وانسراك الرمم :

قال في سقط الزند :

صاح ، هذى قبورنا تملأ الرحب فأين القبور من عهد عاد  
خفف الوطاء ما أظن أديم الأَرْض إلا من هذه الأجساد  
وقبيح بنا - وإن قدم العهد - هوانُ الآباء والأجداد

.....

رُب لحد قد صار لحداً مراراً ضاحكٍ من تراحم الأضداد  
ودفين على بقايا دفين في طويل الأزمان والآباد ٢٨٠/١

وقال في اللزوميات :

والأرض غدتنا بالطافها ثم تغدتنا فهل أنصفت ؟  
تأكلُ من دب على ظيهرها وهي على رغبتهَا ، ما اكتفت ١٦٧/١  
تُكرِّم أوصال الفتى بعد موته وهن إذا طال الزمان ، هباء ٤٦/١  
والأرضُ تقتات الجسوم كأنما هذا الحِمام لتربها ميار ٣٤٠/١  
ومن صَمَّه جدث لم يُبيل على ما أفاد ، ولا ما اقتنى  
يصير تراباً ، سواء عليه مسُّ الحرير وطعن القنا  
ولا يزدهى غضبُ حملته ألقبه ذاكر ، أم كنا ٧٧/٢



والتربُّ نعليه ظلاماً وهو والدنا  
وكم لنا فيه من قربى ومن رحم ٣٠٤/٢  
فلا يمس فخاراً من الفخر عائد  
إلى عنصر الفخار للنفع يضرب  
لعل إناء منه يصنع مرة  
فيأكل فيه من أراد ويشرب  
ويحمل من أرض لأخرى وما درى،  
فواهاً له ، بعد البلى يتغرب ! ٨١/١

أعلم أنى إذا حيث قذى  
وأنتى بعد ميتتى مدر  
كم من رجال جسومهم عفر  
تبنى بهم أو عليهم الجدر ٣٠٧/١

إذا الحى ألبس أكفانَه  
فقد فى اللبس واللابس  
ويبلى الحيا فلا ضاحكُ  
إذا سرّ دهر ولا عابس  
ويحبس فى جدث ضيق  
وليس بمطلقه الخابسُ  
يجاور قوماً أجادوا العظات  
وما فيهم أحدٌ نابس ٢١/٢

وقال فى الفصول والغايات :

(٦) ما صنع التراب بالحث؟ فعل بها فعل المجتث .

الجسد بعد فراق الروح، كما قُص من يدك وقصر من فودك . إذا ألقى فسيط فى النار

لم تباله ، وإذا غرق قليل فى اللج فكذلك . (١٨)

فارحنى رب إذا أدرجت ، ثم أخرجت من الوطن إلى أضيقت عطن ، وحنمت

الأليل (أين المريض) ، واستراح المعلل من التعليل . (٢٧)

كرهت البشرة ديب الحشرة، ولتصيرن كهشيم العشرة (شجرة ضعيفة الهشيم) (٢٠٧)

وربما أضجعتى الملهجد على رم ميت قبلى لو نطق لم يقل مرحباً - وتبجى جيل

(ضع) بقدر الله فتكشف عنى التراب ، لتغذوبى جرواً حوشباً (عظيم البطن) ،

أذهب النوم ، وأطال الأرق ، وأفلّ رغبتى فى الشرف ، أنى لا أجد عن ذلك مذهباً .  
جل البارئ ، هل تحمل هذه النكبة منكباً أضاح ؟ (٤٢٢)

والجسد كالعود القليل (المقطوع) ، قد حمل على أسرة الهالكين ، فأودع الأرض  
وكفت ، وقدم عليه العهد فرقت ، ونسيتُ فلا يمر اسمى بأفواه الذاكرين ، لا يبلغنى  
مدحُ المادح ، ولا مقال الجُدّاب . (٢٧٩)

ولا آمن أن يخفر قبرى محترق ، فيهجم على جدولى الرمام ، وقد امتزجت بالعفر ،  
فيدخلها إلى الأظيمة (موقد) ، فيصطنع منها مصطحاً (كوزاً) أو ماشاء . (٨٣)

ولا أكره أن يتخذ منها (من الرفات) إناء يتوضأ منه لذكرك الله . (٣٨)

وعندى خبر خبرنيه المعقول . إن جلود القوم تمزقت ، واللحوم بليت وتهالكت ،  
وصارت الأعظم رامماً . أضحك فلا ضحكت ، وأنا بالبكاء حقيق مما كان ويكون ! (٤٢٢)

يا جدث ، بعد موتى ، هل تسمع ندائى وصوتى ؟ يا أرض ، لا قرض عندك  
ولا فرض ، أودعت المال فرددتَه سالماً ، والخليلَ فأكلته راعماً ، ليتك أكلتِ  
المالَ ، ورددت الخليل . (٣١٥)

\*\*\*

ونسى فلما صريرى :

سمعت حديث أبى العلاء عن بلى الأجساد وانتهاك الرم ، فاسمع حديثه عن  
نسيان الموتى . ينساهم أهلهم وأحبابهم ، فلا صاحب ولا صديق ، وأى صديق للرمة  
البالية ، والجسد الفانى ، والراحل الذى لا يعود ؟ وفيم الذكرى ؟ هل يعود الميت  
فيجزى الوافين الذاكرين ؟

كل ذكر من بعده نسيان وتغيب الآثار والأعيان لـ ٣٩٣/٢  
كأن المهيمن أوصى النفوس بعشق الحياة وإحبابها

إذا دَفنتُ في الثرى هالكاً تناستُ عهداً لأحبائها ١٤٨/١  
تبكي على الميت الجديد لأنه حديث ، ويُنى ميتك المتقادم ٢٦٠/٢  
وسوف تُنسى فمسي عند عارفنا وما لنا في أفاصى الوهم أشباح ٢٢٦/١  
هل تحفظ الأرض موتها وأهلهم لما بدا اليأس ، الغوم فما حفظوا ؟ ٧٤/٢

وقال في الفصول والغايات :

فكأنى بالوقت وقد فنى . . . ودفنت الأرض فنسيت ، وتمزق الذى كسيت . (٤٢٢)  
. . . ثم أسلمت فألقيت في زوراء بعيدة المزار . . . وسكنى التربة أغرب الغربة .  
انقضت الآراب من أهل التراب ، وغدر بهم أهل الوفاء . (٢٧)  
أين أكون بعد البيت المسكون ؟ أحل بالصعيد لا أشعر بجمع ولا عيد ، وذلك  
منزل المنفرد الغريب ، والله مؤنس المستوحشين . (١٦٢)  
وُسِّمت الأرض ثم وليت ، على أجساد قد بليت ، علت في الحياة وعليت ،  
وسُلت أرواحها فُسِّلت ، وقَلَّت الحاجة إليها فقلَّلت . (٢٣٣)

أمر بأجداث الأقارب وكأنا أشرف على البعداء ، والحى لا يرعى للميت ذماماً (٢٤١)  
يا معشر أهلنا الصالحين ، بس القوم نحن ! لم نوفكم الواجب من الوفاء ، شربنا  
بعدكم البارد ، ولبسنا ناعم اللباس ، وأظلتنا الجدر وأفنية الدور ، لو كنا أهل حِفاظ ،  
عَفِنَّا بعدكم النطف العذاب . (٨٠)  
وكذبت النادبة ما للميت من صديق ، وأساءت الأيم أجابت الخطاب قبل أن  
يقضى لفقيدها عام ! (١٢٩)

وصيح بالأرض اقبلى رهنك ، وبالنزىل فاغدرى ، وحيز المال ونسى العهد واتنوى  
عن الإنسان أتيسه ذو الود القديم ! (٣٤٢)

أجل . تأكلنا الأرض وتنتهك رمنا ، وننسى فلا صديق . هذا هو المصير المحتوم ،  
وذلك هو اليقين الرهيب . .

(ولكن ماذا بعد فناء الأجساد ؟ أملتئمة هي بعد الفناء ؟ ثم ما مصير الأرواح ؟  
أمبعوثة هي يوم الحشر لتعاقب أو تثاب ؟ )  
أسئلة حيرت أبا العلاء واضطرب فيها .

— لقد سمع أبو العلاء ما قيل عما وراء الموت ، ووعى الأخبار التي تناقلها الناس  
بشأن البعث والحشر ، وقد عرفنا في المقالة الأولى رأيه في الأخبار وسوء ظنه بها .  
فليس غريبا أن نراه هنا يسمي الظن بما تحدث به الأخبار عما وراء الموت ، ولا يحس  
نحوها شيئا من الاطمئنان . .

قد قيل إن الروح تأسف بعدما تنأى عن الجسد الذي غنيت به  
إن كان يصحبها الحجا فلعلها تدرى وتأبه للزمان وعتبه  
أو ، لا ! فكم هذيان قوم غابر في الكتب ، ضاع مدادُه في كتبه! لز ١٤٠/١

والروح شيء لطيف ليس يدركه عقل ويسكن من جسم الفتي حرجا  
سبحان ربك هل يبقى الرشاد له وهل يحس بما يلقى إذا خرجا ؟  
قالت معاشر يبقى عند جثته وقال ناس : إذا لاقى الردى عرجا ٢١١/١

والروح أرضية في رأى طائفة وعند قوم ، ترقى في السماوات  
تمضى على هيئة الشخص الذي سكنت فيه ، إلى دار نعمى أو شقاوات ١٨٥/١

وقد زعموا هذى النفوس بواقيا تشكل في أجسامها وتهذب  
وتنقل منها ، فالسعيد مكرم بما هو لاق ، والشقى معذب ٨١/١

قد ادعيتم فقلنا أين شاهدكم ؟ فناء من بات عند اللب مجروحا  
إن صح تعذيبُ رمسٍ من يحل به فخباني ملحودا ومضروحا  
الوحش والطير أولى أن تنازعني فغادراني بظهير الأرض مطروحا ٣٣١/١

(نورف العقل عن إيراد الرأي فيما وراء بلى الأجساد :

أبو العلاء كما ترى غير مطمئن إلى أقوال الرواة . وقد فرغ إلى عقله ، يقيس به هذه الأقوال ويطلب لديه الرأي المنقح ، ولكن عقله لم يسعفه بما يعنى ، أن كان لا يطمئن إلى شيء مما يقال عما وراء بلى الأجساد ، ولا يلتقي فيه رأيا ، لأن هذا مجال لم يقتحمه العقل بعد ، ولم يستطع أن يمزق الأستار المسدلة بيننا وبين المصير المجهول .

قال في سقط الزند :

جهلنا فلم نعلم على الحرص ما الذى يراد بنا ، والعلم لله ذى المن  
إذا غيب المرء استسر حديثه ولم تخبر الأفكار عنه بما يعنى  
.....  
طلبت يقينا من جهينة عنهم ولن تخبريني يا جهين سوى الظن  
فإن تعهديني لا أزال مسائلا فإني لم أعط اليقين فأستغنى ! ١٩١/١

وقال في اللزوميات :

أرى هذيانا طال من كل أمة يضمه إيجازها وشروحها  
وأوصال جسم للتراب مألها ولم يدر دار أين تذهب روحها ٢٢٥/١  
سنؤوب في عقبى الحياة مساكننا لا علم لى بالأمر بعد ما بها ١٤١/١  
سأرحل عن وشك ولست بعالم على أى أمر ، لا أبالك ، أقدم ٢٥٦/٢

وكم ثوى لك جد، ما درى فطن منكم، على أى أمر إذ مضى قدما ٢٨٥/٢

بنون كآباء، وكم برح الردى بضب على علاته وبنون

دفعاهم فى الأرض دفن تيقن ولا علم بالأرواح غير ظنون ٣٦٦/٢

أما الجسوم فلهتراب مآلها وعييت بالأرواح أى تسلك ١٤٩/٢

لا نعلم الموتى تهيم بكثرة لكن أحياء تروم لحاقا ١٣٣/٢

إن تسأل العقل لا يوجدك من خبر عن الأوائل إلا أنهم هلكوا ١٤٥/٢

على أن أبا العلاء لم يطمئن إلى العقل، وراح يعرض الأمر على القدرة المعجزة

(فرأى البعث ممكننا غير ممتنع)

قال فى اللزوميات :

وقدرة الله حق ليس يعجزها حشر خلق، ولا بعث لأموات ١٨٥/١

بحكمة خالق طيب ونشرى وليس بمعجز اخلاق حشرى ٣٩١/١

يكر موتانا إلى الحشر إن قال لهم بارئهم: كـروا ٣٤٧/١

يقوم الفتى من قبره إن دعوته وما جر مخطوط له فى الرواجب ١٢١/١

ومتى شـاء الذى صورنا أشعر الميت نشورا فنشر

فافعل الخير وأمل غيبه فى الذخر إذا الله حشر ٤٢٢/١

وقال فى سقط الوند .

خلق الناس للبقاء فضلت أمة يحسبونهم للنفاد

إنما ينقلون من دار أعما ل إلى دار شقوة أو رشاد ٢٠٨/١

وقال في الفصول والغايات :

الجسد بعد فراق الروح كما قُص من يدك ، وقصر من فودك . إذا أُلقي فسيط في النار لم تُباله ، وإذا غرق فليل في اللج فكذلك ، هكذا يقول العقول — والله نظر في العالم دقيق ، لا يمتنع أن يكون جسدُ الصالح إذا قُبِر في نعيم ، وجسد الكافر في عذاب أليم لا يعلم به الزائرون . (١٨)

من أُولع النعمة بالتخويد ، وفرَّق بين الأرى والهبيد، ليس الحشر عليه ببعيد . (٢٦٢)  
يقدر الله على المستحيالات : رد الفأث ، وجمع الجسمين في مكان ، ومالا تحتمله الألباب ، إذ كان لا ينسب إلى معجز ولا انتقاص . (١٧٤)

والله على بعث الميت مقيت . (٢٧٥)

الطيور ناطقات بالسُبح ، ورجال ما تقر بالبعث ، بلى ! جل القادر عن ارتياب (٣٨)  
لا يعجزك (يا رب) ممتنع في العقول . متى أجمع وسلقى الذاهبين ، فأخبرهم بما قيت بعدهم ، ويخبروني بمثل ذاك ؟ لقد بعدوا بعد الإكثاب . (٤٧)

الله الملتجأ ، يمهل أمره ويفجأ ، وهو على إنشائك قدير ، وبجزاء الخير جدير .  
والظالم أعر قدما من المظلوم وأنا أحد الظالمين . هل ينجيني منك أبدال ، وجسد لحق بالرفات ، أو مال كثر أو عز مكان ؟ أدركت ما لم يكن فكيف ما كان ؟ (٣٥٣)

وكتب إلى داعي الدعاة :

« وفي الكتاب الأشرف : « أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين — وضرب لنا مثلا ونسى خلقه ، قال من يحيى العظام وهي رميم ؟ — قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم » . وهذه حجة بالغة في أن خلقها مبتدعة ، أبعده من إنشائها مرتبجة . ثم قال سبحانه : « الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أتم منه توقدون » فتبارك الله العظيم القادر ، على أن يحرق بورقة خضراء ، من

فوق الراكدة، « أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهن؟ بلى وهو الخلاق العليم . إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون — فسبحان الذى بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون » . أشهد الله الذى بإذنه نشأت السموات والأرض، أنى مقر بالقدرة على الرجعة، والخوف من الآخرة . أحافظ على صلاتى وأصوم ، لعلى معصوم » .

### ميرة أبي العمراء

(هذا الإيمان بقدرة الله ، قد أبى على الرجل أن يطمئن إلى توقف العقل) على أنه لم يخلص من سلطان عقله ، بل ظل حائراً

أما الحقيقة فهي أنى ذاهب والله يعلم بالذى أنا لاقى  
وأظننى من بعد ، لست بذاكر ما كان من يسر ومن إملاق لز ١٣٩/٢

شاب علينا أمرنا شائبٌ وقد وددنا أنه لم يُشب ١٥٢/١

تقدم الناس فيا شوقنا إلى اتباع الأهل والأصدقاء  
ما أطيب الموت لشرا به إن صح للأموات وشك التقاء! ٦٨/١

وإن أعفَ بعد الموت مما يرينى فمأخى الأذى ولا يدي الحسرى ٧٩/١

إن يصحب الروح عقلى بعد مظعنها للموت عنى ، فأجد أن ترى عجباً  
وإن مضت في الهواء الرحب هالكة هالك جسمى فى تربى ، فواشجبا! ١٠٣/١

يا مرجباً بالموت من منتظر إن كان ثم تعارف وتلاقى ١٤٠/٢

إذا حرّق الهندى بالنار نفسه فلم يبق نحض للتراب ولا عظم



فهل هو خاش من نكير ومنكر وضغطة قبر لا يقوم لها نظم ؟ ٢٥٣/٢  
مضى الأنام ، فلولا علم حاكمهم لقلت قول زهير : أية سلكوا ؟  
في الملك ، لم يخرجوا عنه ولا انتقلوا منه ، فكيف اعتقادى أنهم هلكوا ؟ ١٤٥/٢  
وقال في الفصول والغايات :

أما اللحاق بالقوم فقريب ، ولست من لقائهم على يقين ، فالقلب لذلك آسف  
حزين ، أفتراني أوجر على ذلك وأثاب ؟ (٤٧)  
وخبير الميت غير جلي ، إلا أنه قد لقي ما حذر . (٣٥٨)

\*\*\*

في هذا الموقف الحائر بين الشك والإيمان ترى أبا العلاء يقول :  
قال المنجم والطبيب كلاهما لا تحشر الأجسام ، قلت إليكما  
إن صح زعمكما ، فلست بخاسر أوصح عزمي ، فانحسار عليكما لـ ٢٩٠/٢  
إحدى اثنتين : إما أن يصح البعث فيكسب أبو العلاء ، وإما أن ينتهي الأمر  
بالموت فلا ضير عليه ، ومن يحاسب الميت الغاني الذي انتهى بالموت ؟  
ويذكرنا هذا برهان بسكال ، حين تصدى لمحاورة من لا يؤمن بشيء بعد الموت .  
قال بسكال<sup>(١)</sup> : ما دمت لا تعلم أي شيء عما وراء الموت ، فأنت لا تستطيع أن تحكم  
بأنه حق أو باطل ، وليس من حقتك أن تلوم من يراهن على هذا أو ذلك .  
قال صاحبه : لست أقول لمن يختار إنه أخطأ أو أصاب ، ولكني أقول له : لقد أخطأت  
إذ اخترت ، أخطأت إذ قبلت الرهان وأنت غير واثق .  
فقال بسكال : ما دمت حياً ، فحياتك ترغمك على الاختيار ، بل إن توقفك عن  
الرهان ، معناه اختيار ، فكأنك تقول : لا معروف بعد الموت .  
ثم مضى يجاور صاحبه :

« فلننظر ماذا يكون من أمر هذا الرهان . إن قلت نعم وربحت فقد كسبت . وإن خسرت فلن تضيع شيئاً » قال صاحبه : « بل أكون قد خسرت هذه الحياة التي أحيها ، أخسر متاعها لأن إيماني بما وراء الموت ، يكلفني الخضوع لأحكام خاصة ، والتنازل عن كثير مما أشتهى » . فمضى بسكال على طريقته الحسابية يهيبُ صاحبه لقبول التضحية ويقول : « ربما كان ما تقوله حقاً ، ولكن . . . لو أنك موعود بحياتين ، ألا تضحي بواحدة لأجل اثنتين ؟ ولو أنك موعود بثلاث ، ألا تضحي بواحدة لأجل ثلاث ؟ ومع هذا ، فإنك لست موعوداً بواحدة ولا باثنتين ولا بثلاث ، وإنما بحياة سعيدة خالدة . وحياتك هذه ، فانية ولا بد أن تنتهي ، رضيت أو كرهت ، اليوم أو غداً . وهذا يجعلك لا تتردد في الاختيار . إذ خلود النعيم ينفي كل تردد . وقد تقول : كيف أضحي بخير محدود مؤكد ، لخير غير محدود ولا مؤكد ؟ فأقول : لا أحد يلوم من يجرب حظه في رهان بمبلغ قليل ، ليربح ثروة طائلة » . فسأله صاحبه ، وهو يكاد يسلم : « ولكن الأدليل لكي أراهن مخلصاً مغتبطاً غير حزين ؟ » فأجابه بسكال : « هناك كتب السماء لو أردت » . قال صاحبه : « ولكن طبيعتي ليست مهيأة للإيمان ، حتى ولو آمن عقلي . » فأجابه : « هذا حق ، ولكن على الأقل تواضع ، وقل إنك عاجز عن العلم ، واجتهد في أن تروض عواطفك لتؤمن بما يعجز العقل عن نفيه أو إثباته . »

هذا ملخص لرهان بسكال . وهو يشبه قول أبي العلاء في جملته ، لولا أن بينهما فرقين واضحين .

أولهما ، يظهر في طريقة عرض الرهان ، فأبو العلاء يلقى قوله على طريقته ، حطرة شعرية موجزة تثب بك إلى ما تريد ، من غير أن تعرف مراحل الطريق . وأما بسكال فيعرض رهانه منفصلاً على طريقته الرياضية ، ويحاور صاحبه بالأرقام .

الفرق الثاني يتصل بروح المراهن ، فأبو العلاء لا يلجأ إلى هذا إلا حين يغلبه الشك ويعوزه اليقين . ورهانه عملي لا نظري فهو يقول : إن لم يصح زعمي لم أخسر ،

وإن صح ، خسرتما أتما ، فكأنه يقول بالأحوط . وهو يسمى قوله بالحشر زعماً ، وهذا دليل على شكه وحيرته . أما بسكال فهو مؤمن مقتنع بأن الموت ليس نهاية كل شيء ، وكان هذا الإيمان عدته في المناظرة . وعليه اتكأ في طول الحوار والتثبت بإقناع صاحبه .

\*\*\*

وقف أبو العلاء حائراً لا يدري ما ذا وراء الموت ( فتراه يغبط الجماد والحيوان الأعمى ، أن كانا لا يتوقعان شيئاً بعد الموت ) قال في الفصول والغايات .

ليتني كنت حجراً ، لا أمسى حذراً ، ولا أصبح وجراً . (٤٠)

طوبى لأكدر ، من بنات أخدر ، لا يتوقع كائنة بعد الموت . (٤٦)

عند مهربنة الخبث اليقين :

في هذا الموقف الحائر المتعب ، الذي لم يستطع أبو العلاء فيه أن يطمئن إلى شيء ، ود الرجل لو أن مخبراً صادقاً ينقذه من حيرته ( ويعلمه بما يكون بعد الموت ، ولهذا الخبث أن يختار نفائس ما يقدر عليه أبو العلاء .

« كيف لي بمخبر ، يعتام نفائس ما أقدر عليه ، يعلمني بعد الموت ، كيف أكون » ،  
( الفصول ٢٧٨ )

\*\*\*

ولكن من يكون هذا الخبث الصادق ؟

( ليس هو العقل ) ، فقد عرفت شعور أبي العلاء بقصور العقل ، وجزعه من توقعه .

( وليس هو من هؤلاء الأحياء ) الذين لم يجتازوا مرحلة الموت ولا علم لهم بمعالمها .

( مهربنة هنا ، هو الميت )

هو الخبث الصادق الذي شاهد وعانى وجرب . هو الذي سار في الطريق وعرف

مراحله ، وبلى الموت وشرب من كأسه .

هو الذي نودي إلى العالم الثاني ، وكشفت له الحجب ، وأزيحت أمامه الأستار .

آه لو عاد أحد هؤلاء الموتى إلى الحياة ، فقص على أبي العلاء أمر تلك الرحلة  
المجهولة ؟

لو جاء من أهل البلي مخبر سألتُ عن قوم وأرختُ  
هل فاز بالحنة عمالها ؟ وهل ثوى في النار نوبخت ؟ لز/١٧٤

فهل قام من جدث ميت فيخبر عن مسمع أو مرا ؟ لز/٧٥

ولكن الموتى لا يعودون ، ولا يجيبونه سؤالا :

أما الصحاب فقد مروا وما عادوا وبيننا بقاء الموت ميعاد ٢٥٦/١  
أولى القوم وأتقوا ، وثقلت الحقائبُ فألقوا ، من أين سقوا أو استقوا ؟ لاحت لهم  
النار بقو ، فلم يعرجوا بالرضمات !  
فصول ١٢٧

\*\*\*

ودّ أبو العلاء لو أن الموتى — وقد استحالت عليهم العودة — يبعثون برسالة إلى  
الأحياء ، ليحدثوهم عما ينتظرهم في الغد المجهول ، (ولكن الموتى لا يبعثون برسالة  
ولا رسول).

وكم حل فيها معشرٌ بعد معشر من الناس ، عاشوا سوقة ومولوكا

فما بلغتهم منك بعد رحيلهم ألوك ، ولا أهدوا إليك ألوكا لز/١٥١

لو غبرت ألف حقبة ، ما ورد على منهم كتاب ولا رسول . فصول ٤٤١

\*\*\*

فزع أبو العلاء إلى الموتى يسألهم ويلح في السؤال : ماذا لقوا وواجهوا ؟ أين ساروا  
وإلى أين انتهوا ؟ كيف هم وأين هم ؟

لو كان ينطق ميت لسألته ماذا أحس وما رأى لما قدم ؟ لز/٣٢٢

ولكن الموتى لا يتكلمون ، يهتف بهم الصائح فلا يجاب ، كأن بهم صمماً فلا

يسمعون نداء !

قال في الزوميات :

يا ساكني الأرض كم ركب سألتهم عما فعلتم ، فلم أعرف لكم خبرا ٣٥٩/١

وقفت على أجدائهم وسألتهم فما رجعوا قولاً ولا ، سألوكم ١٥١/٢

مضى الناس إلا أننا في صباية كآخراً ما تبقى الحياض أو الخرس

ولم يسمعوا قولاً ، أمن صمم بهم ؟ ولم يفهموا رجلاً كأنهم خرس ! ٤/٢

وفي الفصول والغايات :

سلم الله عليكم أهل ديار ، لا يشعرون بتبلج الصبح ولا ترحل النهار .  
أشتاق إليكم وإلى من أشتاق ؟ لا الأرواح متكلمة ، ولا الأجساد ملتئمة ،  
ولا المنازل برحاب ! (٥٢)

كيف أصبحت أهل المنازل الدارسة ؟ إن ما أصابكم للخطب الجليل . . . . .  
يهدف بكم الصائح فلا يجاب ! (٤٧)

\*\*\*

لم يكن أبو العلاء أول من وقف هكذا على أحداث الموتي ، يسأل فلا يجاب . ما أشبه  
موقفه هذا بموقف قس بن ساعدة ، حين وقف أمام موكب الحياة ، ورأى الزاحلين  
ينطلقون إلى الوادي المجهول فوجاً بعد فوج ، ثم لا بثوب منهم راحل ، ليحدث عما  
رأى وسمع ؛ ! روى أنه وقف بين الناس في سوق عكاظ يلقي إليهم الموعظة ويهدف  
بهم قائلاً :

« أيها<sup>(١)</sup> الناس ، اسمعوا وعوا . من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو  
آت آت . . . إن في السماء خبراً ، وإن في الأرض لعبراً ؛ مالي أرى الناس يذهبون  
ولا يرجعون ؟ أرضوا بالمقام فأقاموا ؟ أم تركوا هناك فناموا ؟

(١) البيان والتبيين (طبعة مصر سنة ١٣٣٢) ج ١ ص ١٦٨ .

صبح الأعشى (طبعة دار الكتب المصرية) سنة ١٩٢٢ (٢١٢/١)

« يا معشر إباد؟ أين ثمود وعاد، وأين الآباء والأجداد؟  
في الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر  
لما رأيت موارداً للموت ليس لها مصادر  
ورأيت قومي نحوها يمضي الأكاير والأصاغر  
لا يرجع الماضي ولا يبقى من الباقين غابر  
أيقنت أني لا محالة حيث صار القوم صائر »

\*\*\*

فزع أبو العلاء إلى الموتى يسألهم ولكنهم صمتوا فلم يجيبوا له سؤالاً، ولم يلقوا إليه  
خبيراً، ولم يعثوا إليه رسالة ولا رسولاً.

لم يبق منهم إلا طيف، يلم بنا في رؤى المنام، ولو صدقت الأحلام لاطمأن  
أبو العلاء إلى ما يخبر عن سكان القبور، ولكن الأحلام تكذب.

قال في سقط الزند:

وبين الردى والنوم قرين ونسبة      وشستان براء للنفوس وإعلال  
إذا نمت لاقيت الأعبة بعد ما      طوتهم شهور في التراب وأحوال

وقال في اللزوميات:

غُيِّبَ ميت فما رآته عين، سوى رؤية المنام ٣٠٨/٢

وقال في الفصول والغايات:

أسعد الله الأرواح، فلا أعرف فائدة للدفين في قول القائل: أيها القبرسقيت غماماً.

إن الحى والميت لا يتزاوران، فرضى الله عن قوم تراهم في الرقدة لماماً. (٤٤٢)

سبحانك مؤبد الآباد،... هل للمنية نسب إلى الرقاد؟ لا أنجيل إذا انتهت

أحدًا من الأموات، وإذا هجعت لقيني قريب عهد بالمنية، ومن قد فُتد منذ أزمان

أسألهم فيجيئون ، وأحاورهم فيتكلمون ، كأنهم يجبل الحياة متعلقون . . . . . لو صدق  
الرقاد لسكنتُ إلى ما ينجر عن سكان القبور ، ولكن الهجعة كثيرة الكذاب ! (٨٠)

\*\*\*

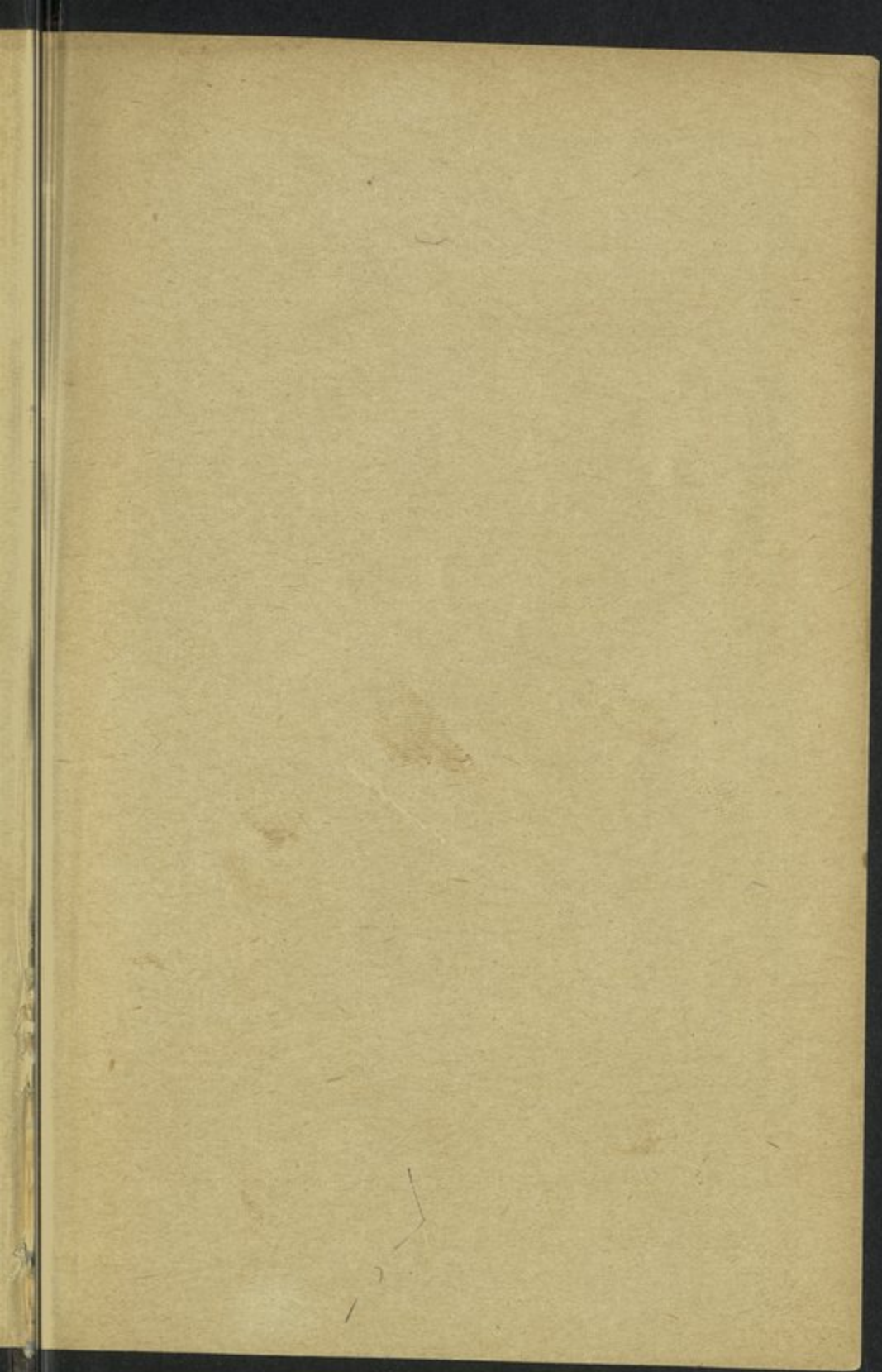
هذه هي المرحلة الأخيرة للإنسان كما صورها أبو العلاء .

رحلة مبهمة ، في تيه الظلمات . . . .

معالمها تأمّية ، ومراحلها غامضة ، ومناراتها خائية الأضواء . . .

والسراة فيها خليط منوع غريب . .

وكل سار فيها لا يعود . . . . .





## الخاتمة

و بعد فهذه دراسة لجانب واحد من فنّ أبي العلاء ، أخذنا فيها بالمنهج الحقّ الذي يقضى بالتخصص ، ويفرغ للمسألة الواحدة فيعكف عليها السنين الطوال .  
لقد جمعنا تأملات أبي العلاء في الحياة الإنسانية ، فصحبناه وهو يتبع مراحلها ، ويرصد متاعها ويواجه مشكلاتها .

لم يكن حديث أبي العلاء في هذه المسائل الإنسانية حديث فيلسوف يرقب تجربته ، أو ينظر بعقله ، ويتحدث بمنطقه ، ولم يكن حديث شاعر يهيم في كل واد ويقول ما لا يفعل ، وإنما كان حديث إنسان متأمل ممتاز ، يعالج هذه المسائل بكل قوى إنسانيته ، ويفكر فيها بعقله وقلبه ونفسه جميعاً .

\*\*\*

ولسنا نقول إننا اتهمنا إلى كشف جديد هام ، أو أننا بما لم يأت به الأوائل ، ولكننا نقول إننا اتهمنا إلى بعض نتائج ، نرجو أن تكون ذات أثر في توجيه الدراسات المفصلة التي تنتظر أن ينهض بها أصدقاء أبي العلاء وتلاميذه .  
من هذه النتائج :

- ١ — تحقيق الشخصية الفكرية ، لأبي العلاء ، ومحاولة فهم تعليل تردده في مسألة المعرفة : فقد آمن بالعقل حيناً وأسرف في الثقة به حتى جعله إماماً ونصيراً ونبياً ، ولكن هذا الإسراف جعله يضيق بقصوره عن فهم أسرار الكون وألغاز الغيبيات ، ومن ثم كانت تعاوده لؤثة الشك من حين إلى حين فيرتد عن الإيمان بالعقل ويتهمه بالعجز ويظن به الصدا ، ويسوى بينه وبين الجهل ، وهو في هذا يحيل — كأهل الأديان — على القدرة الإلهية ، ويعترف لها بالقدرة على « المستحيلات ، وما يمتنع في العقول » .
- ٢ — إقرار مكان أبي العلاء بين الشعر والفلسفة . وقد أوردنا أقوال من ينكرون

فلسفته . واعترفنا بأنه لم ينهج منهج الفلاسفة في عرض تأملاته ، ولم يثبت على رأى بعينه في المسألة الواحدة ، ولم يخضع في فهمه للكون ، لأصل ثابت من أصول المعرفة . ثم واجهنا من يجحدون شاعرية أبي العلاء ويرون أن نظمه « ليس من الشعر في شيء » ، محتجين بأنه خرج عن المألوف ، وتصدى بالشعر لمعالجة المسائل العقلية والأمور الجدية . وقلنا إن هذه الضوابط لا تلزمنا لأن تقيدنا بها وقوف بالشعر حيث تركه الأقدمون ، وتجاهل لذوقنا وإنكار لتسامى الفن . ثم لاحظنا أن الإنسانية قد عرفت هذا النوع من الشعر الذي يزدحم بالمعاني ويتصدى لمعالجة المسائل العليا ، وكان هذا النوع من الشعر نخر الرومان في شعر لوكريس ، والفرنسية في ألفريد دي فيني ، والفارسية في الخيام ، والهندية في طاغور وإقبال . كما عرفته العربية في شعر المتصوفة . لاحظنا كذلك أن العرب في تحديد الشعر ، أهدروا معنى الشعور ، وهو أجدر المعاني بالاعتبار لأنه الأصيل في المادة — نلاحظه في دورانها وتطورها — وأبو العلاء يجد فيعبر ، وشعره يترجم عن شعور نقي صاف قوى ، فهو بهذا جدير بأن يكون شاعراً لا تتمهم شاعريته .

ولم ننكر أن في شعره طائفة أفسدها التكلف والإكثار من المعاني والآراء ! كثيراً يشبه أن يكون مجرد نظم لها ، ولكننا استبعدنا شرط ثبات المستوى ، في فهم الشاعرية . ولم ننكر أيضاً أن أبا العلاء يختلف عن الشعراء ، ولكن هذا الاختلاف يأتي من كونه يجدي في قوله ، ويعنى ما يقول ، ويعبر عما يجدي ، صريحاً جريئاً غير متملق شعور العامة ولا مصالح الخاصة ، ومن ثم طلبنا لأبي العلاء مكانه بين الشعراء المتأملين الممتازين .

٣ — وعرضنا تأملات أبي العلاء في العلة الغائية — وهي المرحلة الأولى من مراحل الحياة الإنسانية — فأيناه يرفض رد الخلق إلى علة نعرفها ، ويأبى الاعتراف بأن الكون مخلوق لنا مسخر لأجلنا ، منتهياً إلى أن الله قد خلقنا لحكمة يعلمها هو ، وأن لكل كائن حي ، حقه الذاتي في الحياة .

٤ — وفي مرحلة الحياة رأيناها يواجه مشكلتين : الخير والشر ، والجبر والاختيار .  
في الأولى — آمن بأن الله خلق الخير والشر جميعاً ، لكننا لا نعلم حكمة خلقه للشر ،  
إلا أنه تعالى يفعل ما يشاء ، سبحانه لا يُسأل عما يفعل .

وفي الجبر والاختيار : ناقشنا قول من قالوا إنه جبري ، ورفضنا أن نقول إن الرجل  
كان يلتزم رأياً بعينه ، فليس مجبراً ، وليس مخيراً ، وليس متوسطاً ، وإنما يبعد  
في الجبر حيناً ، ويمعن في الاختيار حيناً ، ويتوسط بينَ بينَ ، حيناً ثالثاً من غير  
أن يثبت عند رأى بعينه .

٥ — ثم صحبناه وهو يواجه مأساة الموت فرأيناه مرة يرحب بالموت ، وأخرى  
يفزع منه فرعاه رهيباً غريباً ، وقد فسرنا ذلك : فهو يرحب بالموت لأنه يأس متعب  
متشائم . وهو يفزع من الموت لأسباب ثلاثة :

حبه للدنيا — وقد حققنا هنا مسألة زهده ، وصححنا ما شاع على الألسن عن  
انتصاره على الدنيا وبغضه لها ، مؤكداً أن هذا وهم مكذوب . فالرجل لم يبرأ قط  
من حب الدنيا ، ولم يسلم عنها أبداً . وإنما زهد في ملذاتها التافهة ، حين عجز عن الظفر  
بكل ما اشتهى من مجدها ونعيمها .

والسبب الثاني خوفه وجهه بما وراء الموت .

والسبب الثالث أن الموت هو مأساة الإنسانية الكبرى : كل نار تخبو ، وكل  
عامر يخرب ، وكل بناء يتقوض ، وكل حي إلى ممات .

٦ — هنا أصغينا إليه وهو يقف حائراً أمام المرحلة الأخيرة — بعد الموت —  
هو يؤمن بأن أجسادنا تبلى ، ورممنا تنهك ، ثم ننسى . ولكنه يجبل ما وراء ذلك .  
فزع إلى العقل فلم يسعفه العقل ، لأنه لم يطرق بعدُ مجال الغيبيات .

وسمع الأقوال عما وراء الموت ، فأنكرها وأباها ، لأنه لا يطمئن إلى الخبر وإن تواتر .  
وعرض الأمر على القدرة الإلهية فرأى البعث ممكناً ، ولكنه لم يطمئن إلى رفض أو

يقين، فودّو عاد ميت فقص عليه ما رأى وعانى وجرب، ولكن الموقى لا يعودون. وهم كذلك لا يسمعون قولاً ولا يجيبون سائلاً.

هذه هي خطوات البحث، وتلك هي النتائج التي اتهمنا إليها، وترى أننا في بعضها رفضنا أن نعتزف لأبي العلاء برأى بعينه، كمسألة المعرفة، والجبر والاختيار، وما وراء الموت. ولسنا لهذا كارهين، فما من مهمتنا أن نتكلف رأياً نضيفه إلى الرجل حين نراه مضطرباً لا يثبت عند رأى. وليس معنى هذا أننا أتعبنا أنفسنا دون جدوى، ودرسنا فلم ننته إلى شيء، بل نكون قد اتهمنا إلى أن أبا العلاء لم يثبت عند رأى بعينه. ولقد كنا في حاجة إلى أن تؤرخ تأملات أبي العلاء، لكي نعرف كيف تكونت آراؤه، وكيف عاشت في نفسه. ويربط بينها وبين الحوادث التي وقعت له، والمؤثرات التي تعرض لها. لكن هذا التاريخ — على ما يعترضه من حوائل مادية ليس من السهل تذليلها — يحتاج إلى خدمة هائلة، يقوم بها من يتوفرون على البحث والدراسة والاستقراء، حتى يردوا أقوال أبي العلاء إلى تاريخ منضبط أو مقارب. فلم نرم من الأمانة العلمية أن نتناول هذا التاريخ، عرضاً وتبعاً.

ولم يكن سهلاً علينا أن نتتبع أقوال أبي العلاء في المسألة الواحدة، فقد بثها متناثرة مشتتة في ثنايا قصائده وفضوله، لا تفرد القصيدة الواحدة أو الفصل الواحد، برأى بعينه، وإنما ينتقل مسرعاً في عوالم متباينة، غير حريص على رعاية الانتقال أو وحدة السياق. ولسنا نقول إننا بلغنا في بحثنا هذا ما نطمع له من كمال، ولكننا تؤكد أننا حرصنا أشد الحرص على بلوغ هذه الغاية، وبذلنا لها الجهد المستطاع، وتكلفنا في سبيلها ما هي جديرة به من تعب وعناء، غير ضجرين ولا متبرمين ما

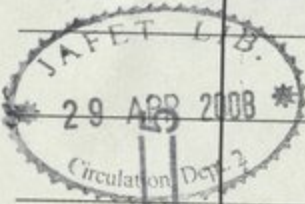
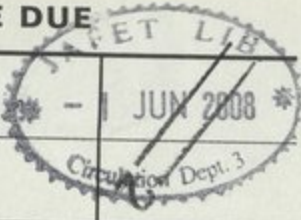

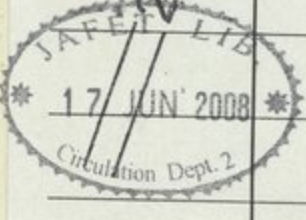
(بنت الشاطي)

الأورمان

أول مايو ١٩٤١

ها  
ء  
س  
،  
.  
ت  
ت  
ل  
مة  
ن  
رة  
،  
.  
سنا  
لها

## DATE DUE

DATE DUE	
	
	
	

عبد الرحمن ، عائشة  
الحياة الإنسانية عند أبي العلاء  
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01006887



AMERICAN  
UNIVERSITY OF BEIRUT

892.78  
A316YaA  
C.I